









# تفسير القرطبي

الجامع لأحكام القرآن  
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

حينئذ يكرم من تعلم القرآن وقلمه  
حدوث شريفة

٣٩

إذا كان «القرطبي» سيجلد في مجلد واحد فتترواح هذه الورقة

قوله تعالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب على النعت للنداء ، وهو رب ، وهو تداء مضاف ، والتقدير : يارب ! ويجوز أن يكون تداء ثانيا . والفاطر الخالق ؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات ، أى خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء ، ولا مثال سبق ؛ وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى ؛ عند قوله : « يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » وزدناه بيانا فى الكتاب الأئبى فى شرح اسماء الله الحسنى . ﴿ أَنْتَ وَلِيِّى ﴾ أى ناصرى ومتولى أمورى فى الدنيا والآخرة . ﴿ تَوَفَّى مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يريد أباه الثلاثة ؛ إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، فنوفاه الله — طاهرا طيبا صلى الله عليه وسلم — بمصر ، ودفن فى النيل فى صندوق من رخام ، وذلك أنه لما مات تشاح الناس عليه ؛ كل يحب أن يدفن فى محبته ، لما يرجون من بركته ؛ واجتمعوا على ذلك حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه فى النيل من حيث مفرق الماء بمصر يحفيمز عليه الماء ، ثم يتفرق فى جميع مصر ، فيكونوا فيه شرعا ففعلوا ؛ فلما خرج موسى بنى إسرائيل أنحرجه من النيل ، ونقل تابوته بعد أربعين سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع أبائه لدعوته : « وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ » وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام . وعن الحسن قال : ألقى يوسف فى الحب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ، ثم جمع له شمله فعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؛ وكان له من الولد لإفرائيم ، ومنشا ، ورحمة ، زوجة أيوب ؛ فى قول ابن طيعة . قال الزهرى : وولد لإفرائيم — ابن يوسف — نون بن إفرائيم ، وولد لنون يوشع ؛ فهو يوشع بن نون ، وهو قتي موسى الذى كان معه صاحب أمره ، ونباه الله فى زمن موسى عليه السلام ؛ فكان بعده نيبا ، وهو الذى أنتح أريحا ، وقتل من كان بها من الجبابرة ، واستوقت له الشمس حسب ما تقدم فى « المسائدة » . وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا ، قبل موسى بن عمران ، وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذى طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه ، والعالم هو الذى حرق

(٢) راجع ج ١ ص ١٢٠ وما بعدها طبع

(١) راجع ج ٢ ص ٨٦ وما بعدها طبع ثانية .

السفينة، وقتل الغلام، وبني الجدار، وموسى بن ملشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ، وكان  
 كهن عباس ينكر ذلك؛ والحق الذي قاله ابن عباس؛ وكذلك في القرآن. ثم كان بين يوسف  
 وموسى أيام وقرونه وكان ليا بينهما شعيب، صلوات الله عليهم أجمعين.

أفوله تعالى: **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ**  
**لَتَيْسِمَ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ**  
**وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ**  
**لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٢٨﴾**

قوله تعالى: **(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ)** ابتدأه وخبر **(نُوحِيهِ إِلَيْكَ)** خبر ثان. قال الزجاج: ويجوز أن يكون «ذلك» بمعنى الذي، و«نُوحِيهِ إِلَيْكَ» خبره؛ أي الذي من أنباء الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ؛ يعني هو الذي قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب «نُوحِيهِ إِلَيْكَ» أي ناعلك بوحى هذا إليك. **(وَمَا كُنْتَ لَتَيْسِمَ)** أي مع أخوة يوسف **(إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ)** في إلقاء يوسف في الحبس. **(وَهُمْ يَمْكُرُونَ)** أي بيوسف في إلقائه في الحبس. وقيل: «يَمْكُرُونَ» يعقوب حين جاءوه بالقميص ملطخا بالدم، أي ما شاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها.

قوله تعالى: **(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)** ظن أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون، فلم يؤمنوا؛ فترلت الآية تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم؛ أي ليس تغدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول: حرص يحرس، مثل: ضَرَبَ يَضْرِبُ. وفي لغة ضيقة حرص يحرس مثل حمد يحمده. والحرص طلب الشيء باختيار.

قوله تعالى: **(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)** «من» صلة؛ أي ما تسألهم جعلا. **(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ)** أي عظة وتذكير **(لِّلْعَالَمِينَ)**.

قوله تعالى : وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا  
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥٠﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٥١﴾  
أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً  
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥٢﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ  
أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعْنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٣﴾

قوله تعالى : ( وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) قال الخليل وسيويه : هي  
« آية » دخل عليها كاف التشبيه وبيئت معها ، فصار في الكلام معنى كم ، وقد مضى  
في « آل عمران » القول فيها مستوفى . ومضى القول في آية « السموات والأرض » في « البقرة » :  
وقيل : الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة ؛ أي هم غافلون معرضون عن تأملها . وقيل :  
حكمة وعبرون فائدة « وَالْأَرْضِ » رفعا آبئداء ، وخبره « يَمُرُّونَ عَلَيْهَا » . وقيل : السدى  
« وَالْأَرْضِ » نصيبا بلضمار فعل ، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقيل : ابن  
مسعود « يمشون عليها » .

قوله تعالى : ( وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ) نزلت في قوم أقروا بالله  
خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان ؛ قاله الحسن ومجاهد وطاهر والشعبي  
وأكثر المفسرين . وقال عكرمة هو قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » ثم يصفونه  
بغير صفته ويعملون له أندادا ؛ وعن الحسن أيضا أنهم أهل كتاب معهم شرك وإيمان ،  
لئنوا بالله وكفروا بحمد صلي الله عليه وسلم ، فلا يصح إيمانهم ؛ حكاه ابن الأنباري . وقال  
ابن عباس : نزلت في ثلثة مشركي العرب : لييك لا مشرك لك إلا شريكا هو لك عملك  
وما ملك . وعنه أيضا أنهم النصارى . وعنه أيضا أنهم المشبهة ، آمنوا بجلا وأشركوا

(١) طابع ٤٥ ص ٢٢٨ وما بعدها طبعه أدلار ثانية .

(٢) طابع ٤٥ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعه ثانية .

مفصلاً. وقيل : نزلت في المنافقين ؛ المعنى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ » أى باللسان إلا وهو كافر بقلبه ؛ ذكره الماوردي عن الحسن أيضا . وقال عطاء : هذا في الداء ؛ وذلك أن الكفار ينسبون ربهم في الرخاء ، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الداء ؛ بيانه : « وَظَنُوا أَنَّهُمْ آخِظٌ بِهِمُ » الآية . وقوله : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحَبِيْبِهِ » الآية ؛ وفي آية أخرى « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُودَهُ عَرِيضٌ » . وقيل : معناها أنهم يدعون الله يخيم من الملكة ، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا ، ولولا الكلب لدخل علينا اللص ، ونحو هذا ؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان ، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : قد يقع في هذا القول والذي قبله كثير من عوام المسلمين ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وقيل : نزلت هذه الآية في قصة الدخان ؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيم الدخان في منى ألحظوا : « رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » فذلك إيمانهم ، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب ؛ بيانه قوله : « إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » والعود لا يكون إلا بعد ابتداء ؛ فيكون معنى « إلا وهم مشركون » أى إلا وهم عائدون ، والله أعلم .

قوله تعالى : « أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ » قال ابن عباس : مجللة . وقال مجاهد : عذاب يغشاهم ؛ نظيره « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . وقال قتادة : وقبسة تقع ضم . وقال الضحاك : يعنى الصواعق والقوايع . « أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ » يعنى القيامة . « بَغْتَةً » نصب على الحال ؛ وأصله المصدر . وقال المبرد : جاء من العرب حال بعد نكرة ؛ وهو قولهم : وقع أمرهم بغتة وبغاة ؛ قال النحاس : ومعنى « بغتة » إصابة من حيث لم يتوقع . « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » وهو تأكيد . وقوله « بغتة » قال ابن عباس : تصبح الصبح الصبيحة بالناس وهم في أسواقهم ومواضعهم ، كما قال : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » على ما يأتى .

قوله تعالى : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي) ابتداء وخبر؛ أى قل يا محمد هذه طريقى وسبلى ومنهاجى؛  
 قاله ابن زيد . وقال الربيع : دعوى . مقاتل : دعى ، والمعنى واحد؛ أى الذى أنا عليه  
 وادعوا إليه يؤدى إلى الجنة . (على بصيرة) أى على يقين وحق؛ ومنه : فلان مستبصر بهذا .  
 (أَنَا) توكيد . (وَمَنْ اتَّبَعَنِي) عطف على المضمر . (وَسُبْحَانَ اللَّهِ) أى قل يا محمد : «وَسُبْحَانَ  
 اللَّهِ» . (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الذين يخذون من دون الله أندادا .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ  
 أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ  
 مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ حَتَّى إِذَا  
 أَمْسَسَ الرُّسُلَ وُظِنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَأْسَةٍ  
 وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) هذا رد على  
 القائلين : «لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» أى أرسلنا رجلا ليس فهم امرأة ولا جن ولا ملك؛ وهذا  
 رد ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن في النساء أربع نبيات حواء وآسية وأم  
 موسى وصرم» . وقد تقدم في «آل عمران» شئ من هذا . «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» يريد المدائن؛  
 «لم يبعث الله نبيا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو» ؛ ولأن أهل الأمصار  
 أعدل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبيا من أهل البادية قط ، ولا من  
 للنساء ، ولا من الجن . وقال قتادة : «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» أى من أهل الأمصار؛ لأنهم  
 أعلم وأحلم . وقال العلماء : من شرط الرسول أن يكون رجلا آدميا مدنيا ؛ وإنما قالوا آدميا  
 تمهيزا؛ من قوله : «يُؤَدُّونَ رِجَالٍ مِنَ الْحَقِّ» والله أعلم .

أقوله تعالى: ﴿ أَقْلَمَ سِيرًا فِي الْأَرْضِ فَهُمْ لَا يَمْتَنِعُونَ ﴾ (١) إلى مصارع الأمم المكذبة لأنهم  
 (يَمْتَنِعُونَ) . (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ) ابتداء وخبره . وزعم الفراء أن الدار هي الآخرة ؛ وأضيف  
 الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ ، كيوم الخميس ، وبارحة الأولى ؛ قال الشاعر  
 « وَلَوْ أَقْوَتْ عَلَيْكَ دِيَارُ عَيْسٍ » عَرَفَتْ الذَّلَّ عِرْفَانِ الْيَقِينِ

أي عِرْفَانًا بَقِينًا ؛ وأحتج الكسائي بقولهم : صلاة الأولى ؛ واحتج الأخفش بمسجد الجامع .  
 نال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال ؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعريف به ؛  
 والأجود الصلاة الأولى ، ومن قال صلاة الأولى فمعتاه : عند صلاة التريضة الأولى ؛ وإنما  
 لُهِمَّتِ الْأُولَى لأنها أول ما صَلَّى حين فُرِضَتِ الصَّلَاةُ ، وأول ما أَظْهَرَ ؛ فلذلك قيل لها أيضا  
 الظُّهْر . والتقدير : ولدَارِ حال الآخرة خير ، وهذا قول البصريين ؛ والمراد بهذه الدار الجنة ؛  
 أي هي خير للثقلين . وقرئ « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ » . وقرأ نافع وعاصم وبقوب وغيرهم ﴿ أَفَلَا  
 تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب . الباكون بالياء على الخبر .

أقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَهُدِمَتِ الْقَرْيَاتُ حَرَبٌ مِّنْهُمْ ﴾ (٢) . (وَعَلَّوْنَا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا)  
 وهذه الآية فيها تزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم . وهذا الباب عظيم ، وخطره جسيم ،  
 ينبغي الوقوف عليه لئلا يزل الإنسان فيكون في سواء الجحيم . المعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد  
 إلا رجالا ثم لم تعاقب أهمهم بالعقاب « حتى إذا استيأس الرسل » أي يشوا من إيمان  
 قومهم « وعللنا أنهم قد كذبوا » بالتشديد ؛ أي أيقنوا أن قومهم كذَّبُوهم . وقيل المعنى :  
 حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذَّبُوهم ، لَا أَنَّ الْقَوْمَ كَذَّبُوا ، ولكن الأنبياء ظنوا وحسبوا  
 أنهم يَكْتُبُونَهُمْ ؛ أي خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شك ؛ فيكون « وعللنا » على بابه في هذا  
 التأويل ؛ وقرأ ابن عباس وأبن مسعود وأبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ وأبو جعفر بن القَعْقَاعِ  
 والحسن وقتادة وأبو رَجَاءِ الطَّائِرِيُّ وعاصم وحمنة والكسائي ويحيى بن وثاب والأعمش  
 وخلف « كَذَّبُوا » بالتخفيف ؛ أي ظن القوم أن الرسل كذَّبُوهم فيما أخبروا به من العذاب ،

(١) وفي رواية : « ذَلَّكَ لِحَالَتِ دِيَارِ عَيْسٍ » . (٢) وأصح من ٢٤١ من هذا الجزء

ولم يصدقوا . وقيل : المعنى ظنَّ الأئم أن الرسل قد كَذَّبُوا فيما وعدُوا به من نصرهم . وفي رواية عن ابن عباس ؛ ظنَّ الرسل أن الله أخلف ما وعدهم . وقيل : لم تصح هذا الرواية ؛ لأنه لا يظنَّ الرسل هذا الظنَّ ، ومن ظنَّ هذا الظنَّ لا يستحقَّ النصر ؛ فكيف قال : ( جَاءَهُمْ نَصْرًا ) ؟ ! قال القُشَيْرِيُّ أبو نصر : ولا يبعد إن صحَّت الرواية أن المراد خطر بقلوبه البشر هذا من غير أن يتحققوه في نفوسهم ؛ وفي الخبر : « إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تعمل به » . ويجوز أن يقال : قربوا من ذلك الظنَّ ؛ كقولك : بلغت المنزل ، أى قربت منه . وذكر الثعلبي والنحاس عن ابن عباس قال : كانوا بشرًا فضِعُفُوا من طول البلاء ، ونُسُوا وظَنُّوا أَنَّهُمْ أُخْلِفُوا ؛ ثم تلا : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » . وقال الترمذى الحكيم : وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعد ما وعد الله النصر ، لا من همة بوعدهم الله ، ولكن لهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدًا ينقض ذلك الشرط والعهد الذى عهد إليهم ؛ فكانت إذا طالت المدَّة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه . وقال المهدوى عن ابن عباس : ظنَّت الرسل أَنَّهُمْ قد أُخْلِفُوا على ما يلحق البشر ؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى » الآية . والقراءة الأولى أولى . وقرا مجاهد وحמיד — « قد كَذَّبُوا » بفتح الكاف والذال مُخَفَّفًا ، على معنى : وظنَّ قوم الرسل أن الرسل قد كَذَّبُوا ، لما رأوا من تفضُّل الله عزَّ وجلَّ في تأخير العذاب . ويجوز أن يكون المعنى : و [ لما ] أيقن الرسل أن قومهم قد كَذَّبُوا على الله بكفرهم جاء الرسل نصرنا . وفي البخارى عن عُرْوَةَ عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عزَّ وجلَّ : « حتى إذا استياس الرسل » قال قلت : أ كَذَّبُوا أم كُذِّبُوا ؟ قالت عائشة : كَذَّبُوا . قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كَذَّبُوهم فما هو بالظنِّ ؟ قالت : أَجَل ! لعمري ! لقد استيقنوا بذلك ؛ فقلت لها : « وظنُّوا أَنَّهُمْ قد كَذَّبُوا » قالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظنُّ ذلك برها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أنبياء الرسل [ الذين آمنوا برهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استياس الرسل ]

مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَظَنَّتِ الرِّسْلُ أَنْ أَتْبَاعَهُمْ كَذَّبُوهُمْ جَاعَهُمْ نَصَرْنَا عِنْدَ ذَلِكَ .  
 وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « جَاعَهُمْ نَصَرْنَا » قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا - جَاءَ الرِّسْلُ نَصْرَ اللَّهِ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .  
 الثَّانِي - جَاءَ قَوْمُهُمْ عَذَابُ اللَّهِ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . ( فَتَجَى مَنْ نَشَأُ ) قِيلَ : الْإِنْيَاءُ وَمَنْ آمَنَ  
 مَعَهُمْ . وَرَوَى عَنْ عَاصِمٍ « فَتَجَى مَنْ نَشَأُ » بَنُونَ وَاحِدَةٌ مَفْتُوحَةٌ الْيَاءُ ، وَ « مَنْ » فِي مَوْضِعِ  
 رَفْعٍ ، أَسْمَ مَا لَمْ يَكُنْ فَاعِلُهُ ؛ وَأَخْتَارَ أَبُو عُبَيْدٍ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ لِأَنَّهَا فِي مَصْحَفِ عُثْمَانَ وَسَائِرِ  
 مَصَاحِفِ الْبِلَادِ بَنُونَ وَاحِدَةٌ . وَقَرَأَ ابْنُ مَيْمُونٍ « فَتَجَا » فَعْلٌ مَاضٍ ، وَ « مَنْ » فِي مَوْضِعِ  
 رَفْعٍ لِأَنَّهُ الْفَاعِلُ ، وَعَلَى قِرَاءَةِ الْبَاقِينَ نَصْبًا عَلَى الْمَفْعُولِ . ( وَلَا يُرَدُّ بَأْسًا ) أَيُ عَذَابِنَا . ( عَنِ الْقَوْمِ  
 الْمُجْرِمِينَ ) أَيُ الْكَافِرِينَ الْمُشْرِكِينَ .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ) أَيُ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَآبِيهِ وَإِخْوَتِهِ ، أَوْ فِي قِصَصِ  
 الْأَنْبِيَاءِ ( عِبْرَةٌ ) أَيُ فِكْرَةٌ وَتَذَكُّرَةٌ وَعِظَةٌ . ( لِأُولِي الْأَلْبَابِ ) أَيُ الْمَقُولِ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ  
 عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ التَّيْمِيِّ : إِنَّهُ يَعْقُوبُ عَاشَ مِائَةَ سَنَةٍ وَسَبْعًا  
 وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَتَوَفَّى أَخُوهُ عِيسَى مَعَهُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، وَقُفِّرَا فِي قَبْرِ وَاحِدٍ ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ :  
 « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » إِلَى آخِرِ السُّورَةِ . ( مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى )  
 أَيُ مَا كَانَ الْقُرْآنُ حَدِيثًا يُفْتَرَى ، أَوْ مَا كَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ حَدِيثًا يُفْتَرَى . ( وَلَكِنْ تَصْدِيقَ  
 الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ) أَيُ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَسَائِرِ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَهَذَا تَأْوِيلُ  
 مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ الْقُرْآنُ . ( وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ) مِمَّا يَحْتَاجُ الْعِبَادَ إِلَيْهِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَالشَّرَائِعِ  
 وَالْأَحْكَامِ ( وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة الرعد

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدينة في قول الكلبي ومقاتل . وقال ابن عباس وقادة : مدينة إلا آيتين منها نزلنا بمكة ؛ وهما قوله عز وجل : « وَلَوْ أَنَّ قَوْمًا سَوَّيْتُ بِهِ الْجِبَالَ » [ إلى آخرها ] <sup>(١)</sup>

قوله تعالى : اَلَمْ تَرَ تِلْكَ اَيَّاتِ الْكِتَابِ وَالَّذِي اُنْزِلَ اِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①

قوله تعالى : ( اَلَمْ تَرَ تِلْكَ اَيَّاتِ الْكِتَابِ ) تقدم القول فيها . ( وَالَّذِي اُنْزِلَ اِلَيْكَ ) يعني وهذا القرآن الذي انزل إليك ( مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ) لا كما يقول المشركون : إنك أتى به من تلقاء نفسك ؛ فاعتصم به ، وأعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه . « والذي » في موضع رفع عطفا على « آيات » أو على الأبداء ، و « الحق » خبره ، ويحوز أن يكون موضعه جوا على تقدير : وآيات الذي أنزل إليك ، وارتفاع « الحق » على هذا على إضمار مبتدأ ، تقديره : ذلك الحق ؛ كقوله تعالى : « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » . الحق « يعني ذلك الحق . قال الفراء : وإن شئت جعلت « الذي » خفضا نعنا للكتاب ، وإن كانت فيه الواو كما يقال : أنا هذا الكتاب عن أبي حفص والفاروق ؛ ومنه قول

الشاعر

إلى الملك أقدم وأبن المهام • وليت الكنية في المزدحم  
يريد : إلى الملك أقدم بن المهام ، ليت الكنية . ( وَلَكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ) .

(١) الزيادة من قسم الجهر . (٢) الغم (فتح الحاف) ، السيد ، والكنية ، الجنب ، والمزدحم : علم الازدحام .

قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَغَضَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾**

قوله تعالى : **(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)** الآية . لما بين تعالى أن القرآن حق ، بين أن من أنزه قادر على الكمال ، فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته ، وقد تقدم هذا المعنى . وفي قوله : **(بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)** قولان : أحدهما — أنها مرفوعة بغير عمد ترونها ، قاله قتادة وإياس بن معاوية وغيرهما . الثاني — لها عمد ، ولكننا لا نراه ، قال ابن عباس : لها عمد على جبل قاف ، ويمكن أن يقال على هذا القول : العمد قدرته التي يُمسك بها السموات والأرض ، وهي غير مرئية لنا ، ذكره الزجاج . وقال ابن عباس أيضا : هي توحيد المؤمن . أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر ، ذكره الفريزوي . والممد جمع عمود ، قال التائبة :

وَحَيْسَ لِحِنْ يَأْنِي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ • يَنْبُونُ تَدْمَرُ بِالصُّفَاحِ وَالْعَمَدِ <sup>(١)</sup>

**(ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ)** تقدم الكلام فيه . **(وَوَضَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)** أي ذللهما لمنافع خلقه ومصالح عباده ، وكل مخلوق مذل للخالق . **(كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)** أي إلى وقت معلوم ، وهو فناء الدنيا ، وقيام الساعة التي عندها تكوّر الشمس ، ويحسف القمر ، وتنكدر النجوم ، وتنتثر الكواكب . وقال ابن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلها التي ينتهيان إليها لايجاوزانها . وقيل : معنى الأجل المسمى أن القمر يقطع فلكه في شهر ، والشمس في سنة . **(يُدِيرُ الْأَمْرَ)** أي يصرفه على ما يريد . **(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ)** أي يبينها ، أي من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة ، ولهذا قال : **(لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾)** .

(١) ويروي : وخبر الحين . وطوس ، ذال ، وكمر ، به بالتمام بتأيد سيدنا سليمان عليه السلام . والصُّفَاحُ حجارة عراض رافق . وعمد ، جمع عمود . (٢) راجع به ٧ ص ٢١٩ طبة أهل أروانية .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا  
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِجَالَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ الْأَنْهَارَ إِنَّ  
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ( وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ) لما بين آيات السموات بين آيات الأرض ،  
أى بسط الأرض طولاً وعرضاً . ( وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ) أى جبالاً ثوابت ، واحداها راسية ،  
لأن الأرض ترسوها ، أى تثبت ، والإرساء الثبوت ؛ قال عنترة :  
فَصَبَرْتُ عَارِفَةَ لَدَاكَ حُرَّةً • تَرَسُّو إِذَا نَفَسَ الْجَبَانُ تَطْلُعُ  
وقال جميل :

أَحِبُّهَا وَالَّذِي أَرَسَى قَوَاعِدُهُ • حُبًّا إِذَا ظَهَرَتْ آيَاتُهُ بَطْنًا  
وقال ابن عباس وعطاء : أَوَّلُ جَبَلٍ وَضِعَ عَلَى الْأَرْضِ أَبُو قُبَيْسٍ .<sup>(١)</sup>

مسئلة — فى هذه الآية رَدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْأَرْضَ كَالْكُرَةِ ، وَرَدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ  
الْأَرْضَ تَهْوِي أَوْ يَابِسُ عَلَيْهَا ، وَزَعَمَ ابْنُ الرَّائِدِ أَنَّ تَحْتَ الْأَرْضِ جِسْمًا صَعَادًا كَالرَّجْحِ الصَّاعِدَةِ  
وَهِيَ مُتَحَدِرَةٌ فَاعْتَدَلَ الْمَاهَوِي وَالصَّاعِدِي فِي الْحَرَمِ وَالْقُوَّةِ مُتَوَافِقًا . وَزَعَمَ آخَرُونَ أَنَّ الْأَرْضَ  
مُرْكَبَةٌ مِنْ جِسْمَيْنِ ، أَحَدُهُمَا مُتَحَدِرٌ ، وَالْآخَرُ مُصْعَدٌ ، فَاعْتَدَلَا ، فَلِذَلِكَ وَقَفْتُ . وَالَّذِي عَلَيْهِ  
الْمَسَامُونَ وَأَهْلُ الْكَتَابِ الْقَوْلُ بِوُقُوفِ الْأَرْضِ وَسُكُونِهَا وَمَدَامَا ، وَأَنَّ حَرَكَتَهَا إِنَّمَا تَكُونُ  
فِي الْعَادَةِ بَزَلَّةً تَصْبِيهَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَأَنْهَارًا ) أَيْ مِيَاهَا جَارِيَةٌ فِي الْأَرْضِ ، فِيهَا  
مَنَافِعُ انْتِلَاقٍ . ( وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِجَالَيْنِ اثْنَيْنِ ) بِمَعْنَى صَفْتَيْنِ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ :  
الرَّوْجُ وَاحِدٌ ، وَيَكُونُ اثْنَيْنِ . الْفِرَاءُ : يَعْنِي بِالرَّوْجَيْنِ هَاهُنَا الذِّكْرُ وَالْأُنْثَى ؛ وَهَذَا خِلَافُ

(١) قبل البيت

وعرفت أن متى إن تأتي لا يثيق منها الفرار الأسرع

(٢) أبو قبس : جبل مشرف على سيد مكة

النَّص . وقيل : معنى « زوجين » نومان ، كالحلوة والحامض ، والرطب والبابس ،  
والأبيض والأسود ، والصغير والكبير . ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ) أى دلالات وعلامات  
( لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) .

قوله تعالى : ( فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ  
وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضِلُ بَعْضُهَا عَلَى  
بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) ❶

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ) في الكلام حذف ؛ المعنى :  
وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات ؛ كما قال : « سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » والمعنى :  
وتقيكم البرد ، ثم حذف لعم السامع . والمتجاورات المدن وما كان عامرا ، وغير متجاورات  
الصحارى وما كان غير عامر

الثانية - قوله تعالى : « متجاورات » أى قرى متدانيات ، ترابها واحد ، وماؤها  
واحد ، وفيها زروع وجنات ، ثم تنفاوت في الثمار والثمار ؛ فيكون البعض حلوا ، والبعض  
حامضا ؛ والنفس الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغير والكبير واللون والمطعم ،  
وإن أنبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ؛ وفي هذا أدل دليل على وحدانيته  
وعظم صديقه ، والإرشاد لمن ضل عن معرفته ؛ فإنه نبه سبحانه بقوله : « تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ »  
على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ؛ وهذا أدل دليل على  
بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف .  
وقيل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين اليقاع ؛ فمن تربة مذبة ، ومن تربة سيخة  
مع متجاورهما ؛ وهذا أيضا من دلالات كمال قدرته ؛ جل ومن تعالى عما يقول الظالمون  
والجاحدون علوا كبيرا .

**الثانية - نعت الكفرة -** لنهم الله - إلى أن كل لحمت يحدث بظف لا من صانع؛ وأدعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقروا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأمراض . وقالت فرقة: يحدث الثمار لا من صانع، وأنهوا للأمراض قاعلا؛ والدليل على أن الحادث لابد له من محدث أنه يحدث في وقت، ويحدث ما هو من جنسه في وقت آخر، فلو كان حدوثه في وقته لا اختصاصه به لوجب أن يحدث في وقته كل ما هو من جنسه؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل تخصيص خصصه به ، ولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ وأستيفاء هذا في علم الكلام .

**الرابعة -** قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ قرأ الحسن « وجنات » بكسر التاء، على تقدير: وجعل فيها جنات؛ فهو محمول على قوله : « وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي » . ويعرف أن تكون مجرورة على الحمل على « كل » التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات . الباقر: « جنات » بالرفع على تقدير: وبينهما جنات . ﴿ وَزِدْجٌ وَنَحِيلٌ صُنُونٌ وَغَيْرُ صُنُونٍ ﴾ بالرفع . ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفا على الجنات؛ أى على تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل . وخفصها الباقر نسفاً على الأعناب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجنات؛ ويجوز أن يكون معطوفا على « كل » حسب ما تقدم في « وجنات » . وقرأ مجاهد والسائي وغيرهما « صُنُونٌ » بضم الصاد ، الباقر بالكسر؛ وهما لفتان؛ وهما جمع صنو، وهى الثغلات والنخلتان ، يجمعن أصل واحد، وتشتب منه رهوس تصير نخيلا؛ نظيرها قنوان، واحدها قنؤ . وروى أبو إسحق عن البراء قال: الصنوان المجمع، وغير الصنوان المتفرق؛ والنحاس: وكذلك هو في اللغة؛ يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان . والصنؤ المثل؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: « ثم الرجل صنؤ أبيه » . ولا فرق فيها بين التثنية والجمع ، ولا بالإعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التثنية؛ قال الشاعر:

العلم والحلم خلقتا كرم . للره زين إذا هما اجتمعا

صنوان لا يستم حسنها . إلا يجمع ذا وذاك معا

**الخامسة - قوله تعالى : ( يُسْقِي بِمَاءٍ وَاحِدٍ )** كصالح بن آدم وخمينهم ، أيهم  
واحد ؛ قاله اللطاس والبخاري . وقرأ ماصم وابن عامر « يُسْقِي » بالياء ، أى يُسْقِي ذلك كله .  
وقرأ الباقر بالباء ، لقوله : « جنات » واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة ؛ قال أبو عمرو :  
« والثابت أحسن » ، لقوله : « وَنَفْضُلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ » ولم يقل بفضله . وقرأ  
حمزة والكسائي وغيرهما « وَبُفَضْلُ » بالياء ردًا على قوله : « يُدِيرُ الْأَمْرَ » و « يُفَضِّلُ »  
هو « يُفَيْشِي » . الباقر بالنون على معنى : ونحن بفضل . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت  
النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعلى رضى الله عنه : « الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة  
واحدة » ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَتَجَاوَرَاتٌ » حتى بلغ قوله :  
« يُسْقِي بِمَاءٍ وَاحِدٍ » و « الْأُكْلِ » الثمر . قال ابن عباس : يعنى الحلو والحامض والفارسي  
والدقل . وروى مرفوعا من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قوله  
تعالى : « وَنَفْضُلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ » قال : « الفارسي والدقل والحلو والحامض »  
ذكره الثعلبي . قال الحسن : المراد بهذه الآية المتشمل ؛ ضربه الله تعالى لبنى آدم ، أصلهم  
واحد ، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر ، باختلاف الثمار التى تسقى بماء واحد ؛  
ومنه قول الشاعر :

الناس كالتبت والتبت ألوان \* منها شجر الصندل والكافور والبان

• ومنها شجر ينضج طول للتمر قطران •

( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) أى لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْنَا لَنِي خَلْقِي  
جَدِيدٌ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ  
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( وَإِنْ تَعَجَّبَ فَتَعَبِّ قَوْلَهُمْ ) أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بما كنت عندهم المصدق الأمين فاعجب منه تكذيبهم بالبعث ؛ والله تعالى لا يتعجب ؛ ولا يحور عليه التعجب ؛ لأنه تغير النفس بما تخفى أسبابه ؛ وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون .  
وقيل المعنى : أى إن عجت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأنى خالق السموات والأرض والسموات المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يحجب عنه الخلق ؛ لأن الإعادة فى معنى الابتداء . وقيل : الآية فى منكرى الصانع ؛ أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بد له من مغير فهو محل التعجب ؛ ونظم الآية يدل على الأول والثانى ؛ لقوله : ( أَلَمْ نَكُنْ أَوَّلَ مَا خَلَقْنَا ) أى أنبت إذا كنا ترابا ؟ ! . ( أَلَمْ نَكُنْ لَكَ خَلْقًا جَدِيدًا ) وفروا «إِنَّا» . و ( الْأَغْلَالُ ) جمع غُلٍّ ؛ وهو طَوْقٌ تُشَدُّ به اليد إلى العُنُقِ ؛ أى يُلَوَّنُ يوم القيامة ؛ بدليل قوله : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ » إلى قوله : « ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » . وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم .

قوله تعالى : ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ )

قوله تعالى : ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ) أى لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب ؛ قيل هو قولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ » . قال قتادة : طلبوا العقوبة قبل العافية ؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . وقيل : « قبل الحسنه » أى قبل الإيمان الذى يربى به الأمان والحسنات . و ( الْمَثَلَاتُ ) المقوبات ؛ الواحدة مثلة . وروى عن الأعمش أنه قرأ « الْمَثَلَاتُ » بضم الميم وإسكان التاء ؛ وهذا جمع مثلة ، ويجوز

« المثلث » تبتل من الضمة كقمة لتقلها ، وقيل : يؤتى بالضمه موهبا من الله .  
 وروى عن الأعمش أنه قال : « المثلث » بفتح الميم وإسكان اللام ، فهذا جمع مثلة ، ثم حذف  
 الضمة لتقلها ، ذكره جميعه النحاس رحمه الله . وعلى قراءة الجماعة واحده مثلة ، نحو صدقه ؛  
 وتيم نضم اللام وألحم جميعا ، واحدها على لفتح مثلة ، بضم الميم وجرم اللام ، مثل : غُرْفَة  
 وغُرَفَات ، والفعل منه مَثَّلْتُ به أَثْمَلُ مثلاً ، بفتح الميم ومكسرة اللام . ( وَإِنْ رَبَّكَ  
 لَتَوْ مَفْسِرَةٌ ) أى لئن تجاوز عن المشركين إذا آمنوا ، وعن المنسبين إذا تابوا . وقال  
 ابن عباس : أرى آية في كتاب الله تعالى « وإن ربك لتؤمفرة للناس على ظلمهم » .  
 ( وَإِنْ رَبَّكَ لَتَشِيدُ الْعِقَابَ ) إذا أصرروا على الكفر . وروى حماد بن سنان عن علي بن زيد  
 عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت « وإن ربك لتؤمفرة للناس على ظلمهم وإن ربك  
 لتشيد العقاب » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا عفو الله ورحمته وتجاوزة  
 لنا هنا أحدنا عبث ولولا عقابه ووعيده وعذابه لأتكل كل أحد » .

قوله تعالى : ( وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا ) أى هلا ( أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ) .  
 لما أقرحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ( إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ )  
 أى مُنْذِرٌ . ( وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ) أى نبي يدعوهم إلى الله . وقيل : الهادي الله ، أى هلك  
 الإنذار ، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم .

قوله تعالى : اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ  
 وَمَا تَرْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝ عَنِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ  
 الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ۝  
 فيه ثمان مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ) أى من ذكر وأنى ، صريح وقبيح ،  
 صالح وطالح ؛ وقد تقدم في سورة « الأنعام » أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده  
 ( ر ) راجع ج ٧ ص ١ وما بعدها طيبة أول أدبانية .

لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مقتبض الغيب خمس » الحديث . وفيه « لا يعلم ما تقيض الأرحام إلا الله » .  
 واختلف العلماء في تأويل قوله : ( وَمَا تَقْيِضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزَادُ ) فقال قتادة : المني ما يُسْقِط قبل التسعة الأشهر ، وما تزداد فوق التسعة ؛ وكذلك قال ابن عباس . وقال مجاهد : إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصانا في ولدها ؛ فإن زادت على التسعة كان تمامها لما نقص ؛ وعنه : النقيض ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداد منه . وقيل : النقيض والزيادة يرجعان إلى الولد ، كنقصان إصبع أو غيرها ، وزيادة إصبع أو غيرها . وقيل : النقيض أقطع دم الحيض « وما تزداد » بدم النفاس بعد الوضع .

الثانية - في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو ملهه مالك والشامي في أحد قولي . وقال عطاء والشامي وغيرهما : لا تحيض ؛ وبه قال أبو حنيفة ؛ ودليله الآية . قال ابن عباس في تأويلها : إنه حيض الحبالى ، وكذلك روى عن عكرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة ؛ وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حيضن أن يتركن الصلاة ؛ والصحابة إذا ذاك متوافرون ، ولم ينكرنهم أحد عليهما ، فصار كالإجماع ؛ قاله ابن عباس . قال ابن القصار : وذكر أن رجلين تنازعا ولدا ، فترافعا إلى عمر رضى الله عنه فعرضه على القافة ؛ فالحقه القافة بهما ، فعلاه عمر بالبرّة ، وسأل نسوة من فريش فقال : أنظرن ما شأن هذا الولد ؟ فقلن : إن الأول خلّا بها وخلّاهما ، فحاضت على الحمل ، فظننت أن عنتها انقضت ؛ فسلن بها الثانى ، فانتش الولد بماء الثانى ؛ فقال عمر : الله أكبر ! والحقه بالأول ، ولم يقل إن الحامل لا تحيض ؛ ولا قال ذلك أحد من الصحابة ؛ فدل أنه إجماع ، والله أعلم . احتج المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض ، وكانت مآثره المرأة من الدم حيضا لما سمع استبراء الأمة بحيض ؛ وهو إجماع . وروى عن مالك في كتاب عمه ما يقتضى أنه ليس بحيض .

الثالثة - في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر ، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر ، وأن عبد الملك بن مروان ولد لسته أشهر .

**الرابعة -** هذه السنة الأشهر من بالأهلة كسائر أشهر الفريضة؛ وذلك قد روى  
 له الألب من بعض أصحاب مالك وأخذه في كتاب ابن حارث أنه إن قصص عن الأشهر  
 السنة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لمة قصص الأشهر وزيادتها؛ حكاه ابن عطية .

**الخامسة -** وأختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جريج عن جميلة بنت سعد  
 عن عائشة قالت؛ لا يكون الحمل أكثر من ستين قنر ما يتحول ظل المنزل؛ ذكره  
 الترمذي وقال؛ جميلة بنت سعد سألته عمن عمن الليث بن سعد - إن أكثره  
 ثلاث سنين . وعن الشافعي أربع سنين؛ وروى عن مالك في إحدى روايته؛ والمشهور عنه  
 خمس سنين؛ وروى عنه لا حد له؛ ولو زاد على عشرة الأعرام؛ وهي الرواية الثالثة عنه .  
 وعن الزهري سنة وسبع . قال أبو عمر؛ ومن الصحابة من يجعله إلى سبع؛ والشافعي : مدة  
 الثمانية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : ستان لا غير . ومحمد بن عبد الحكم يقول :  
 سنة لا أكثر . وداود يقول : تسعة أشهر؛ لا يكون عنده حمل أكثر منها . قال أبو عمر :  
 وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد؛ والرد إلى ما عرفت من أمر النساء وبالله التوفيق .  
 روى الترمذي عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمالك بن أنس إن حدثت من عائشة أنها  
 قالت : لا تزيد المرأة في حملها على ستين قنر ظل المنزل؛ فقال : سبحان الله ! من يقول  
 هذا؟! هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان، تحمل وتضع في أربع سنين، امرأة صدق، وزوجها  
 رجل صدق؛ حملت ثلاثة أطنان في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره  
 المبارك ابن مجاهد قال : مشهور عندها كانت امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع  
 سنين، وكانت تسمى حاملة القبيل . وروى أيضا قال : بينا مالك بن دينار يوما جالسا  
 إذ جاءه رجل فقال : يا أبا يحيى ! أدع لامرأة حتى منذ أربع سنين قد أصبحت  
 في كرب شديد؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القوم إلا آفة  
 أنبياء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجها عنها  
 الساعة ، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها فلانا ، فأتت تمحو ما قصا وتثبت ، وعندك

أثم الكتاب ، ورفع مالك يده ، ورفع الناس أيديهم ، وجاء الرجل إلى الرجل فقال له : أنت  
 أمرأتك ، قذهب الرجل ، لها حظ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رجليه  
 غلام جعد قَطَطٌ <sup>(١)</sup> ، ابن أربع سنين ، قد استوت أسننته ، ما طمعت سيارته ، ورؤى أيضا أن  
 رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! يا بني فبت من امرأتى مئتين بلحمت  
 وهى حبلى ، فشاور عمر الناس في رجمها ، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان  
 لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل ، فاتركها حتى تضع ، فتركها ، فوضعت غلاما  
 قد خرجت ثنيته ، فعرف الرجل الشبه فقال : ابنى ووب الكعبة ! ، فقال عمر : عجزت  
 النساء أن يلدن مثل معاذ ، لولا معاذ لهلك عمر . وقال الضحاک : وضعتى أمى وقد حملت  
 بى في بطنها ستين ، فولدتى وقد خرجت سنّى . ويذكر عن مالك أنه حمل به في بطن أمه  
 سنتان ، وقيل : ثلاث سنين . ويقال إن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين ،  
 فالت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا ، فشق بطنها وأخرج وقد نبت أسنانه . وقال حماد  
 ابن سلمة : إنما سمى هريم بن حبان هريما لأنه بقى في بطن أمه أربع سنين . وذكر الفزقوى أن  
 الضحاک ولد لستين ، وقد طلعت سنه فسُمى صمحاكا . عباد بن العوام : ولدت جارة لنا  
 لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه ، فتر به طير فقال : كش .

السادسة — قال ابن خُوَيزَمَداد : أقل الحليض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره  
 مأخوذ من طريق الاجتهاد ؛ لأن علم ذلك استأثر الله به ، فلا يجوز أن يحكم فى شيء منه إلا بقدر  
 ما أظهره لنا ، ووُجد ظاهرا فى النساء نادرا أو معتادا ؛ ولما وجدنا امرأة قد حملت أربع  
 سنين وخمس سنين حكنا بذلك ، والنفاس والحليض لما لم نجد فيه امرأة مستقرا رجعتا فيه  
 إلى ما يوجد فى النادر منه .

السابعة — قال ابن العربي : نقل بعض المتساهلين عن المالكيين أن أكثر الحمل  
 تسعة أشهر ، وهذا ما لم ينطق به قط إلاهاكيتي ، وهم الطبايعيون الذين يزعمون أن مدبر الحمل

(١) جعد قَطَط : شديد الجعودة . (٢) سرد الصبي : ما قطعه القطة .

في الزم الكواكب السبعة، تأخذه شهرا شهرا، ويكون الشهر الرابع منها الشمس، ولذلك  
يحترك ويضطرب، وإذا تكامل التداول في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر  
الثامن إلى زحل، فيقبله برده، فيالتي تمكنت من مناظرهم أو مقاتلتهم ! ما بال المرجع  
بعد تمام الدور يكون إلى زحل دون غيره ؟ آله أخبركم بهذا أم هل الله تغفرون ؟ ! وإذا  
جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدوير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها  
مرتين أو ثلاثا ؟ ! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة !

الثامنة - قوله تعالى : ( وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ) يعني من نقصان وزيادة .  
ويقال : بمقدار ، فقد خروج الولد من بطن أمه، وقد مر مكثه في بطنها إلى خروجه . وقال  
قناة : في الرزق والأجل . والمقدار القدر ، وعموم الآية يتناول كل ذلك ، والله سبحانه أعلم .  
قلت : هذه الآية تمدح الله سبحانه وتعالى بها بأنه عالم الغيب والشهادة ، أي هو عالم  
أما غاب عن الخلق ، وبما شهده . فالغيب مصدر بمعنى الغائب . والشهادة مصدر بمعنى  
الشاهد ، فبشبه سبحانه على أنقارده بعلم الغيب ، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق ،  
فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد ، فاما أهل الطب الذين يستدلون بالأمارات والعلامات فإن  
قطعوا بذلك فهو كفر ، وإن قالوا إنها تجربة تركوا وماهم عليه ، ولم يقدح ذلك في الممدوح ،  
فإن العادة يجوز أن تسارها ، والعلم لا يجوز تبذله . و ( الكبير ) الذي كل شيء دونه .  
( المتعالي ) عما يقول المشركون ، المستعل على كل شيء بقدرة وقهوه ، وقد ذكرناهما في شرح  
الأسماء مستوفى ، والحمد لله .

قوله تعالى : سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ  
هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ) إسرار القول : ما حدث به  
المرء نفسه ، وأبهر ما حدث به فيه ، والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر . و « منكم » يحتمل أن يكون وصفاً لمساواة  
التقدير : يمرُّ من أسر وجهر من جهر سواء منكم ؛ ويجوز أن يتعلق « بسواء » على معنى :  
يستوى منكم ، كقولك : مررت بزيد . ويجوز أن يكون على تقدير : يمر من أسر منكم  
وجهر من جهر منكم . ويجوز أن يكون التقدير . ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر  
به ، كما تقول عدل زيد وعمرو أى ذوا عدل . وقيل : « سواء » أى مستو ، فلا يحتاج إلى  
تقدير حذف مضاف . ( وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ) أى يستوى في علم الله  
السر والجهر ، والظاهر في الطرقات ، والمستخفي في الظلمات . وقال الأخفش وقطرب  
المستخفي بالليل الظاهر ؛ ومنه خفيت الشيء وأخفيتها أى أظهرته ؛ وأخفيت الشيء أى  
استخرجته ؛ ومنه قيل للنباش المستخفي . وقال امرؤ القيس :

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَائِهِنَّ كَأَمَّا \* خَفَاهُنَّ وَدَقَّ مِنْ عَيْنِي مَجْلِبٌ

والبارب المتوارى ، أى الداخل سرّاً ؛ ومنه قولهم : أنسرب الوحش إذا دخل في مكانه .  
وقال ابن عباس : « مستخف » مستتر ، « وسارب » ظاهر . مجاهد : « مستخف »  
بالمعاصي ، « وسارب » ظاهر . وقيل : معنى « سارب » ذاهب ، الكسائي : سرب  
يسرب سرّاً وسرواً إذا ذهب ؛ وقال الشاعر :

وَكُلُّ أَنَاسٍ قَارِبُوا قَيْدَ حَلِيلِهِمْ \* وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ

أى ذاهب . وقال أبو رجاء : السارب القاهب على وجهه في الأرض ؛ قال الشاعر :

أَتَى سَرَبِيَّ وَكُنْتُ غَيْرَ سَرُوبٍ \*

وقال التقي : « سارب بالنهار » أى منصرف في حوائجه بسرعة ؛ من قولهم : أنسرب

الماء . وقال الأصمعي : حلَّ سربه أى طريقه .

(١) أَعَاقَ (جمع قح) : وهو سرب في الأرض إلى موضع آخر ، واستناره امرؤ القيس بحجرة الفترة  
والردق : المطر . وفيه مجلب : مصوت ، وبرى مجلب (بالحاء) - (٢) هو الأخصن بن شهاب التلبي  
ويريد أن الناس أغاموا في موضع واحد لا يهتدون على الثقة ، وحسبوا لخلهم من أن يتقدم فتنهم إليهم خوفاً  
أن يبار عليها ، ونحن أغزاء خلنا قيد لذهب حيث شاء . (٣) هو فريس بن الحطييم ، وعمام البيت :  
• وتغرب الأعلام غير قريب •

له صلى الله عليه وسلم لم يُعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ آفَلًا قَلَّ مَرَدُّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى هـ (لَمْ يُعْقِبَتْ) أي لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ؛ فإِذَا صَبَحَتْ ملائكة الليل أَخَذَتْهَا ملائكة النهار . وقال : « مُعْقِبَاتٌ » والملائكة ذُكِرَ لَأَنَّهُ جَمْعُ مُعْقِبَةٍ ؛ قَالَ هـ مَلَكٌ مُعْقِبٌ وَمَلَائِكَةُ مُعْقِبَةٌ ، ثُمَّ مُعْقِبَاتٌ جَمْعُ الْجَمْعِ . وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ - هـ لَمْ يُعْقِبْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ . وَمُعَاقِبٌ جَمْعُ مُعَقِّبٍ ؛ وَقِيلَ لِلْمَلَائِكَةِ مُعْقِبَةٌ عَلَى لَفْظِ الْمَلَائِكَةِ . وَقِيلَ هـ لَكُنَّ لَكُنَّ ذَلِكَ مِنْهُنَّ ؛ نَحْوُ نَسَابَةٍ وَعَلَامَةٍ وَرَاوِيَةٍ ؛ قَالَهُ الْجَوْهَرِيُّ وَغَيْرُهُ . وَالتَّعْقِبُ الْقَعْدَةُ بِسَدِّ الْبَدَنِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَيْ مُدْرِكَا يَوْمٍ يُعَقَّبُ » أَيْ لَمْ يَرْجِعْ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ : « مُعْقِبَاتٌ لَا تَجِبُ قَائِلَتَيْنِ - أَوْ - قَاعِلَتَيْنِ » فَذَكَرَ التَّسْلِيحَ وَالتَّحْمِيدَ وَالتَّكْبِيرَ . قَالَ أَبُو الْمُنِيرِ : « مُعْقِبَاتٌ » لِأَنَّهُنَّ حَادَتِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، فَعَمِلَ مِنْ عَمَلِ عَمَلَاتٍ حَادٍ إِلَيْهِ فَقَدْ عَقِبَ . وَلَمُعْقِبَاتٌ مِنَ الْإِبِلِ اللَّوَاتِي يَحْمِلْنَ عِنْدَ أَعْمَاجِ الْإِبِلِ الْمُعْتَرِكَاتِ عَلَى الْحَوْضِ ؛ فَإِذَا انْصَرَفَتْ ثَلَاثَةٌ دَخَلَتْ مَكَانَهَا الْآخَرَى . وَقَوْلُهُ : « مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ » أَيْ الْمُسْتَخْفَى بِاللَّيْلِ وَالسَّارِبِ بِالنَّهَارِ . « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » اخْتَلَفَ فِي الْحِفْظِ ؛ فَقِيلَ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يُؤَكِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِهِمْ لِحَفَظِهِمْ مِنَ الْوَحُوشِ وَالْهَوَاطِمِ وَالْأَشْيَاءِ الْمُضَرَّةِ ، لَطْفًا مِنْهُ بِهِ ، فَإِذَا جَاءَ الْقَتْلُ خَلُّوا يَدَيْهِ وَبَنَدَهُ ؛ قَالَ كَبَنُ عَبَّاسٍ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . قَالَ أَبُو يَحْيَى : وَهَذَا رَجُلٌ مِنْ مُرَادٍ إِلَى عَلِيٍّ قَالَ : اسْتَمَرَسَ فَإِنْ تَأَسَّأَ مِنْ مُرَادٍ يَرِيدُونَ قَتْلَكَ ؛ فَقَالَ : إِنْ مَعَ كُلِّ

(١) قَالَ الزُّهْرِيُّ : جَمْعُ مُعْقِبَةٍ أَوْ مُعْقِبَةٍ بِشَدِيدِ الْقَافِ فِيهَا ؛ وَإِلَاءَهُ مَوْضِعٌ مِنْ حَذْفِ إِسْدَى الْقَافَيْنِ فِي التَّكْبِيرِ . وَقَالَ ابْنُ جَنِّي : إِنَّهُ تَكْبِيرُ مُعْقِبٍ كَقَوْلِهِمْ وَسَطَاعِمٌ ، كَأَنَّهُ جَمْعٌ عَلَى مُعَاقِبَةٍ ، ثُمَّ حَذَفَتْ الْهَاءُ مِنَ الْجَمْعِ وَصَوِّتَ الْيَاءُ عَنْهَا ؛ قَالَ الْأَنْصَارِيُّ : وَلَهُ الْأَطْهَرُ . « وَجِيعُ الْمُنَاقِي » . (٢) الْحَدِيثُ فِي الدُّعَاءِ وَهُوَ تَجَاوُهُ فِي دَرْجَتِهِ مُسَلِّمٌ ؛ « مُعْقِبَاتٌ لَا تَجِبُ قَائِلَتَيْنِ دَبْرَ كُلِّ حَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً » . سَمِعْتُ مُعْقِبَاتٍ لِأَنَّهُمَا حَادَتِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، أَوْ لِأَنَّهُمَا قَالَتَا عَقِبَ كُلِّ حَلَاةٍ . (٣) مُرَادٌ (بِالضَّمِّ وَكَتَرَهُ دَالٌ مُهْمَلَةٌ) ؛ قِيلَ لَهُ مِنْ قِبَالِ الْعَرَبِ سَمِيتَ بِاسْمِ أَبِيهَا .

رجل مَلَكَيْنِ يحفظانه ما لم يَقْدُرْ، فإذا جاء القَدَرُ خَلَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَدَرِ اللَّهِ، وإنَّ الأجلَ حصن حصينة؛ وعلى هذا « يحفظونه من أمر الله » أى بأمر الله وبإذنه؛ فـ « مِنْ » بمعنى « بَعْضُ » وحرُوفُ الصفات يقوم بعضها مقام بعض . وقيل : « مِنْ » بمعنى « عَنْ » أى يحفظونه عن أمر الله ، وهذا قريب من الأوَّل ؛ أى حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم ؛ وهذا قول الحسن ؛ يقول : كسوته عن عُرَى ومن عُرَى ؛ ومنه قوله عز وجل : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جَوْعٍ » أى عن جوع . وقيل : يحفظونه من ملائكة العذاب، حتى لا تحمل به عقوبة ؛ لأن الله لا يغير ما بقوم من التَّعَمَّةِ والعَافِيَةِ حتى يُغَيِّرُوا ما يَأْتِيهِمْ بالإصرار على الكفر ؛ فإذا أَصْرُوا حَانَ الأجل المضروب ونزلت بهم النَّعْمَةُ ، ونزل عنهم المَقْطَعَةُ المَقْبَاتُ . وقيل : يحفظونه من الجن ؛ قال كعب : لولا أن الله وَكَّلَ بكم ملائكة يَذَّبُونَ عَنْكم في مَطْعَمِكُمْ ومَشْرَبِكُمْ وعوراتكم لَتَخَطَّفَنَّكم الجنُ وملائكة العذاب من أمر الله ؛ وخصمهم بأن قال : « من أمر الله » لأنهم غير معائنين ؛ كما قال : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » أى ليس مما تشاهدونه أتم . وقال الفراء في الكلام تقديم وتأخير، تقديره : له معقبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ؛ وهو مروى عن مجاهد وأبن جُرَيج والنَّخَعِي ؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجن من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير . وقال ابن جُرَيج : إن المعنى يحفظون عليه عمله ، فحذف المضاف . وقال قتادة : يكتبون أقواله وأفعاله . ويجوز إذا كانت المعقبات الملائكة أن تكون الهاء في « له » لله عز وجل ، كما ذكرنا ؛ ويجوز أن تكون للنسخة ، فهذا قول . وقيل : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه » يعنى به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى أن الملائكة تحفظه من أمدائه ؛ وقد جرى ذكر الرسول في قوله : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَمَآ أَنتَ مُنْذِرٌ » أى سواء منكم من أسر القول ومن جهر به في أنه لا يضُرُّ النبي صلى الله عليه وسلم ، بل له معقبات يحفظونه عليه السلام ؛ ويجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل ؛ لأنه قد قال : « ولكل قوم هاد » أى يحفظون الهادي من بين يديه ومن خلفه . وقول راجع — أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

يحفظونهم ؛ فإذا جاء أمر الله لم يُقتلوا منهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ؛ وكذلك قال الضحاك ؛ هو السلطان المتحيز من أمر الله المشرك . وقد قيل : إن في الكلام على هذا التأويل قبا عذوفا ، تهديره : لا يحفظونه من أمر الله تعالى ؛ ذكره الماوردي . قال للمهدوي : ومن جعل المعقبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه . وقيل : سواء من أسر القول ومن جهر به فله حراس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على العاصي ، ويحفظونه من أن يقع فيه وعظ ؛ قال القشيري : وهذا لا يمنع الرب من الإيهال إلى أن يحق العذاب ؛ وهو إذا غير هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا للعقوبة ؛ فكانه الذي يحمل العقوبة بنفسه ؛ فقلوه : « يحفظونه من أمر الله » أى من امتثال لأمر الله . وقال عبد الرحمن بن زيد : المعقبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عبادته ؛ قال الماوردي : ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله « يحفظونه من أمر الله » وجهان : أحدهما - يحفظونه من الموت مالم يأت أجل ؛ قاله الضحاك . الثاني - يحفظونه من الحرق والهوام المؤذية ، مالم يأت قدره - قاله أبو أمامة وكعب الأحرار - فإذا جاء المقدور خلوا عنه ؛ والصحيح أن المعقبات الملائكة ، وبه قال الحسن ومجاهد وقادة وابن جرير ؛ وروى عن ابن عباس ، واختاره النحاس ، وأصح بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » الحديث ، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عمرو بن ابن عباس قرأ - « معقبات من بين يديه ورفاءه من خلفه » [ من أمر الله <sup>(١)</sup> يحفظونه ] فهذا قد بين للمعنى . وقال يمانية العدوي : دخل عثمان رضى الله تعالى عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! أخبرني عن العبد كم معه من ملك ؟ قال : « ملك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت شيئا وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أأكتب قال لا لعمله يستغفر الله تعالى ويتوب فإذا قال ثلاثا قال نعم أكتب أراحنا الله تعالى منه

فبئس القسرين هو ما أقل مراقبته لله عز وجل وأقل استجابه منا يقول الله تعالى  
 « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى  
 « لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » [ وملك قابض على ناصيتك  
 فإذا تواضعت لله رفعك وإذا تجبرت على الله قصمك<sup>(١)</sup> ] وملكان على شفتيك وليس يحفظان  
 عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملكان  
 على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي يشداولون ملائكة الليل حل ملائكة النهار  
 لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي وإليس مع ابن آدم  
 بالنهار وولده بالليل \* . ذكره الثعلبي . قال الحسن : المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند  
 صلاة الفجر . واختار الطبري أن المعقبات المراكب بين أيدي الأشرار وخلفهم ؛ والماء  
 في « له » ملق ؛ مل ما تقدم . وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أرواحه  
 حل وجهين : أحدهما - قضى حلوله ووقوعه بصاحبه ؛ فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره .  
 والآخر - قضى مجبئه ولم يقض حلوله ووقوعه ، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة  
 والحفظ .

قوله تعالى : ( إِنْ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَتَوَرَّأَ مَا يُنصِبُ ) أخبر الله تعالى في هذه  
 الآية أنه لا يغير ما يقوم حتى يقع منهم تغير ، إما منهم أو من الناظر لهم ، أو من هو منهم  
 بسبب ؛ كما غير الله بالمتزئين يوم أحد بسبب تغير الزمة بانقضاءهم ، إلى غير هذا من أمثلة  
 التسمية ؛ فليس معنى الآية أنه ليس يترك بأحد حقبة إلا بأن يتقدم منه ذنب ، بل قد ترك  
 للمصاب بذنوب النير ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم - وقد سئل أنتك وفيما الصالحون ؟  
 قال - : « نعم إذا كثرت الخبيث<sup>(٢)</sup> » . والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومُ سُوءًا ) أي هلاكًا وعلابًا ( فَلَا مَرَدَّ لَهُ ) . وقيل :  
 إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأقسام فلا مرد لكلاه . وقيل : إذا أراد الله بقوم سوءا أسمى

أبصارهم حتى يمتاروا ما فيه البلاء ويملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يحث أحدهم عن حقه بكفه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه . ( وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ) أى ملجأ ؛ وهو معنى قول السدي . وقيل : من ناصر يمنهم من عذابه ؛ وقال الشاعر :

• ما في السماء سوى الرحمن من وال •

ووال دوتى كفادس وقدير •

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٦) وَيُسَبِّحُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٧)

قوله تعالى : ( هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ) أى بالمطر . « والسحاب » جمع ، والواحدة سحابة ، وتُحِبُّ وتُحَابُّ في الجمع أيضا . ( وَيُسَبِّحُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ) قد مضى في « البقرة » القول في الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة ؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته ، وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز ؛ أى يريكم البرق في السماء خوفا للسافر ، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والحوول والصواعق ؛ قال الله تعالى : « أَذَى مِنْ مَطَرٍ » وطعما للحاضر أن يكون عقبه مطر ويخصب ؛ قال معناه قتادة ومجاهد وغيرهما ، وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق ، وطعما في غيثه المزيل للقطط . ( وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ) قال مجاهد : أى بالماء . « وَيُسَبِّحُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ » من قال إن الرعد صوت السحاب فيجوز أن يُسَبِّحَ الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » فلو كان الرعد مَلَسْكَ داخل في جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك قال : معنى « من خيفته » من خيفة الله ؛ قاله الطبري وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة

خائفون من الله ليس تكفؤ ابن آدم؛ لا يعرف واحدهم من على يمينه ومن على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال : الزعم ملك يسوق السحاب، وإن يجتر المساء لقي قفرة إياه، وأنه موكل بالسحاب بصرفه حيث يؤمر، وأنه يسبح الله؛ فإذا سبح الزعم لم يبق ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح، فعندها يزل القطر، وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الزعم قال : سبحان الذي سبحت له . وروى مالك من عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الزعم قال : سبحان الذي يسبح الزعم بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول : إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد . وقيل : إنه ملك جالس على كرسي بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف ملك، وعن يساره مثل ذلك؛ فإذا أقبل على يمينه وسبح سبح الجميع من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وسبح سبح الجميع من خوف الله . ( وَرِيسُلُ الصَّوَاعِقِ قَيْصِبُ بِهَا مِنْ يَسَاءُ ) ذكر الماوردي عن ابن عباس وعلى بن أبي طالب وعجماد : نزلت في يهودي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرني ! من أي شيء ربك، أين لؤلؤ أم من ياقوت ؟ بغامت صاعقة فأحرقت . وقيل : نزلت في بعض كفار العرب؛ قال الحسن : كان رجيل من طواغيت العرب بعث النبي صلى الله عليه وسلم قرا يدهونه إلى الله ورسوله والإسلام فقال لهم : أخبروني عن رب محمد ما هو، وبم هو، أين فضة أم من حديد أم نحاس ؟ فاستعظم القوم مقالته؛ فقال : أجب محمد إلى رب لا يره ؟ فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هذا ؛ فبينا القوم ينازونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤسهم؛ فرعدت وأبرقت ودمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جالوس؛ فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أحرقت صاحبكم، فقالوا : من أين علمتم ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم « وَرِيسُلُ الصَّوَاعِقِ قَيْصِبُ بِهَا مِنْ يَسَاءُ » ذكره الثعلبي عن الحسن، والتشيري بعنه عن أنس، وسليمان . وقيل : نزلت الآية في أربدة بن ربيعة ابن أبي ربيعة وفي عامر بن الطفيل؛ قال ابن عباس : أقبل عامر بن الطفيل على ربه يوم

العالم بأن يريد أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه ، فدخل المسجد ، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور ، وكان من أجل الناس ؛ فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا يارسول الله عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك ؛ فقال : "دَعْنِي فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ خَيْرٌ مِنِّي" فأقبل حتى قام عليه فقال : يا عجمي ما لي إن أسأمت ؟ فقال : "إِنَّكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَطَيْفٌ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ" . قال : أَسْجَلُ لِي الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ ؟ قال : "لَيْسَ ذَلِكَ لِي إِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ يَجْعَلُهُ حَيْثُ يَشَاءُ" . قال : أَتَجْعَلُنِي عَلَى الْوَبَرَوَاتِ عَلَى الْمَدْرَ ؟ قال : "لَا" . قال : لِمَا تَجْعَلُنِي ؟ قال : "أَجْعَلُكَ لَكَ أَعْنَةَ الْخَيْلِ تَقْرُو عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ" . قال : أَوَلَيْسَ لِي أَعْنَةُ الْخَيْلِ الْيَوْمَ ؟ فَمَعِيَ أَكَلْتُكَ ؛ فَقَامَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانَ عَامِرٌ أَوْمًا إِلَى أَرْبَدَ : إِذَا رَأَيْتَنِي أَكَلْتُ فَدُرٌّ مِنْ خَلْقِهِ وَأَضْرَبُهُ بِالسِّيفِ ؛ فَجَعَلَ يَخَافُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَرَاجِعُهُ ؛ فَاخْتَرَطَ أَرْبَدَ مِنْ سَيْفِهِ شِبْرًا ثُمَّ حَبَسَهُ اللَّهُ ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى سَلِّهِ ، وَبَسَّتْ يَدُهُ عَلَى سَيْفِهِ ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ صَاعِقَةً فِي يَوْمٍ صَائِفٍ صَاحٍ فَأَحْرَقَتْهُ ، وَوَلَّى عَامِرٌ هَارِبًا وَقَالَ : يَا عَجْمِي ! دَعَوْتُ رَبَّكَ عَلَى أَرْبَدَ حَتَّى قَتَلَهُ ، وَاللَّهِ لَا مَلَأْتُهَا عَلَيْكَ خِيَلًا جُرْدًا ، وَفَتَيَانًا مُرْدًا ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : "يَنْتَعِكُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَأَبْنَاءُ قَبِيلَةٍ" يَعْنِي الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ ؛ فَتَرَلَّ عَامِرٌ بَيْتَ أَمْرَأَةٍ سَلُولِيَّةٍ ؛ وَأَصْبَحَ وَهُوَ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَئِنْ أَحْمَرْتُ لِي عَجْمٌ وَمَصَاحِبُهُ - يَرِيدُ مَلِكَ الْمَوْتِ - لَا أَخْذُتُهُمَا بِرِجْلِي ؛ فَأَرْسَلَ اللَّهُ مَلَكًا فَلَطَمَهُ بِمِخْنَاخِهِ فَأَذْرَاهُ فِي التَّرَابِ ؛ وَخَرَجَتْ عَلَى رُكْبَتَيْهِ غُدَّةٌ عَظِيمَةٌ فِي الْوَقْتِ ؛ فَمَادَ إِلَى بَيْتِ السَّلُولِيَّةِ وَهُوَ يَقُولُ : غُدَّةُ كَفْدَةِ الْبَعِيرِ ، وَمَوْتُ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ ؛ ثُمَّ رَكِبَ عَلَى فَرْسِهِ فَاتَّ عَلَى ظَهْرِهِ . وَرَوَى كَيْدَ بْنَ رِبْعَةَ أَخَاهُ أَرْبَدَ فَقَالَ :

يَا مَعْزَنُ هَلَّا بَكَتِ أَرْبَدُ إِذْ قُتِلَتْ . مَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَيْدِ

أَخْتِي عَلَى أَرْبَدَ الْحَتُوفِ وَلَا . أَرْهَبُ نَوَّهَ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ

بِقَتْلِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْفَا . رِسَ يَوْمَ الْكَرِيمَةِ النَّجْدِ

(١) أصغر الرجل ؛ لما خرج إلى المعركة .

(٢) أذناه ؛ فله روى .

(٣) سكره ؛ فله ومنه .

(٤) شهد ؛ المرح الإجماع .

وفيه قال :

إِنَّ الرِّزْيَةَ لَأَرْزِيَّةٌ مِثْلُهَا ، فَقَدْ أَنْ كَلَّ أَيْ كَضَوْهُ الْكَوْثُ

يَا أَرْبَدَ الْخَلِيبِ الْكَرِيمِ جُنُودُهُ • أُنْفِدْتَنِي أَمْنِي بِقَرْنٍ أَعْصَبُ<sup>(١)</sup>

وَأَسْلَمَ لِيَدِ بَعْدَ ذَلِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

مسئلة — روى أَبَانُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لَا تَأْخُذُ الصَّاعِقَةُ ذَاكَرًا لَهُ مِنْ وَجَلٍ» . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول : «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعلى دية» . وذكر الخطيب من حديث سليمان بن علي عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال : كنا مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبرد، فقال لنا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفي مما يكون في ذلك الرعد؛ ففعلنا فعوفينا؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإذا بردة قد أصابت أنفه فأنرت به، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال : بردة أصابت الأنف فأنرت، فقلت : إن كعبا حين سمع الرعد قال لنا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفي مما يكون في ذلك الرعد؛ ففعلنا فعوفينا؛ فقال عمر : أفلا قلتم لنا حتى نقولها ؟ وقد تقدم هذا للمعنى في «البقرة»<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : (وَمَنْ يُجَادِلْ فِي اللَّهِ) يعنى جدال اليهودى حين سأل عن الله تعالى : من أى شىء هو ؟ قاله مجاهد . وقال ابن جريج : جدال أربد فبا هم به من قتل النبي صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون «وهم يجادلون في الله» حالا، ويجوز أن يكون منقطعاً . وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عظيم من المشركين يدعوهم إلى الله عز وجل، فقال لرسول الله : أخبرنى عن إلهك هذا ! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس ؟

(١) قرن أعصب بكسر - (٢) قوله (الضمر بك) وصحبه ههنا .

(٣) تابع ج ١ ص ١١٦ ما بين خطين تحتها

فأسمهظ ذلك ففرج إليه فاعلمه، فقال: "أرجع إليه فأدعه" فرجع إليه وقد أصابته صاعقة،  
وحاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل: «وهم يحادلون في الله». (وهو شديد المحال)  
قال ابن الأعرابي: «المحال» المكر، والمكر من الله عز وجل التدبير بالحق. النحاس: المكر  
من الله إيصال المكره إلى من يستحقه من حيث لا يشعرو. وروى ابن الزبدي عن أبي زيد  
«وهو شديد المحال» أي النعمة. وقال الأزهري: «المحال» أي القوة والشدة. والمحل  
الشدة؛ الميم أصلية، وما حلت فلا تَحَالاً أي قلوبته حتى يتبين أينما أشد. وقال أبو عبيد  
«المحال» المقوبة والمكروه. وقال ابن عرفة: «المحال» الجدل؛ يقال: ماحل من أمره  
لئى جادك. وقال القتيبي: أي شديد الكيد وأصله من الحيلة، جعل ميمه كيم المكان؛  
وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛  
بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثل فِعال أو فِعْل ميم مكسورة فهي أصلية؛ مثل: مهاد  
وملاك وميراس. وغير ذلك من الحروف. ويقفل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يمي.  
بإظهار الواو مثل: مِرْوَد ومَحْوَل ومَحْوَر، وغيرها من الحروف؛ وقال: «وقرأ الأعرابي»  
«وهو شديد المحال» بفتح الميم وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الخول؛ ذكر  
هذا كله أبو عبيد الهروي، إلا ما ذكرناه أولاً عن ابن الأعرابي؛ وأقارب الصعابة والتابعين  
بمعناها، وهي ثمانية: أولها - شديد العداوة، قاله ابن عباس. وثانيها - شديد الخول؛  
قاله ابن عباس أيضاً. وثالثها - شديد الأخذ، قاله علي بن أبي طالب. ورابعها - شديد  
الحقد، قاله ابن عباس. وخامسها - شديد القوة، قاله مجاهد. وسادسها - شديد القسوة  
قاله وهب بن منبه. وسابعها - شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط؛ قاله الحسن أيضاً.  
وثامنها - شديد الحيلة؛ قاله قتادة. وقال أبو عبيد ميم المحال والمحاللة للمأكرة والمخاللة؛  
وأشبهه الأحمي.

فرع نبح يستر في حصن الحج. في كثير النوى شديد المحال

(١١)  
وقال آخر :

وَلَيْسَ بَيْنَ أَقْوَامٍ فَكْلٌ • أَعَدَّ لَهُ الشَّعَازِبَ وَالْحَالَا

وقال عبد المطلب ،

لَاهُمْ إِنِّ السَّرِيَّةِ • نَحَّ رَحْلَهُ فَأَمْنَعَ حَلَاكَ<sup>(١٢)</sup>

لَا يَفْلَتُ صِلِيْهِمْ وَمَعَا • لَهُمْ عَدُوًّا يَمَّاكَ

قوله تعالى : لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبُيْضِ كَفْيِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغُهُ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ( لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ) أى الله دعوة الصديق . قال ابن عباس وقتادة وغيرهما ، لا إله إلا الله . وقال الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق . وقيل : إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق ، قاله بعض المتأخرين . وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف ، فإنه لا يدعى فيه إلا إياه ، كما قال : « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » ، قال الماوردي : وهو أشبه بسياق الآية ؛ لأنه قال : ( وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ) يعنى الأصنام والأوثان . ( لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ) أى لا يستجيبون لهم دعاءه ، ولا يسمعون لهم نداه . ( إِلَّا كَبُيْضِ كَفْيِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغِهِ ) ضرب الله عن وجل الماء مثلا لياسهم من الإجابة لدعائهم ؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقباض الماء باليد ؛ قال :

فأصبحتَ فيما كان بيني وبينها • من الودِّ مثل القابض الماء باليد

• (١) هو ذو الزمة ، والبيت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى . والقبس : الاعتلاط . والشعازيب : قال الأصمعي : الشخزية ضرب من الحيلة في الصراع ، وهو أن يمسك الرجل من رجل صاحبه فيصرعه ، والمضى : فكل رجل من القوم أعده جفة فكما • (٢) الخلال (بالكسر) : القوم القبيحون المشهورون بجهلهم وسكان الحرم •

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها - أن الذي يدعو إليها من دون الله كالظلمات الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا . لأن الماء لا يستجيب ، وما الماء بالبلغ إليه ؛ قاله مجاهد . الثاني - أنه كالظلمات الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليلنج فاه وما هو ببالغه ، لكذب ظنه ، وفساد توهمه ؛ قاله ابن عباس . الثالث - أنه كالبسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجد في كفه شيء منه . وزعم القراء أن المراد بالماء هاهنا البئر ؛ لأنها معدن للماء ، وأن المثل كن مذبذبه إلى البئر ضير وشاء ؛ وشاهده قول الشاعر :

فإن الماء ماء أبي وجدي • ويترى ذو حفرت و ذو طويت

قال علي رضي الله عنه : هو كالظلمات على شفة البئر ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا الماء يرتفع إليه ؛ ومعنى « إلا كالبسط » إلا كاستجابة بإسط كفيه « إلى الماء » فالمصدر مضاف إلى الباسط ، ثم حذف المضاف ، وقابل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء ؛ والمعنى : إلا كإجابة بإسط كفيه إلى الماء ؛ واللام في قوله : « ليلنج فاه » متعلقة بالبسط ؛ وقوله : « وما هو ببالغه » كناية عن الماء ؛ أي وما الماء ببالغ فاه . ويجوز أن يكون « هو » كناية عن الفم ؛ أي ما الفم ببالغ الماء . ( وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ) أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال . لأنها شرك . وقيل : إلا في ضلال أي يضل عنهم ذلك الدعاء ، فلا يجدون منه سبيلا ؛ كما قال : « أَيْمَنَّا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » . وقال ابن عباس : أي أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا ۖ لَهُمُ الْغُورُ وَالْأَصَالُ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ) قال الحسن وقادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعا ، والكافر يسجد كرها بالسيف . وعن قتادة أيضا يسجد الكافر كرها حين لا يعمه الإيمان . وقال الزجاج : يسجد الكافر كرها ماله من الخضوع وأثر الضم.

وقال ابن زيد : « طوعا » من دخل في الإسلام رغبة ، و « كرهه » من دخل فيه وهبة بالسيف .  
وقيل : « طوعا » من طالت مدة إسلامه فألف السجود ، و « كرها » من يكره نفسه لله تعالى ؛ فالآية في المؤمنين ، وعلى هذا يكون معنى « والأرض » وبعض من في الأرض . قال  
القشيري : وفي الآية مسلكتان : أحدهما — أنها عامة والمراد بها التخصيص ؛ فالمؤمن يسجد  
طوعا ، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمتأقين ؛ فالآية محمولة على هؤلاء ؛ ذكره  
الفراء . وقيل على هذا القول : الآية في المؤمنين ؛ منهم من يسجد طوعا لا يتقل عليه السجود ،  
ومنهم من يتقل عليه ؛ لأن الترام التكليف مشقة ، ولكنهم يحملون المشقة لإخلاص وإيمان ،  
إلى أن يألفوا الحق ويمرؤوا عليه . والمسلك الثاني — وهو الصحيح — إجماع الآية على التعميم ؛  
وعلى هذا طريقان : أحدهما — أن المؤمن يسجد طوعا ، وأما للكافر فأمور بالسجود مؤاخذ  
به . والثاني — وهو الحق — أن المؤمن يسجد بيده طوعا ، وكل مخلوق من المؤمن والكافر  
يسجد من حيث إنه مخلوق ، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع ؛ وهذا كقوله : « وَإِنْ مِنْ  
شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة . ( وَيَلَا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ )  
أي ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال ؛ لأنها تين في هذين الوقتين ، ويميل من  
ناحية إلى ناحية ؛ وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء ؛ وهو كقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى  
مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ » قاله ابن عباس  
وغيره . وقال مجاهد : ظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع ، وظل الكافر يسجد كرها وهو  
كاره . وقال ابن الأثير : يعمل للظلال عقول تسجد بها وتخضع بها ، كما جعل للجبال  
أنفهام حتى خاطبت وخوطبت . قال القشيري : في هذا نظر ؛ لأن الجبل عين ، فيمكن أن  
يكون له عقل بشرط تهدير الحياة ، وأما الظلال فآثار وأعراض ، ولا يتصور تهدير الحياة  
لها ، والسجود بمعنى الميل ؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب ؛ يقال : سجدت النخلة  
أي مالت . و « الآصال » جمع أصل ، والأصل جمع أصيل ؛ وهو ما بين المصر إلى الغروب ،  
فم أصائل جمع الجمع ؛ قال أبو ذؤيب الهذلي :

لَقَمْرِي لَأَنْتَ لَيْتَ أَكْرَمُ أُمَّهُ • وَأَفْصَدُ فِي أَفْكِهِ بِالْأَصَائِلِ

و «ظَلَامٌ» يجوز أن يكون معطوفاً على «مَنْ» ويجوز أن يكون أرفع بالابتداء والخبر  
مذوق؛ التقدير: وظلامٌ يُجِدُّ بالقدرة والآصال: «والقدرة» يجوز أن يكون مصدراً،  
ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوى كونه جمعاً مقابلة الجمع الذي هو الآصال به .

قوله تعالى: **قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيقَهُ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١١١﴾**

قوله تعالى: **(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)** أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم  
أن يقول للشركين: «قل من رب السموات والأرض» ثم أمره أن يقول: «هو الله إلزاماً  
للحجة إن لم يقولوا ذلك، وجهلوا من هو» **(قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)** هذا يدل على  
اعترافهم بأن الله هو الخالق [وإلا] لم يكن للاحتجاج بقوله: «قل اتخذتم من دونه أولياء»  
معنى؛ دليلاً عليه: «وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» أي فإذا اعترفتم  
فلم تعبدون غيره؟ ١ وذلك الغير لا ينفع ولا يضر؛ وهو إلزام صحيح . ثم ضرب لهم مثلاً  
فقال: **(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)** فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق،  
والمشرك الذي لا يبصر الحق . وقيل: الأنعمى مثل لما عده من دون الله، والبصير مثل  
الله تعالى: **(أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ)** أي الشرك والإيمان . وقرأ ابن محيصن  
وأبو بكر والأعمش وحمة والكسائي «يستوي» بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات»  
ليس بحقيق . الباقر بن الناء؛ واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يحمل بين المؤنث والفعل حائل .  
و «الظلمات والنور» مثل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك . **(أَمْ جَعَلُوا**  
**لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيقَهُ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ)** هذا من تمام الاحتجاج؛ أي خلق غير الله مثل

خلقته تشابه لتعلق عليهم فلا يهدون خلق الله من خلق المهنم . ( قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ )  
 أى قل لهم يا محمد : الله خالق كل شيء ، فلم لذلك أن يعبده كل شيء . والآية رد على  
 المشركين والقدريه الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . ( وَهُوَ الْوَاحِدُ ) قبل كل شيء .  
 ( الْقَهَّارُ ) الغالب لكل شيء ، الذى يغلب فى مراده كل مرید . قال القشبرى أبو نصره  
 ولا يبعد أن تكون الآية وارده فيمن لا يعترف بالصانع ؛ أى سلمهم عن خالق السموات  
 والأرض ، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم ، ويقرب الأمر من الضرورة ؛ فإن عجز الجناد  
 وعجز كل مخلوق عن السموات والأرض معلوم ؛ وإذا تفكر هذا وبل أن الصانع هو الله فكيف  
 يجوز اعتداد الشريك له ؟ ! وبين فى أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صنمان لا شبيه لخلق ،  
 ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك ، فبم يعلم أن الفعل من اثنين ؟ !

قوله تعالى : أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَخَسَلَلْ  
 أَسْبَلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ  
 زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً  
 وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ١٧  
 لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخَيْرُ وَالَّذِينَ لَا يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ  
 مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَسَلُوا بِهِ أُولَئِكَ هُمْ سُوءُ  
 الْحِسَابِ وَمَاؤُنْهُمْ جَهَنَّمُ بَيْنَ يَدَيْ الْمِهَادِ ١٨ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أُنزِلَ  
 إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْتَظِرُ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ ١٩  
 قوله تعالى : ( أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَخَسَلَلْ أَسْبَلُ زَبَدًا رَابِيًا )  
 ضرب مثلا للحق والباطل ؛ فشبه الكفر بالزبد الذى يسلو الماء ، فإنه يضمحل ويعلق  
 بجنات الأودية ، وتدفعه الرياح ؛ فكذلك يذهب الكفر وضمحل ، على ما نبهته . قال مجاهد :

**سَكَتَ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** . قال : بقدر مثلي . وقال ابن جرير : بقدر صغرها وكبرها . وقرا  
 الْأَشْهَبُ الْعَقِيلُ وَالْحَسَنُ . **بِقَدَرِهَا** . يسكون القائل ، والمعنى واحد . وقيل : معناها بما قدر  
 لها . والأودية جميع الودى ، ومعنى واديا لخروجه وسيلاته ، قالوا دى على هذا أعم لهاء  
 السائل . وقال أبو علي : « أودية » توسع ، أى سال ماؤها تخفف ، قال : ومعنى « بقدرها »  
 بقدر مياهاها ، لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها . « فَأَحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى طالما  
 عاليًا مرتفعًا فوق الماء ، وتم الكلام ، قاله مجاهد . ثم قال : ( **وَيَمَازُيُ قُدُونٌ عَلَيْهِ فِي الثَّانِي** )  
 وهو المثل الثانى . ( **أَيْقَافَ حَلِيَّةٍ** ) أى حلبة النخب والقضة . ( **أَوْ مَتَاجَ زَبَدٍ مِثْلُهُ** ) قال  
 مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زبد يشله » أى يعلو هذه الأشياء زبد  
 كما يعلو السيل ، وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدًا ،  
 كذلك ما يوقد عليه فى النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما ينبت فى الأرض من المعادن  
 فقد خالطه التراب ، فأما يوقد عليه ليدوب فيزياله تراب الأرض . وقوله : ( **كَذَلِكَ يَضْرِبُ**  
**اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً** ) قال مجاهد : جمودا . وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو  
 ابن العلاء : أَجْفَأَتِ الْقِدْرُ إِذَا قَلَّتْ حَتَّى يَنْصَبَ زَبَدُهَا ، وَإِذَا جَمَدَ فِي أَسْفَلِهَا . والجفاء  
 ما أجفأه الودى أى رعى به . وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ « جُفَاءً » قال أبو عبيدة :  
 يقال أَجْفَأَتِ الْقِدْرُ إِذَا قَذَفَتْ بِزَبَدِهَا ، أَجْفَأَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ إِذَا قَطَعَتْهُ . ( **وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ**  
**النَّاسَ فَيَمَكْتُ فِي الْأَرْضِ** ) قال مجاهد : هو الماء الخالص الصافي . وقيل : الماء  
 وما خلس من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص ، وهو : أن المثلين ضربهما الله  
 للحق فى ثباته ، والباطل فى اضمحلاله ، فالباطل وإن ملا فى بعض الأحوال فإنه يضمحل  
 كاضمحلال الزبد والخبث . وقيل : المراد مثلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ،  
 فشبه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقائه ففقه ، وشبه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن  
 مثل ما يدخل فى الأودية بحسب سعتها وضيقها . قال ابن عباس : « **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** »  
 قال قسراً ، « **فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** » قال : الأودية قلوب العباد . قال صاحب

«سوق العروس» : إن صح هذا التفسير قلنا في أن الله سبحانه مثل القوي الذي لا يملكه الموتى والكلوب بالأودية ، ومثل الحكم بالصافي ، ومثل المتشابه بالزيد . وقيل : «الزيد» تحليل النفس وضوال الشك ترفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تلعبها ، كما أن ماء السيل يجري صافيا فيرفع ما يجد في الوادي باقيا ، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السيئة ، والأخلاق الزكية ، التي بها جمال الرجال ، وقوام صالح الأعمال ، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء وبهما قيمة الأشياء . وقرا حيد وابن نخيصر ويحيى والأعشى وحزة والكسائي وحفص «يوقدون» بالناء ، واختاره أبو عبيد لقوله : «ينفع الناس» فأخبر ، ولا مخاطبة هاهنا . للباقون بالتاء لقوله في أول الكلام : «أفأنتخذتم من دونه أولياء» الآية . وقوله : «في النار» متعلق بمحذوف ، وهو في موضع الحال ، وذو الحال الهاء التي في «عليه» للتقدير : ومما توقدون عليه تابنا في النار أو كائنا . وفي قوله : «في النار» ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التي هي اسم ذي الحال ولا يستقيم أن يتعلق «في النار» بـ «يوقدون» من حيث لا يستقيم أو قلنت عليه في النار لأن الموقد عليه يكون في النار ، فيصير قوله «في النار» غير مفيد . وقوله : «أنتأه حلية» مفعول له . «زبد مثله» ابتداء وخبر أي زبد مثل زبد السيل . وقيل : إن خبر «زيد» قوله : «في النار» . الكسائي : «زيد» ابتداء ، و«مثله» نعت له ، والخبر في الجملة التي قبله ، وهو «مما يوقدون» . (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) أي كما بين لكم هذه الأمثال كذلك يضربها بينات . ثم قال : (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) أي أجابوا . لاستجاب بمعنى أجاب ، قال :

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ يَجِبْ

وقد تقدم ، أي أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات . (الحسنى) لأنها في نهاية الحسن . وقيل : من الحسنى النصر في الدنيا ، والنعيم المقيم غدا . (وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ)

(١٨) هو : أبو مشر عبد الكريم بن محمد الصمد الطبري ، نزيل مكة المكرمة ، المتوفى سنة ٧٨٨هـ ، وتكاثر

«سوق العروس» في علم القرامطة . (كشف القنون) .

(١٩) هو كعب بن سعد التميمي بنى لعمارة أبا المنصور ، ومصدر البيت : «وداع دطاب من يجيب دال الذي»

أى لم يعبوا إلى الإيمان به . ( لَوْ أَنَّ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ) أى من الأموال . ( وَمِنْهُم مَّنْ ) ملك لهم ( لَأَخَذْتُمَا ) من عذاب يوم القيامة ؛ نظيره في « آل عمران » « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنُغْنِيَنَّ عَنْهُمْ آثَارَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » ، « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنُجْزِلَنَّهُمْ مِنْ أَحْلِيمِ مِلَّةِ الْأَرْضِ ذَعَابًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ » حسب ما تقدم بيانه هناك . ( أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ) أى لا يقبل لهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة . وقال فرقد السجني قال لإبراهيم النخعي : يا فرقد ! أتدري ما سوء الحساب ؟ قلت : لا ! قال : أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يفقد منه شيء . ( وَمَا أُولَئِكَ ) أى بسكنهم ومقامهم . ( جَهَنَّمَ وَرِئَاسَ الْإِمَامَةِ ) أى الفرائض التي مهلوا لأنفسهم .

قوله تعالى : ( أَلَمْ يَسْلَمْ لَكُمْ أَنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ) هذا مثلٌ خربه الله للؤمن والكافر ، وروى أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وأبى جهل لعنه الله . والمراد بالعمى عمى القلب ، والجاهل بالدين عمى القلب . ( إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ) .

قوله تعالى : الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْوَعْدَ

فيه مستثنان :

الأولى - قوله تعالى : ( الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ) هذا من صفة ذوى الألباب ، أى إنما يتذكر أولو الألباب المؤفون بعهد الله . والعهد اسم للجنس ؛ أى يجمع عهود الله ، وهى أوامره ونواهيه التى وصى بها عبده ، ويدخل فى هذه الألفاظ التزام جميع القروض ؛ وتجنب جميع المعاصى . وقوله : ( وَلَا يَقْضُونَ الْوَعْدَ ) يحتمل أن يريد به جنس المواثيق ، أى إذا عاهدوا فى طاعة الله عهدا لم يقضوه . قال قتادة : تفسد الله إلى عباده فى نقض الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية ؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بيته ، وهو الذى أخذه

(١) راجع ج ٤ ص ٢١ وما بعدها ، ص ١٣١ وما بعدها طبعه أول أوثانية .

(٢) السجني (مختصر) إلى السجعة موضع بالبصرة .

الله جل جلاله حين انهم من صلب ابيهم آدم . وقال الفلك : هو ما ركب في هجره  
من دلائل الوحيد والنبوات .

الثانية - روى ابو نادر وغيره عن عوف بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى  
الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال : " ألا تباعون رسول الله صلى الله عليه وسلم "   
وتنا حديث عهد ببيعة قلنا : قد باعناك [ حتى قالوا ثلاثا ] فبسطنا ايدينا فباعنا . فقال  
قائل : يا رسول الله ! انا قد باعناك [ فلي باعناك ] فلي ماذا تباعك ؟ قال : " لأن تبيعوا الله ولا تنسروا  
به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا " وأمر كلمة خفية - قال لا تسألوا  
الناس شيئا " قال : ولقد كان بعض أولئك الثغور يسقط سوطه فبايعنا أحدا أن يبايعه  
[ رآه ] . قال ابن العربي : من أعظم الموانيق في الله كذا ألا يسأل مواءه نفسه كان أبو حمزة  
الطبرستاني من كبار الباطن سمع أن أحدا بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يسألوا أحدا  
شيئا في الحديث ؟ فقال أبو حمزة : رب ! إن هؤلاء ما هدوا نبيك إذ رأوه ، وأنا ما هدتك  
ألا أسأل أحدا شيئا قال : نفخ سائبا من الشام يريد مكثونا هو يمشي في الطريق من الليل  
أدب من أصحابه لمدرثم أنهم ، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق ،  
فلمس حل في قعر قال : أمتيت لعل أحدا يسمعون . ثم قال : إني الذي ما هدته يراني  
ويستمعني ، والله ! لا تكلم بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مر بذلك البئر ففر ،  
فلما رآوه على حاشية الطريق قالوا : إنه يئس من هذا البئر ، ثم قطعوا خشبا ونصبوها على  
لم البئر وغطوها بالتراب ، فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستنث  
بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ، ثم رجع إلى نفسه فقال : ليس قد ما هدت من  
يراك ؟ فسكت وتوكل ، ثم استند في قعر البئر ففكر في أمره فإذا بالتراب يقع عليه والشعب  
يرفع عنه ، وسمع في أثناء ذلك من يقول : هات بك ! قال : فأعطته يدي فألقني في حرة واحدة  
إلى قعر البئر ، فلم أر أحدا ، فسمعت هاتفا يقول : كيف جأيت ثمة التوكل ، وأنشدني

(١) الزيادة من كتب الخطرات .

تَبَانِي حَيَاتِي مَكَانَ أَنْ أَكْشَفَ الْحَوَى • فَاعْنَيْتِي بِالْإِسْلَامِ مَكَانَ عَنِ الْكُشْفِ  
تَطَلَّعْتُ فِي أَمْرِي فَأَبَيْتُ شَاهِدِي • إِلَى قَاتِلِي وَالْأَطْفُفُ بِدَرْكِ الْأَطْفِ  
تَرَابِتُ لِي بِالْإِسْلَامِ حَتَّى كَانِمَا • تُخَسِّرُنِي بِالْقَيْبِ أَنْتَ فِي كَفِّ  
أَرَانِي وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَحَسَنَةً • فَتَوَسَّلْنِي بِاللَّطِيفِ مِنْكَ وَبِالْمُطِيفِ  
وَتُخَيِّرُنِي عِجَابًا فِي الْحُبِّ حَفْظُهُ • وَذَا عَجِبُ كَيْفَ الْحَيَاءُ مَعَ الْحَتِيفِ

قال ابن العربي : هذا رجل طاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فاقصدوا به إن شاء الله تهتدوا ، قال أبو الفرج الجوزي : سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزعمه إبانة على نفسه ، وذلك لا يحمل ، ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة ، كما لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل بإخفائه الخروج من مكة ، واستجاره دليلا ، واستكامة ذلك الأمر ، واستناره في الغار ، وقوله لسرافة : " أخيف عتاً " . فالتوكل المندوح لا يئال بفعل عظمور ، وسكوت هذا الواقع في البئر محذور عليه ، وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجلب بها النفع ، فإذا عطّلها مدّعا للتوكل كان ذلك جهلا بالتوكل ، وردا لحكمة التواضع ، لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى ، وليس من ضرورته قطع الأسباب ؛ ولو أن إنسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار ؛ قاله سفيان الثوري وغيره ، لأنه قد دلّ على طريق السلامة ، فإذا تقاعد عنها أمان على نفسه . وقال أبو الفرج : ولا تنفث إلى قول أبي حمزة : « بقاء أسد فأنرحني » فإنه إن مع ذلك فقد يقع مثله أنفثا ، وقد يكون لطفًا من الله تعالى بالعبد الجاهل ؛ ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به ، إنما ينكر فعله الذي هو كسبه ، وهو إيمانه على نفسه التي هي وديعة الله تعالى عنده ، وقد أمره بحفظها .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ

وَالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابُ النَّارِ ﴿١٧﴾ جَثَّتْ صَدْرٌ يَدْخُلُونَهَا  
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ  
مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٨﴾ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى النَّارِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) ظاهر في صلة الأرحام؛ وهو قول قتادة وأكثر المفسرين؛ وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. (وَيَتَحَنَّنُونَ رَّبَّهُمْ) قبله في قطع الرحم. وقيل : في جميع المعاصي. (وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) «سوء الحساب» الاستقصاء فيه والمناقشة؛ ومن توفش الحساب ملَّب. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: معنى «يصلون ما أمر الله به» الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم. الحسن : هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم. ويحتمل رابعا: أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح، «وَيَتَحَنَّنُونَ رَّبَّهُمْ» فيما أمرهم بوصله، «وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ» في تركه؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا.

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) قيل : «الذين» مستأنف؛ لأن «صبروا» ماض فلا ينطلف على «يوفون». وقيل : هو من وصف من تقدم، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضي، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من فعل كذا فله كذا؛ ولما كان «الذين» يتضمن الشرط [و] الماضي في الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال : «الذين يوفون» ثم قال : «والذين صبروا» ثم عطف عليه فقال : «وَيَدْرُونَ الْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ». قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله. وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب، والحوادث والنائب. وقال أبو عمران الجوني : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله. (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) أدوها بفروضها وخشوعها في مواقيتها. (وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) بنى الزكاة المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القول في هذا في «البقرة» وغيرها. (وَيَذَرُونَ

بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةِ) لِي يَدْخُلُوا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ السَّيِّئِ مِنَ الْأَعْمَالِ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ابْنُ زَيْدٍ  
يَدْخُلُونَ النَّارَ بِالتَّحِيرِ - سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَدْخُلُونَ لِلتَّحِيرِ بِالْمَعْرُوفِ - الضَّمَاكُ: يَدْخُلُونَ الْفَحْشَ  
بِالسَّلَامِ - جُبَيْرٍ: يَدْخُلُونَ الظُّلْمَ بِالْفَوِّ - ابْنُ شَيْخَةَ: يَدْخُلُونَ الذَّنْبَ بِالتَّوْبَةِ - التَّحْيِي: يَدْخُلُونَ سَهْلَ الْجَاهِلِ بِالْحَلْمِ؛ فَالْهَفَةُ السَّيِّئَةُ، وَالْحَلْمُ الْحَسَنَةُ - وَقِيلَ: إِذَا هُمَا بِسُوءَةِ رَجْعِهِمَا  
هُنَا وَاسْتَفْرَوْا - وَقِيلَ: يَدْخُلُونَ الشَّرْكَ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَهَذِهِ تَسْعَةُ أَقْوَالٍ، مَعْنَاهَا  
كُلُّهَا مُتَقَارِبٌ، وَالْأَوَّلُ يَتَنَاقَلُ بِالْعُمُومِ؛ وَنَظِيرُهُ: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» وَمَنْعَهُ  
قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَازِدٍ: «وَأَتَيْسَعُ السَّيِّئَةُ الْحَسَنَةُ تَحْتَهَا وَخَالِقُ النَّاسِ بِحَقِّ حَسَنٍ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: ((أُولَئِكَ هُمُ عَقَبَى الدَّارِ)) أَيْ عَاقِبَةُ الْآخِرَةِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ بِدَلِّ النَّارِ، وَالدَّارُ  
فِيهَا دَارَانِ: الْجَنَّةُ لِلطَّيِّعِ، وَالنَّارُ لِلْعَاصِي؛ فَلَمَّا ذَكَرَ وَصِفَ الْمُطِيعِينَ فَدَارَهُمُ الْجَنَّةُ لَا مَحَالَةَ -  
وَقِيلَ: عَنِ الدَّارِ دَارُ الدُّنْيَا؛ أَيْ لَمْ يَزَلْ مَا عَمِلُوا مِنْ الطَّامَاتِ فِي دَارِ الدُّنْيَا -

قَوْلُهُ تَعَالَى: ((جَنَّاتٌ مِّنْ دُونِهَا)) أَيْ لَمْ يَجْنُتْ عَدْنٌ؛ فَ«جَنَّاتُ عَدْنٍ» بِدَلِّ مِنْ  
«عَقَبَى» - وَيُحْزَرُ أَنْ تَكُونَ تَفْسِيرًا لِّ«عَقَبَى الدَّارِ» أَيْ لَمْ يَدْخُلْ جَنَّاتُ عَدْنٍ؛ لِأَنَّ «عَقَبَى  
الدَّارِ» حَتَّى وَ«جَنَّاتُ عَدْنٍ» مَعْنًى، وَاحْدَتُهُ إِنَّمَا يَفْصُرُ بِحَتَّى مِثْلُهُ؛ فَالْمَصْدَرُ الْمَحْذُوفُ  
مُضَافٌ إِلَى الْمَقُولِ - وَيُحْزَرُ أَنْ يَكُونَ «جَنَّاتُ عَدْنٍ» خَبَرُ ابْتِدَاءِ مَحْذُوفٍ - وَ«جَنَّاتُ  
عَدْنٍ» وَسَطُ الْجَنَّةِ وَقَصَبَتُهَا، وَسَقَفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ؛ قَالَهُ الْقَشِيرِيُّ أَبُو نَصْرِ عَبْدِ الرَّحِيمِ -  
وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ  
عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَخْرُجُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» - فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ «جَنَّاتُ عَدْنٍ» كَذَلِكَ، إِنْ صَحَّ  
فَكَذَلِكَ خَبَرٌ - وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ قَصْرًا يُقَالُ لَهُ عَدْنٌ، حَوْلَهُ الْبُرُوجُ  
وَالْمُرُوجُ، فِيهِ أَلْفُ بَابٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ خَمْسَةُ آلَافٍ جَعْرَةٍ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا نَبِيٌّ (١) أَوْ صَدِّيقٌ  
أَوْ شَهِيدٌ - وَ«عَدْنٌ» مَا خُذَ مِنْ عَدْنٍ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ فِيهِ؛ عَلَى مَا يَأْتِي بِمَآثِرِهِ فِي سُورَةِ  
«الْكَهْفِ» إِنْ شَاءَ اللَّهُ - ((وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ)) يُحْزَرُ أَنْ

(١) الْخَبَرَةُ (يَكْسُرُ الْهَاءَ الْمَهْمَلَةَ وَضَعَهَا): ضَرْبٌ مِنَ الْيُودِ الْيَمِينَةِ مِثْرٌ - (٢) آيَةُ ١٠٤ -

يكون معطوفا على « أولئك » المعنى : أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم ولديهم لم يحق الدار . ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير المرفوع في « يدخلونها » وحسن العطف كما حال الضمير المنصوب بينهما . ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم ، أى من كان صالحا ؛ لا يدخلونها بالأنساب . ويجوز أن يكون موضع « من » نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آبائهم ، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يلحقه الله بهم كرامة لهم . وقال ابن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول ، ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعية . قال القشيري : وفي هذا نظير ؛ لأنه لا بد من الإيمان ، فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان ؛ فالأظهر أن هذا الصلاح في جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة غدا تَمّ عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قرايبهم في الجنة ، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه ؛ بل برحمة الله تعالى .

فوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ أى بالتعطف والهدايا من عند الله تكملة لهم . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى يقولون : سلام عليكم ؛ فاضمر القول ، أى قد سلمت من الآفات والحق . وقيل : هو دعاء لهم بدوام السلامة ، وإن كانوا سالمين ؛ أى سلمكم الله ، فهو خبر معناه الدعاء ؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية . ﴿ وَمَا صَبْرْتُمْ ﴾ أى بصبركم ؛ ف« ما » مع الفعل بمعنى المصدر ، والباء في « بما » متعلقة بمعنى « سلام عليكم » . ويجوز أن تتعلق بـ « صبرتم » أى هذه الكرامة بصبركم ، أى على أمر الله تعالى ونهيه ؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : على الفقر في الدنيا ؛ قاله أبو عمران الجوني . وقيل : على الجهاد في سبيل الله ؛ كما روى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « المجاهدون الذين تُسَدُّ بهم الثغور وتُتَّقَى بهم المنكاره فيموت أحدهم وساجته في نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : « السلام عليكم بما صبرتم فنعم

عقبي النار» وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره السيوطي من أبي هريرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي الشهداء ، فإذا أتى فرضة الشعب يقول : « السلام عليكم بما صبرتم فتمم عقبي النار » . ثم كان أبو بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم يفعله ، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله ، وكان عثمان بعد عمر يفعله ، وقال الحسن البصري رحمه الله : « بما صبرتم » عن فضول الدنيا . وقيل : « بما صبرتم » على ملازمة الطاعة ، ومفارقة المعصية ؛ قال معناه الفضيل بن عياض . ابن زيد : « بما صبرتم » عما تحبونه إذا فقدتموه . ويحتمل سابعاً - « بما صبرتم » عن اتباع الشهوات . وعن عبد الله بن سلام وعلى بن الحسين رضى الله عنهما «<sup>(١)</sup> أنهما قالاً : إذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقيم أهل الصبر ؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : أطلقوا إلى الجنة ، فتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة . قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا نعم ! فيقولون : من أتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا ، وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معاصي الله ، وصبرناها على البلاء والضن في الدنيا . قال علي بن الحسين : فتقول لهم الملائكة : أدخلوا الجنة فتمم أجر العاملين . وقال ابن سلام : فتقول لهم الملائكة : « سلام عليكم بما صبرتم » . ( فتمم عقبي النار ) أى نعم طاعة الدار التي كنتم فيها ؛ عملتم فيها ما أمركم هذا الذي أتم فيه ؛ فالعقبي على هذا اسم ، و« الدار » هي الدنيا . وقال أبو عمران الجوني : « فتمم عقبي الدار » الجنة عن النار ، وعنه : « فتمم عقبي الدار » الجنة عن الدنيا .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** (٢٥) **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ** (٢٦)

(١) فرضة الشعب : فريضة . والنسب : ما اخرج بين جبلين . والشهداء كانوا يجبل أحد .

(٢) في الأصل : « أنه قال » .

قوله تعالى : ( وَالَّذِينَ يَقْسُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ) لما ذكر المؤمنين بمصداق  
والمواصلين لأمره ، وذكر ما لم ذكر حكمهم . تقض الميثاق ، ترك أمره . وقيل : إعمال  
عقولهم ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى . ( وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ )  
أى من الأرحام ، والإيمان بجميع الأنبياء . ( وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ) أى بالكفر وأرتكاب  
المعاصي . ( أُولَئِكَ لَمْ أَكَفِّرُ عَنْهُمْ ) أى الطرد والإبعاد من الرحمة . ( وَلَمْ سُوءُ النَّارِ ) أى سوء  
المنقلب ، وهو جهنم . وقال سعد بن أبي وقاص : والله الذى لا إله إلا هو ! إنهم الحُرورية .  
قوله تعالى : ( اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ) لما ذكر عقوبة المؤمنين وعاقبة

المشرك بين أنه تعالى الذى يسطر الرزق ويقدر فى الدنيا ، لأنها دار امتحان ، فيسطر الرزق  
على الكافر لا يدل على كرامته ، والتقدير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم . « ويقدر »  
أى يضيق ، ومنه « وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » أى ضيق . وقيل : « يقدر » يعطى بقدر  
الكفاية . ( وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) أى مشركى مكة ، فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها ، وجعلوها  
ما عند الله ، وهو معطوف على « ويفسدون فى الأرض » . وفى الآية تقديم وتأخير ،  
التقديم : والذين يقسئون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون  
فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا . ( وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ ) أى فى جنبها ( إِلَّا مَتَاعٌ )  
أى متاع من الأمتعة ، كالقصعة<sup>(١)</sup> والسكرجة . وقال مجاهد : شئ قليل ذاهب ، من متاع النهار  
إذا ارتفع ، فلا بد له من زوال . أبى عباس : زاد كراد الراعى . وقيل : متاع الحياة الدنيا  
ما يستمتع بها منها . وقيل : ما يترود منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ، « ولم  
سوء النار » ثم أبتدأ « الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر » أى يوسع ويضيق .

قوله تعالى : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ  
قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ<sup>(٢)</sup> الَّذِينَ آمَنُوا  
وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ<sup>(٣)</sup>

(١) السكرجة : إمالة صفيح يركل فيه الشئ القليل من الأدم ، وهى فارسية .

قوله تعالى : ( وَمَنْ لَمْ يَلِدْ ) كَثَرُوا لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ( وَمَنْ لَمْ يَلِدْ ) مِنْ لِي مَوَاضِعُ  
 أَنْ أَقْرَاحَ الْآيَاتِ عَلَى الرِّسْلِ جَهْلٌ ، بَعْدَ أَنْ رَأَوْا آيَةً وَاحِدَةً تَمَلُّ عَلَى الصَّدَقِ ، وَالْقَائِلِ  
 عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ وَأَصْحَابُهُ حِينَ طَالَبُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْآيَاتِ . ( قُلْ إِنْ أَنْتُمْ  
 مِنْ عِزِّ رَبِّ ) ( يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ) أَيْ كَمَا أَضَلَّكُمْ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْآيَاتِ وَحَرَمَكُمْ الْأَسْتِدْلَالَ بِهَا  
 يَضِلُّكُمْ عَنْهُ تَزُولُ فِيهَا . ( وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ) أَيْ مِنْ رَجَعِ . وَالْمَاءُ فِي « إِلَيْهِ »  
 تَحْقِيقٌ ، أَوْ لِلْإِسْلَامِ ، أَوْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، عَلَى تَقْدِيرٍ : وَيَهْدِي إِلَى دِينِهِ وَطَاعَتِهِ مِنْ رَجَعِ إِلَى  
 قَلْبِهِ . وَقِيلَ : هِيَ الْمَنَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قوله تعالى : ( الَّذِينَ آمَنُوا ) « الَّذِينَ » فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ ، لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ ، أَيْ يَهْدِي اللَّهُ  
 الَّذِينَ آمَنُوا . وَقِيلَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : « مَنْ أُنَابَ » فَهُوَ فِي مَجَلِّ نَصَبٍ أَيْضًا . ( وَتَطْمَئِنُّ  
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ) أَيْ تَسْكُنُ وَتَسْتَأْنِسُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فَتَطْمَئِنُّ ، قَالَ : أَيْ وَهُمْ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ  
 عَلَى الْإِسْلَامِ بِذِكْرِ اللَّهِ بِالسُّكُونِ ، قَالَه قَتَادَةُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا : بِالْقُرْآنِ . وَقَالَ سَفِيَانُ  
 ابْنُ عُيَيْنَةَ : بِأَمْرِهِ . مَقَاتِلُ : بِوَعْدِهِ . ابْنُ عَبَّاسٍ : بِالْحَلْفِ بِاسْمِهِ ، أَوْ تَطْمَئِنُّ بِذِكْرِ فَضْلِهِ  
 وَإِعْلَامِهِ ، كَمَا تَوَجَّلُ بِذِكْرِ عِلِّهِ وَتَنْتَقِمُهُ وَقَضَائِهِ . وَقِيلَ : « بِذِكْرِ اللَّهِ » أَيْ يَذْكُرُونَ اللَّهَ  
 وَيَتَأَمَّلُونَ آيَاتِهِ فَيَعْرِفُونَ كَمَالَ قُدْرَتِهِ عَنْ بَصِيرَةٍ . ( أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ) أَيْ قُلُوبُ  
 الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هَذَا فِي الْحَلْفِ ، فَإِذَا حَلَفَ خَصَمُهُ بِاللَّهِ سَكَنَ قَلْبُهُ . وَقِيلَ :  
 « بِذِكْرِ اللَّهِ » أَيْ بِطَاعَةِ اللَّهِ . وَقِيلَ : بِتَوَابِ اللَّهِ . وَقِيلَ : بِوَعْدِ اللَّهِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُمْ  
 أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قوله تعالى : ( الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ

مَثَابُ )

قوله تعالى : ( الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ ) أَيْ بَدَأَهُمْ وَخَيْرٌ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ  
 لَهُمْ طُوبَى ، ذُ « طُوبَى » رَفَعٌ بِالْأَبْتَدَاءِ ، وَيُحْذَرُ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعُهُ نَصَبًا عَلَى تَقْدِيرٍ : تَجْعَلُ

لهم طوبى ، وصطف طوبى ، وحسن مآب ، على المؤمنين للذكرين ، فترفع أو تنصب .  
 وذكر عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن عمرو بن أبي يزيد البكالي - من حبة  
 ابن عبد السلمي قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الحوض  
 فقال : فيها فاكهة ؟ قال : " نعم شجرة تدعى طوبى " . قال : يا رسول الله أئني شجر أرضنا  
 تشبهه ؟ قال : " لا تشبه شيئا من شجر أرضك أتيت الشام هناك شجرة تدعى الخوزة تبسج  
 على ساق ويقتريش أهلها " . قال : يا رسول الله ! فما عظم أصلها ! قال : " لو أرحلت جذعة  
 من إبل أهلك ما أحطت بأصلها حتى تنكمر رقبتها هَرَمًا " . وذكر الحديث ، وقد كتبناه  
 وبكاه في أبواب الجنة من كتاب « التذكرة » ، والحديث . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا معمر  
 عن الأشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال : في الجنة شجرة يقال لها  
 طوبى ، يقول الله تعالى لها : فتفتي لعبدي عما شاء ، فتفتي له من فرس وسرجه ولحاه  
 وهيئة كما شاء ، وتفتي عن الراحة برطها وزمامها وهيئتها كما شاء ، وعن التجائب والنياب .  
 وذكر ابن وهب من حديث شهر بن حوشب عن أبي أمامة الباهلي قال : « طوبى » شجرة  
 في الجنة ليس منها دار إلا فيها غصن منها ، ولا طير حسن إلا هو فيها ، ولا نمر إلا هي منها ؛  
 وقد قيل : إن أصلها في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، ثم تنقسم فروعها على منازل  
 أهل الجنة ، كما أنتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا . وقال ابن عباس : « طوبى  
 لهم » فرح لهم وقوة عين ، وعنه أيضا أن « طوبى » كسم الجنة بالحيشة ، وقاله سعيد بن جبيرة .  
 الربيع بن أنس : هو البستان ببلغة الهند ، قال القشيري : إن مع هذا فهو وفاقين اللتين .  
 وقال قتادة : « طوبى لهم » حسنى لهم . عكرمة : نعمى لهم . إبراهيم النخعي : خير لهم ؛  
 وعنه أيضا كرامة من الله لهم . الضحاك : غبطة لهم . النحاس : وهذه الأقوال متقاربة ؛  
 لأن طوبى فعل من الطيب ، أى العيش الطيب لهم ؛ وهذه الأشياء ترجع إلى النبي الطيب .  
 وقال الزجاج : طوبى فعل من الطيب ، وهى الحالة المستطابة لهم ، والأصل طيبي ، فصارت  
 الياء واوا لسكونها وضم ما قبلها ، كما قالوا : موسم وموفن .

قلت : « والصحيح أنها شجرة » الحديث ثلث فروع التي ذكرها وهو صحيح على ما ذكره  
 السبيل ؛ ذكره أبو عمر في الشهيد ، ومنه قلناه ؛ وذكره أيضا التعليق في تفسيره ؛ وذكر أيضا  
 المهدوي والقشيري عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
 « طوبى لشجرة في الجنة غرسها الله بيده وفتح فيها من روجه ثنبت الحلى والحلل وإن أغصانها  
 فُتِرت من وراء سور الجنة » . ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع التعليق . وقال ابن  
 عباس : « طوبى » شجرة في الجنة أصلها في دار علي ، وفي دار كل مؤمن منها غصن . وقال  
 أبو جعفر محمد بن علي : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : « طوبى لم وحسن مأب »  
 قال : « شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة » ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : « شجرة  
 أصلها في دار علي وفروعها في الجنة » فقيل له : يا رسول الله ! سئلت عنها فقلت : « أصلها  
 في داري وفروعها في الجنة » ثم سئلت عنها فقلت : « أصلها في دار علي وفروعها في الجنة »  
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن داري ودار علي غدا في الجنة واحدة في مكان واحد » .  
 وعنه صلى الله عليه وسلم : « هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دوركم إلا مدلت فيها  
 فُصن منها » . ( وَحَسُنَ مَا يَبْدُو لَكَ ) إذا رجع . وقيل تقدير الكلام : للذين آمنوا وتطمئن  
 قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعالى : كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ  
 لَبِثُوا عَلَى اللَّهِ أَوْحِينَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي  
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ( كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ) أى أرسلناك كما أرسلنا  
 الأنبياء من قبلك ؛ قاله الحسن . وقيل : شبه الإتمام على من أرسل إليه عهد عليه السلام  
 بالإتمام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . ( لَبِثُوا عَلَى اللَّهِ أَوْحِينَآ إِلَيْكَ ) يعنى القرآن .  
 ( وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ) قال مقاتل وأبى جريح : نزلت في صلح الحديبية حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصلح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي : " أكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سُبُل بن عمرو والمشركون : ما نعرف الرحمن إلا صاحب الإمامة ، بمنون مُسَيِّمَةَ الكتاب ؛ أكتب باسمك اللهم ، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي : " أكتب هذا ما صالح عليه عهد رسول الله " فقال مشركو قريش : لن كنت رسول الله ثم فإنتاك وصددناك لقد ظلمناك ؛ ولكن أكتب : هذا ما صالح عليه عهد بن عبد الله ؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : دعنا قاتلهم ؛ فقال : " لا ولكن أكتب ما يريدون " فترت . وقال ابن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " أعبدوا للرحمن " قالوا : وما الرحمن ؟ فنزلت ( قُلْ ) لهم يا عهد ؛ للذي أنكرتم ( هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ) ولا معبود سواه ؛ هو واحد بذاته ، وإن اختلفت أسماء صفاته . ( عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ) وأعتددت ووثقت . ( وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ) أي مرجعي قدا ، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت ، رضا بقضائه ، وتسليا لأمره . وقيل : مع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحجر ويقول : " يا الله يارحمن " قال : كان عهد بنيان من عبادة الالهة وهو يدعو إلهين ؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل « قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرِّحْمَنَ » .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٍ بِهِ الْمَوْتَى بَلَّ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَيِّبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرْيَةً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ( وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ) هذا متصل بقوله : « ولا تترك عليه آية من ربه » ، وذلك أن قرا من مشركي مكة فهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية

المخزوميان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتاهم ؛ فقال له عبد الله : إن سرك أن تبيك فسّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذيعها عنا حتى تنفصح ؛ فإنها أرض ضيقة ، وأجعل لنا فيها عيونا وأنهارا ، حتى تنفوس وترزع ؛ فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين تنخرله الجبال تسيير معه . ونحترق لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضى عليها ميرتنا وحوالجتنا ، ثم نرجع من يومنا ؛ فقد كان سليمان يتخمرت له الريح كما زعمت ؛ فلست بأهون على ربك من سليمان بن داود . وأني لنا قَصَبٌ جَدَكْ ، أو من شئت أنت من موتانا نسأله ، أحقُّ ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يحيى الموتى ، ولست بأهون على الله منه ؛ فأنزل الله تعالى : « ولو أن قرآنا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » الآية ؛ قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقسادة والضحاك ؛ والجواب محذوف تقديره : « كان هذا القرآن ، لكن حذف إيجازا ، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه ؛ كما قاله امرؤ القيس :

قَلَّوْا أَنَّهُمْ نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً • وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفَسًا

يعنى لما ن على ؛ هنا معنى قول قتادة ؛ قال : لو قل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم . وقيل ؛ الجواب متقدم ، وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ أي وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا . الفراء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن . للأرجاج : « ولو أن قرآنا » إلى قوله : « الموتى » لما آمنوا ؛ والجواب المضمر هنا ما أظهر في قوله : « وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . « بَلْ قَدْ آمَرْتُ جَمِيعًا » أي هو المالك لجميع الأمور ، الفاعل لما يشاء منها ، فليس ما تلتسمونه ، كما يكون بالقرآن ، إنما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : « أَفَلَمْ يَتَّبِعِ الَّذِينَ آمَنُوا » قال الفراء قال الكوفي : « يتتبع » بمعنى يعلم ، لغة النخع ، وحكاه القشيري عن ابن عباس ؛ أي أفلم يعلموا ؛ وقاله الجوهري في الصحاح .

وقيل : هو لغة هوازن ، أى أفلم يعلم ، عن ابن عباس وجاهد والحسن . وقال أبو حنيفة :  
أفلم يعلموا وبيّنوا ، وأنته في ذلك أبو حنيفة لمالك بن حوف للصنع<sup>(١)</sup> :  
أقول ثم بالشعب إذ يسروني . ألم تيقنوا أنّ ابن قاريس زهدم<sup>(٢)</sup>  
يسروني من المهسر ، وقد تقدم في « البقرة » وروى ياسروني من الأسر . وقال رباح  
ابن صلي :

ألم يتيقن الأقوام أنّي [ أنا ] أبنه . وإن كنت عن أرض الشّيرة ناتيأ .

في كتاب الرد « أنّي أنا أبنه » وكذا ذكره التّزوي : ألم يعلم ، ولعلني على هذا : أفلم يعلم الذين  
آمنوا أنّ لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : هو من اليأس  
المعروف ، أى أفلم يئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، لعلهم أنّ الله تعالى لو أراد  
هدايتهم لهداهم ، لأن المؤمنين تمنّوا نزول الآيات طمعا في إيمان الكفار . وقيل على  
وآبن عباس : « أفلم يتيقن الذين آمنوا » من البيان . قال القشيري : وقيل لابن عباس  
المكتوب « أفلم يئس » قال : أظن الكاتب كتبها وهو غصص ، أى زاد بعض الحروف  
حتى صار « يئس » . قال أبو بكر الأنباري : روى عكرمة عن ابن أبي نجيح أنه قرأ : أفلم  
يتيقن الذين آمنوا « وبها احتج من زعم أنه الصواب في التلاوة ، وهو باطل عن ابن عباس  
لأن مجاهدا ومعيد ابن جبير حكيا الحرف عن ابن عباس ، على ما هو في المصحف قراءة  
أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسفيان بن جبير عن ابن عباس ، ثم إن معناه : أفلم يتيقن  
فلان كان مراد الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها ، وثائق بثاويلها  
وإن أراد الله المعنى الآخر الذي اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما لو روي

(١) ذكر في « لسان العرب » أنّ قاتل البيت هو محمّد بن زبيل البريمي ، قال : وذكر بعض العلماء  
قوله جابر بن سمير بدليل قوله فيه : « أنّ ابن قاريس زهدم » وزهدم : فرس سمير . وقوله : يسروني من اليأس  
الجزري ، أى يجرؤوني ويقتسوني ، وذكر ذلك لأنه كان قد وقع عليه شيء فصرخوا عليه باليسر فصاروا على  
مداه . (٢) راجع ج ٢ ص ٣ طبعه أول أو ثانية . (٣) لم تدر في الأصول حقيقة « فانا »  
والواجب إثباتها كما في كتاب « الرد » إذ أن البيت من الجليل ، ويصعب لا يستقيم .

وأما سقوطه يطل القرن ، ولزوم أصحابه البهتان . ( أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ ) « أَنْ » مخففة من الثقيلة ، أى أنه لو يشاء الله ( لَمَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ) وهو يرد على القدرة وغيره .

قوله تعالى : ( وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ) أى داهية تفجؤهم بكفرهم وعصيتهم ، ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجمع قوارع ، والأصل فى القرع الضرب ، قال :

أَفَنِي تِلَادِي وَمَا جَعَلْتُ مِنْ نَسَبٍ • فَسَرَّحُ الْقَوَائِدَ أَقْوَاهُ الْإِبَارِقِ

أى لا يزال الكافرون يصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أريد أو من قتل أو أسر أو جلب ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء ، كما نزل بالمستعزين ، وهم رؤساء المشركين . وقال عكرمة من ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضا وعكرمة : القارعة الطلائع والسرأي التي كان يُنفذها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم . ( أَوْ تَحُلْ ) أى القارعة ( قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ) قاله قتادة والحسن . وقال ابن عباس : أو تحل أنت قريبا من دارهم . وقيل : نزلت الآية بالمدينة ، أى لا تزال تصيبهم القوارع فتزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقرى المدينة ومكة . ( حَتَّى يَأْتِيَ وَفْدُ اللَّهِ ) فى فتح مكة ، قاله مجاهد وقاتدة . وقيل : نزلت بمكة ، أى تصيبهم القوارع ، وتخرج منهم إلى المدينة يا محمد ، فتحل قريبا من دارهم ، أو تحل بهم عاصرا لهم ، وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، ولِفِلاح خير ، ويأتى وعد الله بالإذن لك فى قتالهم وفقرهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ اسْتَبْرَأْ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَامْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخْلَلْتُمْ فَكَيفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَاتِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ مَن مِّمُّهُمْ أَمْ تَدْعُوهُمْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يظْهِرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَضَدُّوا

(١) هو الأتشر الأمدى ، رأسه القبرة بن عبد الله . والبلاد : الحال القديم الموروث . والنسب : النساب والبلاتين وما بعده جسد . والقوائيم ( جمع قافرة ) ، وهو أوان يشرب بها الخمر .

عَنِ السَّجِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ ثُمَّ هَدَىٰ  
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿١٦﴾  
 قوله تعالى : ( وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ أَخْذَلَهُمْ ) تقدم معنى  
 الاستهزاء في « البقرة » ومعنى الإملاء في « آل عمران » أي تخييضهم ، وأخرى طيهم ، فأملة  
 الكافرين مدة يؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم ، فلما حق الفضل أخذتهم بالمقربة •  
 ( فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ) أي فكيف رأيت ما صنعت بهم ، فكذلك المصحح بمشرك قوبله •

قوله تعالى : ( أَفَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبَتْ ) ليس هذا القيام القيام الذي  
 هو ضد القعود ، بل هو بمعنى التولي لأموال الخلق ، كما يقال : قام فلان بفعل كذا ، فإنه قائم  
 على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب ، ويخلقها ويرزقها ، ويحفظها ويحاربها على  
 عملها ، فالمعنى : أنه حافظ لا ينفل ، والجواب عن حذفه ، والمعنى : أفن هو حافظ لا ينفل  
 كمن ينفل • وقيل : أفن هو قائم أي عالم ، قاله الأعمش • قال الشاعر •  
 فلولاً رجالاً من قريش أمرة • مرقم ثياب البيت والله قائم

أي عالم ، فآله عالم بكسب كل نفس • وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكرون بنبي آدم  
 عن الضحك ( وَجَعَلُوا ) حال ؛ أي قد جعلوا ، أو عطف على « استهزئ » أي استهزئوا  
 وجعلوا ، أي سموا ( لِلَّهِ شُرَكَاءَ ) يعني أصناماً جعلوها آلهة • ( قُلْ سَمُّوهُمْ ) أي قل لهم  
 يا محمد : « سموهم » أي يبنوا اسماءهم ، على جهة التهديد ؛ أي إنما يسمون : الآلهة والرب  
 ومآة وهبل • ( أَمْ تَتْلُوهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ) « أم » استفهام توبيخ ، أي لتبينوه  
 وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدم في المعنى ، لأن قوله : « سموهم » معناه •  
 ألهم أسماء الخالقين « أم تبتنونه بما لا يعلم في الأرض » ؟ • وقيل : للمعنى قل لهم لتبينوا  
 بباطن لا يعاينهم ، أم بظاهر من القول يعاينهم ؟ فإن قالوا : بباطن لا يعاينهم لآلهة الوالد

(١) راجع ١ ص ١٠٠ وما بعدها ثانية أربعة • (٢) راجع ٥ ص ١٠٠ وما بعدها طبعاً  
 أدلة أو ثانية •

ظاهري يعلمه قلل لهم : سمعهم ، فإنما سمعهم اللات والعزى قلل لهم : إن الله لا يعلم نفسه  
شريكا . وقيل : « أم تنبئونه » عطف على قوله : « أفن هو قائم » أم أفن هو قائم ،  
أم تنبئون الله بما لا يعلم ، أي أتنبئون الله شريكا ، والله لا يعلم نفسه شريكا ، أنتنبئونه  
بشريك له في الأرض وهو لا يعلمه ! وإنما خص الأرض بنبي الشريك عنها وإن لم يكن  
له شريك في غير الأرض لأنهم آذعوا له شركاء في الأرض . ومعنى ( **أَمْ يَظَاهِرُونَ** ) :  
الذي أنزل الله على أنبيائه ، وقال قتادة : معناه بياطل من القول ؛ ومنه قول الشاعر :  
**أَعْبَرْتَنَا الْبَاطِلَ وَالْحُسُومَ • وَذَلِكَ عَائِدٌ بَيْنَ رِبَاطَةِ ظَاهِرٍ**

أي باطل . وقال الضحاك : يكذب من القول . ويحتمل خامسا - أن يكون الظاهر من القول  
حجة يظهرونها بقولهم ؛ ويكون معنى الكلام : أنتخبونه بذلك مشاهدين ، أم تقولون عتجين .  
( **بَلْ زَيْنٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمُ** ) أي دع هذا ! بل زين للذين كفروا مكرم ؛ قيل : استمدرك  
على هذا الوجه ، أي ليس لله شريك ، لكن زين للذين كفروا مكرم . وقرا ابن عباس  
وجاهد - **بَلْ زَيْنٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمُ** « معنى الفاعل ؛ وعلى قراءة الجماعة فالذي زين  
للكافرين مكرم الله تعالى ، وقيل : الشيطان . ويعجز أن يسمى الكفر مكرًا ؛ لأن مكرم  
بالرسول كان كفرا . ( **وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ** ) أي صدّهم الله ، وهي قراءة حمزة والكسائي .  
بالفوق بالفتح ، أي صدّوا غيرهم ؛ واختاره أبو حاتم ، اعتبارا بقوله : **« وَاصْبِرْ عَلَى سَبِيلِ**  
**اللَّهِ »** وقوله : **« هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ »** . وقراءة الضم أيضا حسنة  
في « زين » و « صدوا » لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك في مذهب أهل السنة ؛ وفيه إثبات  
للقدر ، وهو اختيار أبي عبيد . وقرا يحيى بن وثاب وعطمة - **« وَصَدُّوا »** بكسر الصاد ؛  
وكذلك **« هَبْنِي بِضَاعَتَا رَيْتَ أَيْتَا »** بكسر الراء أيضا على ما لم يسم فاعله ؛ وأصلها صيدوا  
ورُبِنَت ، فلما أذعمت الدال الأولى في الثانية قللت حركتها على ما قبلها فأنكسر .  
( **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ** ) بخلافه ( **قَالَ مِنْ هَادٍ** ) أي موفق ؛ وفي هذا إثبات قراءة الكوفيين  
ومن تابعهم ؛ لقوله : **« وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ »** ، فكذلك قوله : **« وَصَدُّوا »** . ومعظم القراء

يقفون على اللال من غير الباء ؛ وكذلك والى وواقى ؛ لأنك تقول فى الرجل : هذا قاضٍ ووالى وهادى ، فتحذف الباء لسكونها والتقاءها مع التنوين . وقرئ « فله من هادى » وهو « والى » و « واقى » بالياء ؛ وهو على لغة من يقول ؛ هذا داعى ووالى وواقى بالياء ؛ لأن حذف الياء فى حالة الوصل لا لتقاءها مع التنوين ، وقراءتنا هذا فى الوقف ؛ فردت الباء فصار هادى ووالى وواقى . وقال الخليل فى نداء قاضٍ : يا قاضى بإثبات الباء ؛ إذ لا تنوين مع النداء ، كما لا تنوين فى نحو الداعى والمتعالى .

قوله تعالى : ( لَهْمُ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) أى للشركين الصادقين بالقتل والسب والإسار ، وغير ذلك من الأسقام والمصائب . ( وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ) أى أشد ؛ من قولك : شق على كذا يشق . ( وَمَا لَهْمُ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ) أى مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع . و « من » زائدة .

قوله تعالى : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ) اختلف النعا فى رفع « مثل » فقال سيبويه : أرتفع بالابتداء والخبر محذوف ؛ والتقدير : وفيها ينل عليكم مثل الجنة . وقال الخليل : أرتفع بالابتداء وخبره : تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أى صفة الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ؛ كقولك : قولى يقوم زيد ؛ فقولى مبتدأ ، ويقوم زيد خبره ؛ والمثل بمعنى الصفة موجود ؛ قال الله تعالى : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ » . وقال : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » أى الصفة العليا ، وأنكره أبو على وقال : لم يسمع مثل بمعنى الصفة ؛ إنما معناه الشبه ؛ ألا تراه يجرى مجراه فى مواضعه ومتصرفاته ؛ كقولهم : مررت برجل مثلك ؛ كما نقول : مررت برجل شبيهك ؛ قال : ويفسد أيضا من جهة المعنى ؛ لأن مثلا

إِنَّا كَافُّمَهُ صِفَةً كَانَ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ : صِفَةُ الْجَنَّةِ الَّتِي لَهَا أَنْهَارٌ ، وَذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَعِيمٍ ؛ لِأَنَّ  
الْأَنْهَارَ فِي الْجَنَّةِ قَسَمًا لَا صِفَتَهَا . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : مَثَلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا مَا غَابَ عَنْ بَابِ زَمَامٍ  
وَالْمَعْنَى : مَثَلُ الْجَنَّةِ جَنَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَأَنْكَرَهُ أَبُو عَلِيٍّ فَقَالَ : لَا يَخْلُو الْمَثَلُ عَلَى  
قَوْلِهِ أَنْ يَكُونَ الصِّفَةُ أَوْ الشَّبَهَ ، وَفِي كَلَامِ الْوُجْهِينَ لَا يَصِحُّ مَا قَالَهُ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى الصِّفَةِ  
لَمْ يَصِحُّ ، لِأَنَّهُ إِذَا قُلْتُ : صِفَةُ الْجَنَّةِ جَنَّةٌ ، فَخَلَّتِ الْجَنَّةُ خَبْرًا لَمْ يَسْتَقِمْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ  
لَا تَكُونُ الصِّفَةُ ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا شَبَهَ الْجَنَّةَ جَنَّةً ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّبَهَ عِبَارَةٌ مِنَ الْمِثَالَةِ الَّتِي بَيْنَ  
الْمِثَالَيْنِ ، وَهُوَ خَدَّتْ ، وَالْجَنَّةُ غَيْرُ خَدَّتْ ؛ فَلَا يَكُونُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي . وَقَالَ الْفَرَّاهُ : الْمَثَلُ  
مَقْعَمٌ لِلتَّائِيدِ ؛ وَالْمَعْنَى : الْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ؛ وَالْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ  
كَثِيرًا بِالْمَثَلِ ؛ كَقَوْلِهِ : « لَيْسَ كَيْثَلُهُ شَيْءٌ » ؛ أَيْ لَيْسَ هُوَ كَشَيْءٍ . وَقِيلَ التَّقْدِيرُ : صِفَةُ  
الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ صِفَةً جَنَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . وَقِيلَ مَعْنَاهُ : شَبَهَ الْجَنَّةَ الَّتِي وَعَدَ  
الْمُتَّقُونَ فِي الْحَسَنِ وَالنِّعْمَةِ وَالْخُلُودِ كَشَبَهَ النَّارَ فِي الْعَذَابِ وَالشَّدَةِ وَالْخُلُودِ ؛ قَالَهُ مِقَاتِلٌ .  
( أَكَلُوهَا دَائِمٌ ) لَا يَنْقَطِعُ ؛ وَفِي الْخَبَرِ : « إِذَا أَخَذْتَ ثَمْرَةَ عَادَتْ مَكَانَهَا أُخْرَى » ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ  
فِي « التَّذَكُّرَةِ » . ( وَظِلُّهَا ) أَيْ ظِلُّهَا كَذَلِكَ ؛ غُلْفٌ ؛ أَيْ ثَمَرُهَا لَا يَنْقَطِعُ ، وَظِلُّهَا لَا يَزُولُ ؛  
وَهَذَا رَدٌّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ نَعِيمَ الْجَنَّةِ يَزُولُ وَيَفْنَى . ( تِلْكَ حَقِيقَةُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعَفَى  
لِلْكَافِرِينَ النَّارُ ) أَيْ عَاقِبَةُ أَمْرِ الْمَكِيدِينَ وَأَخْرَجَهُمُ النَّارُ يَدْخُلُونَهَا .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ أَكْثَرُ رَحْمَةٍ وَأَنْزَلَ إِلَيْكَ**  
**وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ**  
**وَلَا أُشْرِكُ بِهِ إِلَهًا لِيَدْعُوهُ وَإِلَيْهِ مَقَابِلُ** ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ( **وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ أَكْثَرُ رَحْمَةٍ وَأَنْزَلَ إِلَيْكَ** ) أَيْ بَعْضٌ مِنْ أَوْقَى  
الْكَتَابِ يَفْرَحُ بِالْقُرْآنِ ، كَابْنِ سَلَامٍ وَسَلَامَانَ ، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنَ الْخَبَشَةِ ؛ فَالْفَرْحُ عامٌ ، وَالْمُرَادُ  
الْخَصَرُ مِنْ مَوَالٍ فَتَأْدَقُ : هُمْ أَصْحَابُ عَمْدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْرَحُونَ بِنُورِ الْقُرْآنِ ؛ وَقَالَ بَجَاهِدٍ

وابن زيد . ومن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكلب . وقيل : هم جماعة أهل الكلب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم . وقال أكثر العلماء : كان ذكر الرحمن في القرآن قليلا في أول ما أنزل ، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه سامع قلة ذكر الرحمن في القرآن منع كثرة ذكره في التوراة ؛ فسالوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فأنزل الله تعالى : « قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » فقالت قريش : ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين ، الله والرحمن ! والله ما تعرف الرحمن إلا رحمن البصامة . يعنون مُسْتَلِمَةَ الكَذَاب ؛ فزلت : « وَهُمْ يَذُكِّرُ الرَّحْمَنُ هُم كَافِرُونَ » « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » ففرح مؤمنو أهل الكلب بذكر الرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنَّا هُمْ الْكَلْبُ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » . ( وَمِنَ الْأَحْزَابِ ) يعنى مشركى مكة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزبون على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : من أعداء المسلمين من يكره بعض ما في القرآن ؛ لأن فيه من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . ( قُلْ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ) قراءة الجماعة بالنصب عطفا على « أعبد » . وقرا أبو خالده بالرفع على الاستئناف ؛ أى أفرد بالعبادة وحده لا شريك له ، وأبترأ عن المشركين ، ومن قال : المسيح ابن الله وعزى ابن الله ، ومن اعتقد التشبيه كالنهود . ( إِلَيْهِ أَدْعُو ) أى إلى عبادته ادعوا الناس . ( وَإِلَيْهِ مَآبٍ ) أى أرجع في أمورى كلها .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ  
بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلْعَلِّ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ( وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ) أى وكما أنزلنا عليك القرآن فانكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا ؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على عهد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربى ، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا . وقيل نظم الآية : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا ، أى بلسان العرب ؛ ويريد بالحكم ما فيه

من لأحكام . وقيل المراد بالحكم العربي القرآن كله ؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم .  
 ( وَلَكِنْ أَتَيْتَ أَخْوَانَهُمْ ) أى أهواء المشركين فى عبادة ما دون الله ، وفى التوجه إلى غير  
 الكمية . ( بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ آلَهِ مِنْ وَلٍ ) أى ناصر ينصرك . ( وَلَا وَاقٍ )  
 يمنعك من مذابه ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد الأئمة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا  
 وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرُسُلٍ أَنْ يَأْتِيَ رِعَايَةً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ  
 كِتَابٌ ٧٨

فيه مثلث :

الأولى - قيل إن اليهود طابوا على النبي صلى الله عليه وسلم الأزواج ، وعيرته بذلك  
 وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن  
 النساء ، فأنزل الله هذه الآية ، وذكركم أمر داود وسليمان فقال : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ  
 وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً ) أى جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا ، وإنما  
 للتخصيص فى الوحي .

الثانية - هذه الآية تدل على الترفيف فى النكاح والحض عليه ، ونهى عن التبتل  
 وهو ترك النكاح ، وهذه سنة المسلمين كما نصت عليه هذه الآية ، والسنة واردة بمعناها ؛  
 قال صلى الله عليه وسلم : " تزوجوا فإني مكاتبكم الأمم " الحديث . وقد تقدم فى « آل عمران » .  
 وقال : " من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتق الله فى النصف الثانى " . ومعنى ذلك  
 أن النكاح يصفى عن الزنى ، والغفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 عليهما الجنة فقال : " من وقاه الله شرأنتين وبج الجنة ما بين حليه وما بين رجله " نرجه  
 الموطأ وغيره . وفى صحيح البخارى عن أنس قال : جاء ثلاثة رهط إلى يسوت أزواج النبي

صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال الآخر : إني أصوم الدهر فلا أفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أتم الذين قلم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصل وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » . نخرجه مسلم بمعناه ؛ وهذا بين . وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : أراد عثمان أن يتنهل فنهاء النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولو أجاز له ذلك لاختصمينا ، وقد تقدم في « آل عمران » الحنف على طلب الولد والزوجة على من جهل ذلك . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : إني لأتزوج المرأة وما لى فيها من حاجة ، وأطؤها وما أشتها ؛ قيل له : وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : حي أن يخرج الله منى من يكاتبه النبي صلى الله عليه وسلم البيتين يوم القيامة ؛ وإني سمعته يقول : « عليكم بالأيثار فإنهن أعذب أفواها وأحسن أخلاقا وأنتقى أرحاما وإني مكاتبكم الأمم يوم القيامة » ، يعنى بقوله : « أنتقى أرحاما » أقبل للولد ؛ ويقال للراءة الكثيرة الولد ناتق ؛ لأنها ترمى بالأولاد رميا . ونخرج أبو داود بن معقل بن يسار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصهت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال « لا » ثم أتاه الثانية فنهاء ، ثم أتاه الثالثة فقال : « تزوجوا الودود الولود فإني مكاتبكم الأمم » . صححه أبو محمد عبد الحق وحسبك .

قوله تعالى : ( وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ) عاد الكلام إلى ما أقرحوا من الآيات - ما تقدم ذكره في هذه السورة - فانزل ذلك فهم ؛ وظاهر الكلام حظر معناه النفي ؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه . ( لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ) أى لكل أمر قضاء الله كتاب عند الله ؛ قاله الحسن . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، المعنى : لكل كتاب أجل ؛ قاله الفراء والضالك ؛ أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ، ووقت معلوم ، نظيره : لكل نأ مستقر ؛

يَنَ أن المراد ليس على اقتراب الأئم في نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب . وقيل : المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقدر لا تقف عليه الملائكة . وذكر الترمذي الحكيم في « نوادر الأصول » عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال : لما أرتقى موسى صلوات الله عليه وسلم طور سيناء رأى الجبار في أصبعه خاتماً، فقال : يا موسى ماهذا ؟ وهو أعلم به، قال : شيء من حُلِّ الرجال، قال : فهل عليه شيء من أسمائي مكتوب أو كلامي ؟ قال : لا، قال : فاكتب عليه « لكل أجل كتاب » .

قوله تعالى : **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ( **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ** ) أى يحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتى به « ويثبت » ما يشاء ؛ أى يؤخره إلى وقته ؛ يقال : محوت الكتاب محواً، أى أذهبت أثره . « ويثبت » أى ويثبتته، كقوله : « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات » أى والذاكرات الله .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وماصم « **وَيُثَبِّتُ** » بالتخفيف، وشند الباقون؛ وهى قراءة ابن عباس، واختار أبو جاتم وأبى عبيد لكثرة من قرأ بها؛ لقوله : « **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا** » . وقال ابن عمر : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ** » إلا السعادة والشقاوة والموت . وقال ابن عباس : يمحوا ما يشاء ويثبت إلا أشياء الخلق والخلق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة؛ وعنه : هما كتابان سوى أم الكتاب، يمحوا الله منهما ما يشاء ويثبت، ( **وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ) الذى لا يتغير منه شيء . قال القشيري : وقيل السعادة والشقاوة والخلق والخلق والرزق لا يتغير؛ فالآية فيها عدا هذه الأشياء؛ وفى هذا القول نوع تحكم .

قلت : مثل هذا لا يدرك بالآى والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقفاً، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة فى جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا

بروى معناه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبن مسعود وأبن وائل وكعب الأحبار وغيرهم .  
 وهو قول الكلبى . وعن أبى عثمان التهمذى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يطوف  
 بالبيت وهو يبكى ويقول : اللهم إن كنت كتبتنى فى أهل السعادة فائتبنى فيها ، وإن كنت  
 كتبتنى فى أهل الشقاوة والذنب فاعننى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة ، فإنك تحمى ما تشاء  
 وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كتبتنى فى السعداء فائتبنى  
 فيهم ، وإن كنت كتبتنى فى الأشقياء فاعننى من الأشقياء وأكتبنى فى السعداء ، فإنك تحمى  
 ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت  
 كتبتنا أشقياء فاعننا وأكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبتنا سعداء فائتبتنا ، فإنك تحمى ما تشاء  
 وتثبت وعندك أم الكتاب . وقال هب لعمر بن الخطاب : لولا آية فى كتاب الله لأبانتك  
 بما هو كائن إلى يوم القيامة : « يحب الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وقال مالك  
 ابن دينار فى المرأة التى دعا لها : اللهم إن كان فى بطنها جارية فأبلىا غلاما فإنك تحمى  
 ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقد تقدم فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : سمعت  
 النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ سَمِعَهُ أَنْ يُسْطَلَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي آثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » .  
 ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَحَبَّ » فذكره بلفظه  
 سواء ؛ وفيه تأويلان : أحدهما - معنى ، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر  
 الحسن ، والأجر المتكرر ، فكانه لم يمض . والآخر - يؤخر أجله المكتوب فى اللوح المحفوظ ؛  
 والذى فى علم الله ثابت لا يتبدل له ، كما قال : « يحب الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وقيل  
 لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ أَحَبَّ »  
 أن يمد الله فى عمره وأجله ويسط له فى رزقه فليصل الله وليصل رحمته . كيف يزداد فى العمر  
 والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجَلٌ  
 مُّسَمًّى عِنْدَهُ » . فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل

الثاني - يعني المسمى عنده - من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله ؛ فإذا أتى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء ، وإذا عصي وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء ، فيزيده في أجل البرزخ ؛ فإذا تحتم الأجل في علمه السابق أمتنع الزيادة والنقصان ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » فتوافق الخبر والآية ؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجل على ظاهر اللفظ ، في اختيار خبر الأئمة ، والله أعلم . وقال مجاهد : يُحكم الله أمر السنة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، إلا الحياة والموت ، والشقاء والسعادة ؛ وقد مضى القول فيه . وقال الضحاك : يحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب ؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس . وقال الكلبي : يحو من الرزق ويزيد فيه ، ويحو من الأجل ويزيد فيه ، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم سئل الكلبي عن هذه الآية فقال : يكتب القول كله ، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ؛ مثل قولك : أكلت وشربت ودخلت ونجرت ونحوه ، وهو صادق ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب . وقال قتادة وابن زيد وسعيد بن جبير : يحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله ، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب ؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس ؛ قال النحاس : وحدثنا بكر بن سهل ، قال حدثنا أبو صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس « يحو الله ما يشاء » يقول : يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه ، « ويثبت ما يشاء » فلا يبدله ، « وحده أم الكتاب » يقول : جملة ذلك عنده في أم الكتاب ، الناسخ والمنسوخ . وقال سعيد بن جبير أيضا : يغير ما يشاء - يعني - من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغيره . وقال عكرمة : يحو ما يشاء - يعني بالتوبة - جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات [ قال تعالى ] : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا » الآية . وقال

الحسن : « يحو الله ما يشاء » من جاء أجله « ويثبت » من لم يأت أجله . وقال الحسن  
يحو الآباء ، ويثبت الأبناء . وعنه أيضا : يُنمى الحَفَظَةُ من الذنوب ولا يُنسى . وقال  
السدي : « يحو الله ما يشاء » يعني : القمر « ويثبت » يعني : الشمس ؛ بيانه قوله :  
« قَحْوَنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » وقال الربيع بن أنس : هذا في الأرواح حالة  
النوم ؛ يقبضها عند النوم ، ثم إذا أراد موته بقاء أسكه ، ومن أراد بقاءه أثبتته وندم  
إلى صاحبه ؛ بيانه قوله : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا آيَةَ . وقال علي بن أبي طالب :  
يحو الله ما يشاء من القرون ، كقوله : « أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » ويثبت ما يشاء  
منها ، كقوله : « ثُمَّ أَثْبَتْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرْآنًا آخِرِينَ » فيمحو قرآنا ، ويثبت قرآنا . وقيل :  
هو الرجل يعمل الزمان الطويل بطاعة الله ، ثم يعمل بمعية الله فيموت على ضلاله ؛ فهو الذي  
يحسو ، والذي يثبت : الرجل يعمل بمعية الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من  
ديوان السيئات ، ويثبته في ديوان الحسنات ؛ ذكره التلميذ والمارودي عن ابن عباس .  
وقيل : يحو الله ما يشاء — يعني الدنيا — ويثبت الآخرة . وقال هيس بن عباد في اليوم  
العاشر من رجب : هو اليوم الذي يحو الله فيه ما يشاء ، ويثبت فيه ما يشاء ؛ وقد تخدم عز  
بجاهد أن ذلك يكون في رمضان . وقال ابن عباس : إن لله لوحا محفوظا مسيرة مائة عام ؛  
من دزة بيضاء ، لها دفتان من ياقوتة حمراء ، لله في كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة ؛ يثبت  
ما يشاء ويحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله  
صباحه يفتح الذكر في ثلاث ساعات يتقين من الليل فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد  
غيره فيثبت ما يشاء ويحو ما يشاء » . والعقيدة أنه لا تبدل لقضاء الله ؛ وهذا هو والإجلال  
كما سبق به القضاء ، وقد تخدم أن من القضاء ما يكون واقعا محتوما ، وهو الثابت ؛ ومنه  
ما يكون مصروفا بسبابه وهو المتحو ، والله أعلم . الفرزوي : وعنه أن ما في اللوح يخرج  
من الغيب لإحاطة بعض الملائكة ؛ فيحصل التبديل ؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله حال  
وما في علمه من تقدير الأشياء لا يتكلم . « وعنه أن الكتاب » أي أصل ما كتب من الآيات

وفيهما . وقيل : أم الكتاب اللوح المحفوظ الذي لا يتبدل ولا يغير . وقد قيل : إنه يجري فيه التبديل . وقيل : إنما يجري في الجرائد الأخر . وسئل ابن عباس عن أم الكتاب فقال : **عِلْمُ اللَّهِ مَا هُوَ خَالِقٌ ، وَمَا خَلَقَهُ عَامِلُونَ ؛ فَقَالَ لَعَلَّهُ : كُنْ كِتَابًا ، وَلَا تَبْدِيلَ فِي عِلْمِ اللَّهِ ، وَعِنَهُ لَهُ الذِّكْرُ ؛ دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ »** وهذا يرجع معناه إلى الأول ، وهو معنى قول كعب . قال كعب الأحبار : أم الكتاب **عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا خَلَقَ وَبِمَا هُوَ خَالِقٌ .**

قوله تعالى : **وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** ﴿١٠﴾ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَمْحُكُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴿١١﴾

قوله تعالى : **(وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ)** « ما » زائدة ، والتقدير : وإن **تُرِيدُكَ** بعض الذي نعدهم ، أي من العذاب ؛ لقوله : **« لَمْ نَكُ خَلْقُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »** وقوله : **« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ »** أي إن أريناك بعض ما وعدناهم **(أَوْ نَتُوفِينَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ)** فليس عليك إلا البلاغ ، أي التبليغ ؛ **(وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)** أي الجزاء والعقوبة .

قوله تعالى : **(أَوَلَمْ يَرَوْا)** يعني أهل مكة . **(أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ)** أي نقصدها . **(نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)** اختلف فيه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » موت حلساتها وصلحاتها . قال الشنيرى : وعلى هذا فالأطراف الأشراف ؛ وقد قال ابن الأعرابي : **الطَّرْفُ** والطَّرْفُ الرجل الكريم ؛ ولكن هذا القول بعيد ، لأن مقصود الآية : **أَنَّا أَرَيْنَاهُمْ النِّقْصَانَ فِي أُمُورِهِمْ ، لِيَعْلَمُوا أَن تَأْخِذَ الْعِقَابُ بِهِمْ لَيْسَ مِنْ عَجْزٍ ، لَا أَفْتٍ يَحْتَمِلُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى مَوْتِ أَحْيَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى .** وقال مجاهد أيضا

وقسادة والحسن : هو ما يَنْلَب عليه المسلمون مما في أبدى المشركين ؛ وروى ذلك عن  
 ابن عباس، وعنه أيضا هو خراب الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها؛ وعن مجاهد :  
 نقصانها خرابها وموت أهلها . وذكر وكيع بن الجراح عن طلحة بن عمار عن عطاء بن أبي رباح  
 في قول الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : ذهب فقهاها .  
 وخيار أهلها . قال أبو عمر بن عبد البر : قول عطاء في تأويل الآية حسن جدا ، تلقاه أهل  
 العلم بالقبول .

قلت : وحكاية المهدوي عن مجاهد وابن عمر ، وهذا نص القول الأول نفسه ؛ روى سليمان  
 عن منصور عن مجاهد « نَقُصُّهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : موت الفقهاء والعلماء ؛ ومعروف  
 في اللغة أن الطرف الكريم من كل شيء ؛ وهذا خلاف ما أرفضه أبو نصر عبد الرحيم بن  
 عبد الكريم من قول ابن عباس . وقال عكرمة والتيمي : هو نقصان وقبض الأنفس .  
 قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك<sup>(١)</sup> . وقال الآخر : لضاق عليك  
 حش<sup>٢</sup> تبرز فيه . وقيل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وهلاك أرضهم  
 بعدهم ، والمعنى : أَوَلَمْ تَرَ قريش هلاك من قبلهم ، وخراب أرضهم بعدهم ؟ ! أفلا يخافون أن  
 يحل بهم مثل ذلك ؛ وروى ذلك أيضا عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج . وعن ابن عباس  
 أيضا أنه قص بركات الأرض ونماؤها وأهلها . وقيل : قصها بجور ولاتها .

قلت : وهذا صحيح معنى ؛ فإن الجور والظلم يخرّب البلاد يقتل أهلها وأجلاهم عنها ،  
 وترفع من الأرض البركة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَاللَّهُ يَتَجَسَّسُ لِمَنْعَبٍ لِحُكْمِهِ ) أي ليس يتعقب حكمه أحد بتقص  
 ولا تغيير . ( وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ) أي الانتقام من الكافرين ؛ سريع التواب<sup>(٣)</sup> الذين  
 وقيل : لا يحتاج في حسابه إلى رواية قلب ، ولا عقد بيان ؛ حسب ما نظم في « البقرة »  
 بيانه .

قوله تعالى : وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتَسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴿٤٥﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ( وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ) أى من قبل مشركى مكة ، مكروا بالرسول وكادوا لهم وكفروا بهم . ( فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ) أى هو خالق له مكر المالكين ، فلا يضرك إلا بإذنه . وقيل : فقه غير المكر ، أى يمازهم به . ( يَعْلَمُ مَا تَكْتَسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ) من خير وشر ، فيجازى عليه . ( وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ ) كذا غرامة نافع وآين كثير وأبى عمرو . السابقون : « الكفار » على الجمع . وقيل : عني أبو جهل . ( لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ) أى عاقبة دار الدنيا ثوابا وعقابا ، أولئك الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعد .

قوله تعالى : ( وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ) قال قتادة : هم مشركو العرب ، أى لست بنبى ولا رسول ، وإنما أنت متقول ، أى لما لم ياتهم بما أقترحوا قالوا ذلك . ( قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ ) أى قل لم ياجد ، « كفى بالله » أى كفى الله ( شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ) بصدق وكذبكم . ( وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ) وهذا احتجاج على مشركى العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — فى التفسير . وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم ، وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وقيم الدارى والنجاشى وأصحابه ، قاله قتادة وسعيد بن جبير . وروى الترمذى عن ابن أبى عمير عبد الله بن سلام قال : لما أريد [ قتل ] عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال له عثمان : ما جاء بك ؟ قال : جئت فى نصرتك ، قال : أنرج إلى الناس فأطردهم عني ، لأنك خارج خيرلى من داخل ؟ شرح عبد الله بن سلام إلى الناس فقال له : لما الناس ، لأنه كان أسى فى الجاهلية فلان ، فمات

رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، ونزلت في آيات من كتاب الله؛ فنزلت في « وَشَهِدَ شَهِيدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ قَامَنَ وَاتَّكَبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » ونزلت في « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » الحديث . وقد كتبناه بكتابه في كتاب « التذكرة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير « ومن عنده علم الكتاب » ؟ قال : هو عبد الله بن سلام .

قلت : وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية وأبن سلام ما أسلم إلا بالمدينة ؟ ذكره الثعلبي . وقال القشيري : وقال ابن جبير السورة مكية وأبن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة ؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ابن سلام ؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل ؛ وهو قول ابن عباس . وقال الحسن ومجاهد والضحاك : هو الله تعالى ؛ وكانوا يقرءون « وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ » ويتكبرون على من يقول : هو عبد الله بن سلام وسلمان ؛ لأنهم يرون أن السورة مكية ، وهؤلاء أسلموا بالمدينة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ » وإن كان في الرواية ضعف ؛ وروى ذلك مسليان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وروى محبوب عن إسماعيل بن محمد اليماني أنه قرأ كذلك — « وَمِنْ عِنْدِهِ » بكسر الميم والعين والبدال « عِلْمُ الْكِتَابِ » بضم العين ورفع الكتاب . وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام فقال : إنما ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل : جميع المؤمنين ؛ والله أعلم . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما من قال إنه علي فعول على أحد وجهين ؛ إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك ؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه . ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » وهو حديث باطل ؛ النبي صلى الله عليه وسلم منجى علم وأعماله أيها ؛ فمنهم الباب المنفتح ، ومنهم التوسط ، على قدر منزلتهم في السلوك . وأما من قال

أهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يعلم الكتاب، ويدرك وجه إعجازه، ويسهد للنبي صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن . وأما من قال هو عبد الله بن سلام فعول على حديث الترمذى : « وليس يمنع أن ينزل في عبد الله بن سلام شيئا ويتناول جميع المؤمنين لفظا » ويرضاه من النظام أن قوله تعالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى قريشا؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفة النبوة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان . قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سلام وغيره يحتمل أيضا ؛ لأن البراهين إذا صححت وعرفها من قسرا الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تفسير سورة إبراهيم

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدينتين  
وقيل : ثلاث نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله وهي قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا  
نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا » إلى قوله : « فَأَنَّا مَصَرَّكُم إِلَى النَّارِ »

قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا » إلى قوله : « فَأَنَّا مَصَرَّكُم إِلَى النَّارِ »

إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ) ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ) أي بالكاتب ، وهو القرآن ، أي بدعائه إليه . ( مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النُّورِ ) أي من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم ، وهذا على التمثيل ، لأن الكفر بمنزلة الظلمة ، والإسلام بمنزلة النور . وقيل : من البدعة إلى السنة ، ومن الشك إلى اليقين ، والمعنى متقارب . ( بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ) أي بتوفيقه وإيادهم ولطفه بهم ، والباء في « بإذن ربهم » متعلقة بـ « يخرج » وأضيف الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعي والمنذر الهادي . ( إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ) هو كقولك : خرجت إلى زيد العاقل الفاضل من غير واء ، لأنهما شيء واحد ، ووقع هو العزيز الذي لا مثل له ولا شبه . وقيل : « العزيز » الذي لا يغلبه غالب . وقيل : « العزيز » المنيع في ملكه وسلطانه . « الحميد » أي المحمود بكل لسان ، والمجد في كل مكان على كل حال وروى يقيم عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعبس بن مريم ، وقوم كفروا به ، فلما مات محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعبس ، وكفر الذين آمنوا بعبس ، ففرقت هذه الآية ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ**  
**لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**  
**عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ**  
**بَعِيدٍ ﴿٢١﴾**

قوله تعالى : **( اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ )** أى ملكا وعبدا  
وأحقا وخفيا . وقرا نافع وآبن عامر وغيرهما « الله » بالرفع على الابتداء « الذى » خبره . وقيل :  
« الذى » صفة ، والخبر مضمرة أى الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض قادر على كل  
شئ . الباقون بالخفض نعتا للعزیز الحميد تقدم النعت على الموصوف كقولك « كقولك » صرحت  
بالظرف زيد . وقيل : على البدل من « الحميد » وليس صفة ؛ لأن اسم الله صار كالعلم  
فلا يوصف ؛ كما لا يوصف جريد وعمره . بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى ؛ لأن  
معناه أنه المفرد بقدره الإيجاد . وقال أبو عمرو : والخفض على التقديم والتأخير « مجازه »  
إلى صراط الله العزيز الحميد الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . وكان يعقوب إذا وقف  
على « الحميد » رفع ، وإذا وصل خفض على النعت . قال ابن الأنبارى : من خفض وقف  
على « وما فى الأرض » .

قوله تعالى : **( وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ )** قد تقدم معنى الويل فى « البقرة »  
وقال الزجاج : هى كلمة يقال للعذاب والمهلكة . « من عذاب شديد » أى فى جهنم .  
**( الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا )** أى يختارونها على الآخرة ، والكافرون يفعلون ذلك . « فالذين »  
فى موضع خفض صفة لهم . وقيل : فى موضع رفع خبر ابتداء مضمرة أى هم الذين .  
وقيل : « الذين يصحبون » مبتدأ وخبر « أولئك » . وكل من آثر الدنيا وزهرتها ، واستحب

البقاء في نعيمها على النعم في الآخرة، وصد عن سبيل الله - أي صرف الناس عنه وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره - فهو تامل في هذه الآية؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون" وهو حديث صحيح، وما أكثر ما هم في هذه الأزمان، والله للستمان. وقيل: «يستحبون» أي يلتصقون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تلمس إلا بطاعته دون معصيته. (وَيَقُولُهَا عِوَجًا) أي يطلبون لها زينا وميلا لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم. والسبيل تذكر وتؤثت. واليوح بكسر العين في الدين والأمر والأرض، وفي كل ما لم يكن قائما؛ وبفتح العين في كل ما كان قائما، كالحائط والرُخ ونحوه؛ وقد تقدم في «آل عمران» وغيرها. (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) أي ذهب عن الحق بعيد عنه.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①

قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ) أي قبلك يا عبد (إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ) له بلغتهم ليبينوا لهم أمر دينهم؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة؛ فعلى أسم جنس يقع على القليل والكثير؛ ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة يفهمها لزمت الترجمة؛ وقد قال الله تعالى: «وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا». وقال صلى الله عليه وسلم: «أُرْسِلَ كُلُّ نَبِيٍّ إِلَى أُمَّتِهِ بِلِسَانِهَا وَأَرْسَلَنِي اللَّهُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ مِنْ خَلْقِهِ». وقال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». خرجه مسلم، وقد تقدم. (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) رد على القدرة في نفوذ المشيئة، وهو مستأنف، وليس معطوف على

« ليين » لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا الإضلال . ويمحوز النصب في « يضل » لأن الإرسال صار سببا للإضلال ؛ فيكون كقوله : « لِيَكُونَ لَكُمْ عُدُوًّا وَحَرًّا » وإنما صار الإرسال سببا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم ؛ فصار كأنه سبب لكفرهم . ( وهو ) العزيز الحكيم تقدم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَرِكُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ) أى بحجتنا وبراهيننا ؛ أى بالمعجزات الدالة على صدقه . قال مجاهد : هى التسع الآيات . ( أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ) نظيره قوله تعالى لنينا عليه السلام أول السورة : « لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » . وقيل : « أَنْ » هنا بمعنى أى ، كقوله تعالى : « وَأَنْطَلِقَ الْأُمَلَاءُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا » أى أَمْشُوا .

قوله تعالى : ( وَذَرِكُمْ بِآيَاتِنَا ) أى قل لهم قولاً يتذكرون به أيام الله تعالى . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : بنعم الله عليهم ؛ وقاله أبى بن كعب ورواه مرفوعاً ؛ أى بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن آتية ، إلى سائر النعم ؛ وقد تسمى النعم بالأيام ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم ،

• وَأَيَّامٍ لِنَسْأُفِرَ طَوَالِ •

- (١) الآيات التسع هى : الطرقات والجراد والقمل والضفادع والدم والصبا ويده والسنين ونقص من الثمرات .  
(٢) البيت من معقده وتامه :

• حصينا الملك فيما أن حديثنا •

وقد يكون تمثيلاً غرضاً لمعلوم على الملك واستنابهم منه ، فأيامهم غير لهم ، وطوال على أعدائهم ؛ وعليه فلا دليل على أن الأيام بمعنى النعم . وأيام بالجر صطف على (أَيَّامٍ) فى البيت قبله ، ويمحوز أن تجمل الواو فلا من ريب .

وعن ابن عباس أيضا ومقاتل : بوقائع الله في الأيام السابقة ؛ يقال فلان عالم بآيام  
لعروب ، أى بوقائعها . قال ابن زيد : معنى الأيام التى انتقم فيها من الأمم الظالمة ؛ وكذلك  
روى ابن وهب عن مالك قال : بلاؤه . وقال الطبري : وعظهم بما سلف في الأيام  
الماضية لهم ؛ أى بما كان في أيام الله من النعمة والحنة ؛ وقد كانوا عبيدا مستذلين ؛  
واكتفى يذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس  
عن أبي بن كعب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بيننا موسى عليه  
السلام في قومه يُذكرهم بآيام الله وآيام الله بلاؤه ونعماه " وذكر حديث المنصور ؛ وذلك  
هنا على جواز الوعظ المرقق للقلوب ، المقسوى لليقين ، الخالى من كل بدعة ، والمتره عن  
كل ضلالة وشبهة . ( إن في ذلك ) أى في التذكير بآيام الله ( لآيات ) أى دلالات .  
( لكل صبار ) أى كثير الصبر على طاعة الله ، وعن معاصيه . ( شكور ) لنعم الله . وقال  
قتادة : هو العبد ، إذا أعطى شكر ، وإذا أتى صبر . وروى عن النبي صلى الله عليه  
وسلم أنه قال : " الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر - ثم تلا هذه الآية -  
" إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور " . ونحوه عن الشعبي موقوفا . وتوارى الحسن  
البصري عن التجأ سبغ ستين ، فلما بلغه موته قال : اللهم قد أمته فأمت ستمه ، وجهه  
شكرا ، وقرأ " إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور " . وإنما خص بالآيات كل صبار  
شكور لأنه يتبر بها ولا ينفل عنها ؛ كما قال : " إنا أنتم منذر من يمشاها " وإن كان  
منذرا للجميع .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ  
أَنْجَلَكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ  
نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٦ وَإِذْ تَادَذَّنْ رَبُّكُمْ لَئِنْ  
شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ تقدم في « البقرة » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ قيل : هو من قول موسى لقومه . وقيل : هو من قول الله أى وأذكركم يا محمد إذ قال ربك كذا . و « تَأَذَّنَ » وأَذَّن بمعنى أعلم ، مثل أُوْعِدَ وتَوَعَّدَ . روى معنى ذلك عن الحسن وغيره . ومنه الأذنان ، لأنه إعلام ، قال الشاعر :

فَلَمْ تَسْمَعْ بِضَوْءِ الصَّبَاحِ حَتَّى • مِمِّعِنَا فِي مَجَالِسِنَا الْأَذْيَانَا

وكان ابن مسعود يقرأ « وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ » والمعنى واحد . ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أى لئن شكرتم إنصاي لأزيدنكم من فضلى . الحسن : لئن شكرتم نعمتى لأزيدنكم من طاعتي . ابن عباس : لئن وَحَدَّثْتُمْ وَأَطَعْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ من الثواب ، والمعنى متقارب في هذه الأقوال ، والآية قص في أن الشكر سبب المزيد ، وقد تقدم في « البقرة » ما للعلماء في معنى الشكر . وسئل بعض الصالحين عن الشكر فقال : أَلَا تَتَقَوَّى بِنِعْمَةٍ عَلَى مَعَاصِيهِ . وحكى عن داود عليه السلام أنه قال : أى رب كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة مجدة منك على . قال : يا داود الآن شكرتنى .

قلت : لحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للنعم ، وألا يصرفها في غير طاعته ، وأنشد الهادى وهو يا كل :

أَنَا لَكَ رِزْقُهُ لَتَقُومَ فِيهِ • بِطَاعَتِهِ وَشُكْرِهِ بِمَعْصِيَتِهِ

فَلَمْ تَشْكُرْ لِنِعْمَتِهِ وَلَكِنْ • أَقْوَيْتَ عَلَى مَعَاصِيهِ بِرِزْقِهِ

فقص بالقصة ، وخفته العبرة . وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فأنه ب الزيد . ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ أى بمحمد حق . وقيل : نعمى ؛ وعد بالعذاب على الكفر ، كما وعد بالزيادة على الشكر ، وحذفت الفاء التى في جواب الشرط من « إن » للشبهة .

(١) راجع ج ١ ص ٢٤١ وما بعدها طبع ثانية أرفألة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٧١ وما بعدها

بطلت ثانية .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تُكْفَرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا  
فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ  
وَعَادُ وَثَمُودُ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمُ  
بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي الْأُفُوهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا لَدِينُنَا  
وَإِنَّا لَنَافِي شَرِكٌ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تُكْفَرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ )  
أى لا يلحقه بذلك قصص ، بل هو الغنى . والحديد أى الحمود .

قوله تعالى : ( أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودُ ) لها انهم ، واجمع  
الأنبياء ، قال :  
﴿ ١١ ﴾

• أَلَمْ يَأْتِكُمْ وَالْأَنْبِيَاءُ تَتَّبِعُوا •

ثم قيل : هو من قول موسى . وقيل : من قول الله . أى وأذكر يا محمد إذا قالوا لك كذا ،  
وقيل : هو ابتداء خطاب من الله تعالى . وشعر قوم نوح واد وحمود مشهور قصة الله  
في كتابه . وقوله : ( وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ) أى لا يحصى منهم إلا الله .  
ولا يعرف نسبهم إلا الله ، والنسبون وإن نسبوا إلى آدم فلا يذعن إحصاء جميع  
الأنم ، وإنما ينسبون البعض ، ويمسكون عن نسب البعض ، وقد روى عن النبي صلى الله  
عليه وسلم لما سمع النساين ينسبون إلى معد بن عدنان ثم قادوا فقال : « كتب النساوية  
إن الله يقول : لا يعلمهم إلا الله » . وقد روى عن ضررة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا  
أجدا يعرف ما بين عدنان وإسماعيل . وقال ابن عباس : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون

(١) فكانت هو : نبي بن زهير ، وقام البيت : • ما لا ترون بن زياد • • • • •

وحسبها على القرني تشرى • بأدراج وأسياف حذاء

ويزيد : الريح بن زياد وإخوته أخذتهم درما فاستاق فيس إلى الريح لكه وأصابه الله في جهنم  
وهو مراد بالقرني — بنو جهمير .

لَا لَا يَمْرُقُونَ . وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ حِينَ يقرأ « لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ » : كَذَبَ النَّسَابُونَ .  
 (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ) أَيْ بِالْحُجُجِ وَالْدَّلَالَاتِ . (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ) أَيْ جَعَلَ  
 أُولَئِكَ الْقَوْمَ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ لِيَمَضُّوا عَضًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُلُ ؛ إِذْ كَانَ فِيهِ تَسْفِيهِ  
 أَحْلَامَهُمْ ، وَشَمَّ أَصْنَافَهُمْ ؛ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَمِثْلُهُ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ ، وَقَرَأَ « عَضُوا  
 صُلْبَكُمْ الْأَيْمَانُ مِنَ الْقَيْظِ » . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمَّا تَمَمُوا كِتَابَ اللَّهِ عَجَبُوا وَرَجَعُوا بِأَيْدِيهِمْ  
 إِلَى أَفْوَاهِهِمْ . وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ : كَانُوا إِذَا قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ أَشَارُوا بِأَصَابِعِهِمْ  
 إِلَى أَفْوَاهِهِمْ : أَيْنَ أَصَبْتُ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ »  
 وَالضَّمِيرُ الْكَفَّارُ ؛ وَقَالَ الْأَوَّلُ أَصْحَابُهَا إِسْنَادًا ؛ قَالَ أَبُو عِيْدٍ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ  
 عَنْ مَيْمَانَ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ »  
 قَالَ عَضُوا عَلَيْهَا غِيظًا ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

مَلَأَتْ سَلَمَى أَبْصَرْتُ تَحْدِيدِي ٢١٧ وَدَقَّةً فِي عَظِيمٍ سَاقِي وَيَدِي  
 وَبَعْدَ أَهْبَلٍ وَجَفَاءَ عُوْدِي ٢١٨ عَضْتُ مِنَ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ

وَقَدْ مَضَى هَذَا الْمَعْنَى فِي « آلِ عِمْرَانَ » بِجُودِهَا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . وَقَالَ بِجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ : رَدُّوا عَلَى الرَّسْلِ  
 قَوْلَهُمْ وَكَذَّبُوهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ؛ فَالضَّمِيرُ الْأَوَّلُ لِلرَّسْلِ ، وَالثَّانِي لِلْكَفَّارِ . وَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ :  
 جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِ الرَّسْلِ رَدًّا لِقَوْلِهِمْ ؛ فَالضَّمِيرُ الْأَوَّلُ عَلَى هَذَا لِلْكَفَّارِ ، وَالثَّانِي لِلرَّسْلِ .  
 وَقِيلَ مَعْنَاهُ : أَوَامُوا لِلرَّسْلِ أَنْ يَسْكُتُوا . وَقَالَ مِقَاتِلٌ : أَخَذُوا أَيْدِيَ الرَّسْلِ وَوَضَعُوهَا  
 عَلَى أَفْوَاهِ الرَّسْلِ لِيَسْكُتُوا وَيَقْطَعُوا كَلَامَهُمْ . وَقِيلَ : رَدُّ الرَّسْلِ أَيْدِيَ الْقَوْمِ فِي أَفْوَاهِهِمْ .  
 وَقِيلَ : لِأَنَّ الْأَيْدِيَ هُنَا النَّبِيُّ ؛ أَيْ رَدُّوا نَبِيَّ الرَّسْلِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، أَيْ بِالطَّلَقِ وَالتَّكْذِيبِ ؛ وَجِيءَ  
 بِالرَّسْلِ بِالشَّرَائِعِ نَبِيٍّ ؛ وَالْمَعْنَى : كَذَّبُوا بِأَفْوَاهِهِمْ مَا جَاءَتْ بِهِ الرَّسْلُ . وَ « فِي » بِمَعْنَى الْبَاءِ ؛  
 وَشَأَلَهُ : جَلَسَتْ فِي الْبَيْتِ وَالْبَيْتُ ، وَحُرُوفُ الصِّفَاتِ يَقَامُ بَعْضُهَا مَقَامَ بَعْضٍ . وَقَالَ  
 أَبُو حَيْسَةَ : هُوَ ضَرْبٌ مِثْلُ « أَيْ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُجِيبُوا » ؛ وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَمْسَكَ عَنْ

للبواب وسكت قد رذيله فيه؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال القتيبي : لم نسمع أحدا من العرب يقول : رذيله فيه إذا ترك ما أمر به ، وإنما للمنى : حضوا على الأيدي حقا وغيظا ، لقول الشاعر :

تَرْدُونَ فِي فِيهِ غُضَّ الْحَسُو • دِ حَتَّى يَعْضَّ عَلَى الْأَكْفِ

إيعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفبه . وقال آخر :

قَدْ أَقْبَى أَنَايِلَهُ أَرْزَمَهُ • فَاضْطَى يَعْضُّ عَلَى الرُّطْبَى

وقالوا : — معنى الأثم للرسول — ( إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ) أى بالإرسال من زعمكم ، لا أنهم أفتروا أنهم أرسلوا . ( وَإِنَّا لَنُفِي شَكٍّ ) أى فى ريب ومريبة . ( بِمَا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ) من التوحيد . ( مُرِيبٌ ) أى موجب للريبة ، يقال : أربته إذ فعلت أمرا أوجب ريبة وشكًا ، أى فظن أنكم تطلبون الملك والدنيا .

قوله تعالى : قَالَتْ رُسُلُهُمْ إِنِّي اللَّهُ شَكَ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤْتِيَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ  
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا  
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ( قَالَتْ رُسُلُهُمْ إِنِّي اللَّهُ شَكَ ) استغفاهم معناه الإنكار ، أى لا شك فى الله  
أى فى توحيده ؛ قاله قتادة . وقيل : فى طاعته . ويحتمل وجهًا ثالثًا : أى قدرة الله شك ؟  
لأنهم متفقون عليها وخطفون فيما ملأها ؛ يدل عليه قوله : ( فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ )  
خالقها ومخرعها وملئها ؛ وموجدتها بعد العدم ؛ لئنه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له .  
( يَدْعُوكُمْ ) أى إلى طاعته بالرسول والكتب . ( لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ) قال أبو عبيد  
« من » زائدة . وقال سيويه : هى للتبعيض ؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع .

( ١٥ ) أَرَزَمَ : عَضَّ ؛ وَلِطْفَ لِكُلِّ ذِي أَرْجٍ ؛ مَا فَوْقَ الرِّجْلِ إِلَى فَجْلِ الْفَرْجِ .

وقيل : « من » للبلى وليست بزاينة ولا مَبْعُضَة ؛ أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب .  
 ( وَيُؤْتِيكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ) يعنى الموت ، فلا يعذبكم فى الدنيا . ( قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ ) أى ما  
 أنتم . ( إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ) فى الهيئة والصورة ؛ نأكلون مما نأكل ، وتشربون مما تشرب ،  
 ولستم ملائكة . ( تُرِيدُونَ أَنْ تَصْطَلُّوا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ) من الأصنام والأوثان .  
 ( فَأَتَوْنَا يُسْلَطَانِ يُبَيِّنُ ) أى بحجة ظاهرة ؛ وكان هذا محالا منهم ؛ فإن الرسل ما دعوا إلا  
 ومعهم المعجزات .

قوله تعالى : قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ  
 يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ  
 إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ  
 عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا مَسَلًّا وَلْتَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ  
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ( قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ) أى فى الصورة والهيئة كما قلتم .  
 ( وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ) أى يتفضل عليه بالنبوة . وقيل : بالتوفيق والحكمة  
 والمعرفة والهداية . وقال سهل بن عبد الله : بتلاوة القرآن وفهم ما فيه .

قلت : وهذا قول حسن ؛ وقد نرجح الطبرى من حديث ابن عمر قال قلت لأبى ذر : يا عمر  
 لو صنى ؛ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال : « ما من يوم ولا ليلة  
 ولا ساعة إلا وقفة فيه صدقة يقر بها على من يشاء من عباده وما من الله تعالى على عباده بمثل أن  
 يلوهم ذكرا . » ( وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ ) أى بحجة وآية ( إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ) أى بمشيئته ،  
 وليس ذلك فى قدرتنا ؛ أى لا نستطيع أن نأتى بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته ؛ فلفظه لفظ  
 الخبر ، ومعناه النفى ، لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه . ( وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ )  
 ( رَفَعْنَا صَوْلَاتَهُ )

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا لَا تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ « ما » استفهام في موضع رفع بالابتداء ،  
 و « لنا » الخبر ، وما بعدها في موضع الحال ؛ التقدير : أى شئ لنا في ترك التوكل على الله .  
 ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ أى الطريق الذى يوصل إلى رحمته ، وينجى من خطئه ونقمته .  
 ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ ﴾ لام قسم ؛ مجازة : والله لنصبرن ﴿ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ به ، أى من الإهانة والضرب ،  
 والتكذيب والقتل ، ثقة بالله أنه يكفينا ويشينا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا  
 أَوْ لَتَعُوْدَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٦٦﴾  
 وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٦٧﴾  
 قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ اللام لام قسم ، أى والله  
 لنخرجنكم . ﴿ أَوْ لَتَعُوْدَنَّ ﴾ أى حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا ؛ قاله الطبري وغيره . قال ابن  
 العربي : وهو غير مقتدر إلى هذا التقدير ؛ فإن « أو » على بابها من التخيير ؛ خير الكفار الرسل  
 بين أن يعودوا في ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم ؛ وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده ؛ ألا ترى  
 إلى قوله : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا .  
 سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ وقد تقدم هذا المعنى في « الأعراف » وغيرها . ( في مِلَّتِنَا )  
 أى إلى ديننا ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أى مقامه بين يدي يوم القيامة ؛  
 فاضيف المصدر إلى الفاعل . والمقام مصدر كالقيام ؛ يقال : قام قياما ومقاما ؛ وأضاف ذلك  
 إليه لاختصاصه به . والمقام بفتح الميم مكان الإقامة ، وبالضم فعل الإقامة ؛ و « ذلك لمن  
 خاف مقامي » أى قياي عليه ، ومرافقته له ؛ قال الله تعالى : « أَفَنُحْيِي قَوْمًا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ  
 عِمَّا كَسَبَتْ » . وقال الأخفش : « ذلك لمن خاف مقامي » أى عذابي ، « وخاف وعيد »  
 أى القرآن وزواجره . وقيل : إنه العذاب . والوعيد الاسم من الوعد .

قوله **سك** : **وَكُنْتُمْ تَحْرَا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٧﴾** مِنْ قَدَائِهِ  
 جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٨﴾ يَجْرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسْغَرُ وَيَأْتِيهِ  
 الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : **(وَأَسْتَفْتَحُوا)** أى وأسْتَنْصَرُوا؛ أى أئذِنَ للرسل فى الاستفتاح على قومهم ،  
 واللداء بهلاكمهم ؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد مضى فى « البقرة » . ومنه الحديث : إن النبي  
 صلى الله عليه وسلم كان يَسْتَفْتَحُ بصمالك المهاجرين ، أى يَسْتَنْصِرُ . وقال ابن زيد : استفتحت  
 الأئم بالدماء كما قالت قريش : «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ حَيْدِكَ» الآية ؛ ودوى  
 عن ابن عباس . وقيل قال الرسول : «إنهم كذبوني فاقنع ببنى وبينهم قتلاً» وقالت الأمم :  
 «إِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ صَادِقِينَ فَسَلِّبْنَا» من ابن عباس أيضاً ؛ نظيره «أَتَيْنَا بِهَذَا إِلَهٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ  
 الصَّادِقِينَ» «أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» . **(وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)** الجبار  
 المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقاً ؛ هكذا هو عند أهل اللغة ، ذكره النحاس . والعنيد المعاند  
 للحق والمجانِب له ، عن ابن عباس وغيره ؛ يقال : عَنَدَ من قومه أى تباعد عنهم . وقيل ؛  
 هو من السَّند ، وهو الناحية وعاند فلان أى أخذ فى ناحية مُرَضًا ؛ قال الشاعر :  
 إِنْ زِلْتُ فَأَجْعَلُونِي وَسَطًا ه . إِنْ كَبُرْتُ لَا أُطِيقُ الْعُنْدَا

وقال الخمروى قوله تعالى : «جبار عنيد» أى جائر عن القصد ؛ وهو العنود والعنيد والمعاند ؛  
 وفى حديث ابن عباس وسئل عن المستحاضة فقال : إنه عِرْقُ عَائِدٍ . قال أبو حنيفة : هو  
 الذى مَدَّ وَبَنَى كالإنسان بعائِدٍ ؛ فهذا العِرْقُ فى كثرة ما يخرج منه بمنزلة . وقال شمر : المعاند  
 الذى لا يرفأ . وقال عمر بن عبد العزيز : أَسَمُ الْعُنُودِ ؛ قال الليث : العنود من الإبل الذى  
 لا يخالطها إنما هو فى ناحية أبداً ؛ أراد من هم بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفُ به إليها .  
 وقال مقاتل : العنيد المتكبر . وقال ابن كيسان : هو الشاخ بأقعه . وقيل : العنود والعنيد الذى

يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها ؛ تقول العسرب : شر الإبل العنود  
الذى يخرج عن الطريق . وقيل : العنيد العاصى . وقال قتادة : العنيد الذى أى أن يقول  
لا إله إلا الله .

قلت : والجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد ، وإن كان اللفظ مختلفا ، وكل متباعد عن  
الحق جبار وعنيد أى متكبر . وقيل : إن المراد به فى الآية أبو جهل ، ذكره المهدوى .  
وحكى الماوردى فى كتاب « أدب الدنيا والدين » أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك قاتل  
يوما فى المصحف ففرج له قوله عز وجل : « وأسفتحوا وخاب كل جبار عنيد » فزق  
المصحف وأنشأ يقول :

أَتَوَعَّدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ • فَمَا أَنَا ذَاكَ جَبَّارٌ عَنِيدُ

إِذَا مَا جِئْتُ رَبِّكَ يَوْمَ حَشِيرٍ • فَقُلْ يَا رَبِّ مَرْفُوعِي الْوَلِيدُ

فلم يلبث أياما حتى قُتل شر قتلة ، وصُلب رأسه على قصره ، ثم على سور بلده .

قوله تعالى : ( مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ) أى من وراء ذلك الكافر جهنم ، أى من بعد هلاكه .

وراء بمعنى بعد ، قال الثابتة :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً • وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلشَّرِّ مَدْهَبُ

أى بعد الله جل جلاله ، وكذلك قوله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى من بعده ،

وقوله تعالى : « وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ » أى بما سواه ؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيد : بما

بعده . وقيل : « من ورأيه » أى من أمامه ، ومنه قول الشاعر :

وَمِنْ وَرَائِكَ يَوْمٌ أَنْتَ بِاللَّهِ • لَا حَاضِرٌ مُعِجَزٌ عَنْهُ وَلَا بَادِي

وقال آخر :

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَهْمِي وَطَاعَتِي • وَقَوْمِي تَهْمِي وَالصَّلَاةُ وَرَائِي

وقال ليلى :

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ [تَرَأَخْتُ] مَيْتِي • لَزُومُ الْمَصَامِحِيِّ طَبِيبِ الْأَصَابِعِ

(١) كذا فى ديوانه ، وفى الأصل : « إن بلغت مئتي » .

يريد لعلي . وفي التثنية : « كَانَ قَوْمٌ مَلِكٌ » أى امامهم ؛ وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو علي قُطْرُب وغيرهما . وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من ورائك ، أى سوف يأتيك ، وأنا من وراء فلان أى في طلبه وسأصل إليه . وقال النحاس : في قوله « مِنْ رِأْيِهِ جَهَنَّمُ » أى من أمامه ، وليس من الأضداد ولكنه من تَوَارَى ؛ أى آستر . وقال الأزهري : إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد ، وقاله أبو عبيدة أيضا ، واشتقاقهما مما توارى واستتر ، بفهم تَوَارَى ولا تظهر ، فصارت من وراء لأنها لا ترى ؛ حكاه ابن الأنباري وهو حسن .

قوله تعالى : ﴿ وَنُسِقَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أى من ماء مثل الصديد ، كما يقال للرجل الشجاع أسد ، أى مثل الأسد ؛ وهو تمثيل وتشبيه . وقيل : هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم . وقال محمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس : هو غَسَّالَةُ أهل النار ، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزواني . وقيل : هو من ماء كرهته تصد عنه ، فيكون الصديد مأخوذا من الصد . وذكر ابن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة عن النبي صل الله عليه وسلم في قوله « وَنُسِقَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يَجْعَرُهُ » قال : « يَقْرَبُ إِلَى فِيهِ فَيَكْرَهُهُ فَإِذَا أَدْنَى مِنْهُ شَوَى وَجْهِهِ وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ يَقُولُ اللَّهُ « وَسَقُوا مَاءً حَيًّا فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ » وَيَقُولُ « وَإِنْ يَسْتَنِيشُوا يَأْتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ يَلْسُ الشَّرَابُ » » أخرجه الترمذي ، وقال : حديث غريب ؛ وعبيد الله بن بسر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبي أمامة لعله أن يكون أخا عبد الله ابن بسر . ( يَجْعَرُهُ ) أى يَحْتَسَّاهُ جرعا لا مرة واحدة لمرارته وحرارته . ( وَلَا يَكَادُ يَسِيغُهُ ) أى يتلهمه ؛ يقال : جرع الماء وأجرعه وتجعره بمعنى . وساغ الشراب في الخاق يسوغ سَوَاغا إذا كان سلسا سهلا ، وأساغه الله إِسَاغَةً . و « يَكَادُ » صلة ؛ أى يسيفه بعد إبطاء ، قال الله تعالى : « وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » أى فعلوا بعد إبطاء ؛ ولهذا قال : « يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ » فهذا يدل على الإساعة . وقال ابن عباس : لا يميزه ولا يمر به . ( وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ )

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ) قال ابن عباس : أى يأتية أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحتة ومن قدامه وخلفه ، كقوله : « لَهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » . وقال إبراهيم التيمي : يأتية من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره ، إلا لآلام التى فى كل مكان من جسده . وقال الضحاك : إنه لياتية الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجله . وقال الأخفش : يعنى البلى التى تصيب الكافر فى النار سماها موتا ، وهى من أعظم الموت . وقيل : إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وُكِّلَ به نوع من العذاب ؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها فى فرد لحظة ؛ إما حية تنشه ، أو عقرب تلسه <sup>(١)</sup> ، أو نار تسفه ، أو قيد برجله ، أو غُلٌّ فى عنقه ، أو سلسلة يقرن بها ، أو تابوت يكون فيه ، أو زقوم أو حميم ، أو غير ذلك من العذاب . وقال محمد بن كعب : إذا دعا الكافر فى جهنم بالشراب فرآه مات موتات ، فإذا دنا منه مات موتات ، فإذا شرب منه مات موتات ؛ فذلك قوله : « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » . قال الضحاك : لا يموت فيستريح . وقال ابن جريج : تعلق رُوحه فى حنجرته فلا يخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتسفه الحياة ؛ ونظيره قوله : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » . وقيل : يخاق الله فى جسده ألا ما كل واحد منها كالم الموت . وقيل : « وما هو بميت » لتناول شدائد الموت به ، وأمتداد سكراته عليه ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابه .

قلت : ويظهر من هذا أنه يموت ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « وَلَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » وبذلك وردت السنة ؛ فأحوال الكفار أحوال من استولى عليه سكرات الموت دائما ، والله أعلم . ( وَمِنْ وَرَائِهِ ) أى من أمامه . ( عَذَابٌ غَلِيظٌ ) أى شديد متواصل الآلام من غير قنور ؛ ومنه قوله : « وَلَيَجِدُنَا فِيكُمْ غَلَظَةً » أى شدة وقوة . وقال فضيل بن عياض فى قول الله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » قال : حسب الإقناس .

قوله تعالى : مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ  
الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ  
الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَسْأَلْ  
يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ( مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ) اختلاف النحويون في رفع «مثل»  
فقال سيبويه : أرفع بالابتداء والخبر مضمرة التقدير : وفيما يتلى عليكم أو يُقَصُّ «مَثَلُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» ثم ابتداء فقال : «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ» أى كمثل رماد ( اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ) . وقال  
الزجاج : أى مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالهم كرماد ، وهو عند الفراء على إلغاء المثل «  
التقدير : والذين كفروا بربههم أعمالهم كرماد ، وعنه أيضا أنه على حذف مضاف ؛ التقدير :  
مثل أعمال الذين كفروا بربههم كرماد ، وذكر الأول عنه المهدوى ، والثاني القشيري والتعلي .  
ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال : صفة فلان اسماء «فمثل» بمعنى صفة . ويجوز في الكلام  
جر «أعمالهم» على بدل الاشتغال من «الذين» وأتصل هذا بقوله : «وَحَاقَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيْدٌ»  
والمنى : أعمالهم مُحِطَةٌ غير مقبولة . والرماد ما بقى بعد احتراق الشيء ؛ فنضرب الله هذه الآية  
مثلا لأعمال الكفار في أنه يحققها كما تحقق الرِّيحُ الشديدة الرماد في يوم عاصف . والعصف  
شدة الرِّيح ، وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى . وفي وصف اليوم بالعُصُوف  
ثلاثة أقاويل : أحدها - أن العُصُوف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به ؛ لأن الرِّيح  
تكون فيه ، بخلاف أن يقال : يوم عاصف ، كما يقال : يوم حار و يوم بارد ، والبرد والحز فيها .  
والثاني - أن يريد «في يوم عاصف» الرِّيح ؛ لأنها ذكرت في أول الكلمة ، كما قال الشاعر ،  
• إذا جاء يومٌ مُظِلُّ الشَّمْسِ كاسِف •

يريد كاسف الشمس لحذف ؛ لأنه قد مر ذكره ، ذكرهما المروى . والثالث - أنه من  
نبت الرِّيح ؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إضرابه كما قيل : جُحْرُ ضَبٍّ حَرِيبٌ ، ذكره

العلوي والموردى . وقرأ ابن إسحق وإبراهيم بن أبي بكر « في يوم ماضيه » . (لَا يَسْتَدْرُونَ)   
 يعنى الكفار . (يَا كَسِبُوا عَلَىٰ نَفْسِهِ) يريد في الآخرة ؛ أى من ثواب ما عملوا من البر   
 في الدنيا ، لإحباطه بالكفر . (ذَلِكَ هُوَ أَضَلُّ أَلْيَدٍ) أى الخسران الكبير ؛ وإنما   
 جعله كبيراً بعيداً لفوات استدراكه بالمت .

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) الرؤية هنا رؤية   
 القلب ؛ لأن المعنى : ألم يته علمك إليه . وقرأ حمزة والكسائي - « خَالِقُ السَّمَوَاتِ   
 وَالْأَرْضِ » . ومعنى « بالحق » ليستدل بهما على قدرته . (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ) أي الناس ؛   
 أى هو قادر على الإبقاء كما قدر على إيجاد الأشياء ؛ فلا تقصوه فإنكم إن مصيروه بذهبكم   
 (وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) أفضل وأطوع منكم ؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة في الإبداله .   
 (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) أى منيع متعذر .

قوله تعالى : وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتَوُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا   
 كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَبَلَّغْنَا عَنْكُم مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا   
 لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنَ   
 نَحِيصٍ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ   
 الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ مَّسْطَرٍ إِلَّا أَنْ   
 دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنفُسُكُمْ مَا آتَاكُمْ بِمُصْرِحِكُمْ   
 وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِئِي إِلَى كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ   
 لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٧﴾

(١) هذه الآية ينادى فيها الله تعالى بالضعفاء والذين استكبروا

وعلى الضعفاء .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أى برزوا من قبورهم ، يعنى يوم القيامة . والبروز الظهور ، والبراز المبان الواسع لظهوره ؛ ومنه امرأة برزة أى تظهر للناس ؛ فعنى « برزوا » ظهوروا من قبورهم . وجاء بلفظ الماضى ومعناه الاستقبال ، وأتصل هذا بقوله : « وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » أى وقاربوا لما استفتحوا فاهلكوا ، ثم بعثوا للحساب فبرزوا لله جميعا لا يستترهم عنه ستر . « لِلَّهِ » لأجل أمر الله إياهم بالبروز . ﴿ فَقَالَ الضُّمَمَاءُ ﴾ يعنى الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَا ﴾ يجوز أن يكون تبع مصدر ؛ التقدير : ذوى تبع . ويجوز أن يكون بجمع تابع ؛ مثل حارس وحرس ، وخادم وخدم ، وراصد ورصد ، وباقر وبقر . ﴿ قُلْ أَنْتُمْ مُنْتَوُونَ ﴾ أى دافعون عنا ﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئا ، و « مِنْ » صلة ؛ يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا واصل إليه النفع . ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ ﴾ أى لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه . وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل : لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ هذا ابتداء خبره « أجزعنا » أى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أى من مهرب وملجأ . ويجوز أن يكون بمعنى المصدر ، وبمعنى الاسم ؛ يقال : حاص فلان عن كذا أى فز وزاع يحيص حيصا وحيوصا وحيصانا ؛ والمعنى : ما لنا وجه نقابده عن النار . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول أهل النار إذا اشتد بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون نحملة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هلم فلنجزع فيجزعون ويصيحون نحملة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » . وقال محمد بن كعب القرظى : « ذكر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون ، فلهنم فلنصبر ؛ فلعن الصبرينفعا كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا ؛ فاجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا ، فطال صبرهم فجزعوا ، فنادوا : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » أى منجى ، فقام إبليس عند ذلك فقال : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَالْحَقِّقِ

وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي  
وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ يَقول: لست بمخبر عنكم شيئا «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ  
بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ» الحديث بطوله، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة» بكالاه .

قوله تعالى : ( وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ) قال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة  
خطيبا في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلاق جميعا . ومعنى «لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» أي حُصِّل  
أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، على ما يأتي بيانه في «مرهم» عليها السلام .  
(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ) يعني البعث والجنة والنار ونواب المطيع وغاب العاصي  
فصدقكم وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتمكم .  
وروى ابن المبارك من حديث عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث  
الشفاعة قال : «فيقول عيسى أدلكم على النبي الأئمة فيأتون فيأذن الله لي أن أقوم فيثبته  
مجلس من أطيب ریح ثمها أحد حتى آتي ربي فيشفعني ويحصل لي نورا من شمر راسي  
إلى ظفر قدمي ثم يقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون  
ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنا  
فإنك أضللتنا فيثور مجلسه من أنثر ریح ثمها أحد ثم يعظم نحيبهم ويقول عند ذلك : «إِنَّ اللَّهَ  
وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ» الآية . «وعد الحق» هو إضافة الشيء إلى نفسه كقولهم  
مسجد الجامع، قال القراء قال البصريون : وعدكم وعد اليوم الحق أو وعدكم وعد الوعد الحق  
فصدقكم ؛ لحذف المصدر لدلالة الحال . (وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ) أي من جهة وحياتي  
أي ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزينه لكم في الدنيا (إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجِبْتُمْ لِي)  
أي أغويتكم فتابتموني . وقيل : لم أقهركم على ما دعوتكم إليه . «إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ» هو  
استثناء منقطع، أي لكن دعوتكم بالوسواس فاستجبتم لي باختياركم «فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْمُوا  
أَنْفُسَكُمْ» . وقيل : «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» أي كل قلوبكم موضوعة لإيمانكم لكن

دموكم فاستجبت لي ؛ وهذا على أنه خَطَبَ العاصيَ المؤمنَ والكافرَ الجاحدَ ؛ وفيه نظر لقوله :  
 « لما قضى الأمر » فإنه يدل على أنه خَطَبَ الكفارَ دونَ العاصينَ الموحدين ؛ والله أعلم .  
 ( فَلَا تُلْمُوْنِي وَلَوْ أَنِّي نَفْسُ كَرٍّ ) إذا جئتموني من غير حجة . ( مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ) أي  
 بمنيتكم . ( وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ) أي بميتي . والصراخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة  
 والمعاونة ، والمُصْرِخُ هو المُنِيث . قال سلامة بن جندل :

كنا إذا ما أنا صاريخٌ فَنَزِعُ • كَانَ الصراخُ له قَرَعَ القَلْبَ يَبِ  
 نكال أمية بن أبي الصلت :

ولا تجزوا إلى لكم مُصْرِخ • وليس لكم عندي غناء ولا نصر  
 يقال : صَرَخَ فلان أي استغاث بصَرَخٍ صَرَخًا وصَرَخًا وصَرَخَةً . وأصطرخ بمعنى صَرَخَ .  
 والتصرخ تكلف الصراخ . والمُصْرِخُ المُنِيث ، والمستصرخ المستغيث ؛ تقول منه : استصرخني  
 لأصرخته . والصريخ صوت المستصرخ . والصريخ أيضا الصراخ ، وهو المنيث والمستغيث ،  
 وهو من الأضداد ؛ قاله الجوهري . وقراءة العامة « بِمُصْرِخِي » بفتح الياء . وقرأ الأعشى  
 وحمزة « بِمُصْرِخِي » بكسر الياء . والأصل فيها بمصرخين فذهبت النون للإضافة ، وأدغمت  
 ياء الجماع في ياء الإضافة ، فن نصب فلاجل التضعيف ، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها  
 تعين فيها الفتح مثل : هَوَايَ وعَصَايَ ، فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان ، مثل : غَلَايِي  
 وغلَاتي ، ومن كسر فالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر ، لأن الياء أخت الكسرة . وقال  
 الفراء : قراءة حمزة ومم منه ، وقُلْ من سلم منهم عن خطأ . وقال الزجاج : هذه قراءة رديئة  
 ولا وجه لها إلا وجه ضعيف . وقال قُطْرُبٌ : هذه لغة بني يَرْبُوعَ يزيدون على ياء الإضافة  
 ياء . القشيري : والذي يعني عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم  
 لا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيح أو ودي ، بل هو في القرآن فصيح ، وفيه ما هو أفصح  
 منه ، قلل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حمزة أفصح . ( إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي )

(١) الظاهر (هم) عبيد • وهو حرف الساقط من عدم . وخرج القشيري أن قرأه الرجل (ظهير)  
 (٢) أي من هؤلاء .

مِنْ قَبْلُ) اى كفرت باشراككم اياى مع الله تعالى فى الطاعة؛ فـ «ما» بمعنى المصنوع .  
وقال ابن جريج : انى كفرت اليوم بما كنتم تدعونى فى الدنيا من الشرك بالله تعالى . قتادة ؛  
انى عصيت الله . الثورى : كفرت بطاعتكم اياى فى الدنيا . ( اِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .  
وفى هذه الآيات ردّ على القدرية والمعتلة والإمامية ومن كان على طريقهم ؛ أنظر الى قول  
التبويصين : «لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ» وقول ايليس : « اِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَهُ الْحَقُّ » كيف  
باعترفوا بالحق فى صفات الله تعالى وهم فى دركات النار ؛ كما قال فى موضع آخر : « كَلَّمَآ اَنَّى  
اَشْيَا تَوَجَّ سَأَلْتُهُمْ نَزَّهَتْهَا » الى قوله : « فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ » واعترافهم فى دركات لظى بالحق  
ليس بنافع ؛ وإنما ينفع الاعتراف صاحبها فى الدنيا ؛ قال الله عز وجل : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا  
بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرًا سَيِّئًا صَسَى اللَّهُ اَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » و «صسى» من الله واجبة .

قوله تعالى : وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : ( وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ) اى فى جنات لأن دخلت  
لا يتعدى ؛ كما لا يتعدى تقيضه وهو خرجت ، ولا يقاس عليه ؛ قاله المهدوى . ولما أخبر  
تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة أيضا . وقراءة الجماعة « أُدْخِلَ » على أنه فعل  
مبنى للفعول . وقرأ الحسن « وَأَدْخِلَ » على الاستقبال والاستئناف . ( بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ) اى  
بأمره . وقيل : بمشيئته وتيسيره . وقال : « بإذن ربهم » ولم يقل : بإذن تعظيما وتفخيما .  
( تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ) تقدم فى « يونس » . والحمد لله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ  
أُضْلِلَهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٢٧﴾ تُوَفَّى أَكْلُهَا كُلُّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا  
وَيُضْرَبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٨﴾

فيه مستلثان :

الأول - قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ لما ذكر تعالى مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، ذكر مثل أقوال المؤمنين وغيرها ، ثم فسر ذلك المثل فقال : ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ التمر ، خفف لدلالة الكلام عليه . قال ابن عباس : الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن . وقال مجاهد وابن جرير : الكلمة الطيبة الإيمان . عطية العوفي والزيغ بن أنس : هي المؤمن نفسه . وقال مجاهد أيضا وعكرمة : الشجرة النخلة ؛ فيجوز أن يكون المعنى : أصل الكلمة في قلب المؤمن - وهو الإيمان - شبهه بالنخلة في المنية ، وشبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة ، وثواب الله له بالتمر . وروى من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن مثل الإيمان كمثل شجرة نابتة الإيمان مروقها والصلاة أصلها والزكاة فروعها والصيام أغصانها والتأذى في الله نباتها وحسن الخلق ورقها والكف عن محارم الله ثمرتها " . ويجوز أن يكون المعنى : أصل النخلة ثابت في الأرض ؛ أي مروقها تصرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها ، فهي زاكية تامة . وخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك قال : أتني رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه يقناع فيه رطب ، فقال : " مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفروعها في السماء قوتى أكلها كل حين بإذن ربها " . قال - هي النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أجثت من فوق الأرض ما لها من قرار - قال - هي الخنثال . وروى عن أنس قوله [ وقال ] : وهو أصح . وخرج الترمذي عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدرون ما هي " فوقع في نفسي أنها النخلة . قال السهلي : ولا يصح فيها ما روى عن علي بن أبي طالب أنها جوزة الهند ؛ كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر " إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي - ثم قال - هي النخلة " . ترجمه مالك في « الموطأ » عن رواية ابن القاسم وغيره إلا يحيى فإنه أمقطه من روايته . وخرجه أهل الصحيح وزاد (١) النخاع ، الطبق الذي تركي . (٢) لم يال الترمذي ، وخرجت في « الموطأ » .

فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوى رحلة؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وعى النخلة لا تسقط لها أغصان وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة" فين معنى الحديث والمثال.

قلت: وذكر الغزوي عنه عليه السلام "مثل المؤمن كالنخلة إن صاحبته فعلك وإن جالسته فعلك وإن شاورته فعلك كالنخلة كل شيء منها يتفجع به". وقال: "كلوا من نعمكم" يعنى النخلة خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام، وكذلك أنها برأسها تبقى، وبقليها تحيا، وغمرها بامتراج الله كالأشجار. وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبهت به؛ وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها يستمر وذابت أصلا؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتفاح لأنها لا تحمل حتى تلقح قال النبي صلى الله عليه وسلم: "خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة". والإبار اللقاح وسياق في سورة «الحجر» بيانه. ولأنها من فضلة طينة آدم. ويقال: إن الله عز وجل لما صور آدم من الطين فصلت قطعة طين فصورها بيده وغرسها في جنة عدن. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أكرموا نعمكم" قالوا: ومن نعمنا يا رسول الله؟ قال: "النخلة". (تؤتى أكلها كل حين) قاله الربيع: "كل حين" غدوة وعشية كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس: وعنه «تؤتى أكلها كل حين» قال: هو شجرة الهند لا تستعمل من ثمرة، تحمل في كل شهر، ثمرة عمل المؤمن لله عز وجل في كل وقت بالنخلة التي تؤتى أكلها في أوقات مختلفة. وقال الفضالك: كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها. قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة، لأن الطين حده جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأشد الأصحى بيت النافذة. تتأذرها الرافون من سوء ممتها. تطلقه حيناً وحيناً تراجع<sup>(١)</sup>

(١) كذا في الأصل. (٢) السكة: الطريقة المضطحة من التل، والمراد بالسكة السكة الكبيرة والسيارة والتاج؛ أراد غير المال نتاج أوزوع. (٣) في تفسير قوله تعالى: «وأما الشجر فإبراهيم آت» ٥٧. (٤) البيت في وصف حية؛ و«تأذرها الزمان» أي أئدت عليهم بعض الأبرياء. (٥) معنى ذلك حية وحيناً تراجع؛ أنها تحض الأرواح من السلام لأداء صلاة تشبه طين. مرعى: حية حية حية لا تحب الأرق لا أنها مع؛ للرقم؛ أسمع من حية.

فهذا بين لك أن الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابت في قلب المؤمن، وعمله وقوله  
 وتوسيعه عالي مرتفع في السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما  
 ينال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها، من الرطب والبسر والبلح والزهو<sup>(١)</sup> والتمر والطلع .  
 وفي رواية عن ابن عباس: إن الشجرة الطيبة شجرة في الجنة تمر في كل وقت، و«مثلا» مفعول  
 «يضرِب» ، «وكلمة» بدل منه، والكاف في قوله : «كشجرة» في موضع نصب على  
 الحال من «كلمة» التقدير : كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة .

الثانية - قوله تعالى : ( تَزْنِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ ) لما كانت الأشجار تؤتي أكلها  
 كل سنة مرة كان في ذلك بيان حكم الحين ؛ ولهذا قلنا : من حلف ألا يكلم فلانا حيناً ولا يقول  
 كذا حيناً إن الحين سنة . وقد ورد الحين في موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى ،  
 « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ » قيل في «التفسير» : أربعمائة عامه وحكي عكرمة  
 أن رجلاً قال : إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حرٌّ، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله ،  
 فسألني عنها فقلت : إن من الحين حيناً لا يدرك ، قوله : « وَإِنْ أَذْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنَاعٌ  
 لَّي حِينٍ » فإني أنعمك ما بين صرام النخلة إلى حملها فكانه أعجبه ؛ وهو قول أبي حنيفة  
 في الحين أنه سنة أشهر اتباعاً لعكرمة وغيره . وقد مضى ما للعلاء في الحين في «البقرة»<sup>(٢)</sup>  
 صحتوق الحمد لله . ( وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ) أي الأشباه للناس . ( لَّيْلَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ )  
 ويعتبرون ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ اجْتَنَّتْ مِن قَوْرِ  
 الْأَرْضِ مَالَهَا مِن قَرَارٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ( وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ ) الكلمة الخبيثة كلمة الكفر . وقيل :  
 الكافر نفسه . والشجرة الخبيثة شجرة الحنظل كما في حديث أنس وهو قول ابن عباس وبجاءه

(١) الزهو : البسر القوي . (٢) قوله سنة : من قطع لها . (٣) تابع ١٦  
 ٣٢١ ما بعدها ٢٦ لم ٢٨١ .

إذا كان « القرطبي » سيجلد في مجلد واحد لتتبع هذه الورقة

مكتبة دار الكتب  
٩٢ شارع قصر العيني  
١٩٩٩

كتاب الشعب

# تفسير القرآن العظيم

الجامع لأحكام القرآن  
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

خبركم من علم القرآن وعلمته  
محدث شريف



إذا كان « القوي » سيظل في مجلد واحد فتتبع هذه الورقة

وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا أنها شجرة لم تخلق على الأرض . وقيل : هي شجرة التوم؛  
عن ابن عباس أيضا . وقيل : الكَّأَة أو الطَّعْبَة . وقيل : الكَشُوث، وهي شجرة لا ورق  
لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر :

• وَهُمْ كَشُوثٌ فَلَا أَصْلَ وَلَا وَرَقَ <sup>(١)</sup> •

( أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ) أَقْلَعَتْ مِنْ أَصْلِهَا؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لقيط <sup>(٢)</sup>:

هو الجلاء الذي يَحْتَتُّ أَصْلَهُ • فن رأى مثل ذا يوما ومن سَمِعَا

وقال الموزج : أخذت جثتها وهي نفسها ، والجثة شخص الإنسان قاعدا أو قائما . وجثته  
قلعه ، وأجثته اقتلعه من فوق الأرض ؛ أى ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من  
الأرض . ( مَا كَانَ مِنْ قَرَارٍ ) أى من أصل في الأرض . وقيل : من ثبات ؛ فكذلك الكافر  
لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه ، وما يصمد له قول طيب ولا عمل صالح . وروى معاوية  
ابن صالح عن علي بن أبي طلعة في قوله تعالى « وضرب الله مثلا كلمة طيبة » قال : لا إله إلا الله  
« كشجرة طيبة » قال : المؤمن ؛ « أصاها ثابت » لا إله إلا الله ثابتة في قلب المؤمن ؛  
« ومثل كلمة خبيثة » قال : الشرك ، « كشجرة خبيثة » قال : المشرك ؛ « أجثنت من فوق  
الأرض ما لها من قرار » أى ليس للشرك أصل يعمل عليه . وقيل : يرجع المثل إلى الدعاء  
إلى الإيمان والدعاء إلى الشرك ؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشيء .

وله تعالى : **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** <sup>(٣)</sup>

فوله تعالى : ( **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ** ) قال ابن عباس : هو  
لا إله إلا الله . وروى النسائي عن البراء قال قال : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت

(١) تمامه :

• ولا نسيم ولا ظل ولا تمر •

يريد أنهم لا حسب لهم ولا نسب . (٢) هو لقيط بن معمر الإيادي ، واليت من قصيدة بث بها إلى قومه  
بجندهم كسرى وجيشه ؛ فلم يلتفتوا إلى قوله « فظفر بهم كسرى وعزمهم » .

في الحياة الدنيا وفي الآخرة» نزلت في عذاب القبر؟ يقال : من ربك ؟ فيقول : ربّي الله  
وديني دين محمد ، فذلك قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا  
وفي الآخرة » .

قلت : وقد جاء هكذا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء [ أنه ] قوله ، والصحيح  
فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم عن البراء عن النبي  
صلى الله عليه وسلم ؛ وذكر البخاري ، حدثنا جعفر بن عمر ، قال حدثنا شعبة عن علقمة بن  
مرثد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا  
أقعد المؤمن في قبره أتته ثم ينهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله « يثبت  
الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . وقد بنا هذا الباب في كتاب  
« التذكرة » وبيننا هناك من يقفن في قبره ويُسأل ، فمن أراد الوقوف عليه تأمله هناك . وقال  
صهل بن عمار : رأيت يزيد بن هرون في المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال :  
أتاني في قبري ملكان فظان غليظان ، فقالا : ما دينك ومن ربك ومن نبيك ؟ فأخذت  
بلحيتي البيضاء وقلت : المثلئ يقال هذا وقد صلت الناس جوابك ثمانين سنة ؟ ! فذهبا  
وقالا : أكتبته عن حريز بن عثمان ؟ قلت نعم ! فقالا : إنه كان يفض [ علياً ] فأنفضه  
الله . وقيل : معنى « يثبت الله » يديمهم الله على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن رواحة :  
يُثَبِّتُ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ \* تَلَيَّتْ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصْرًا

وقيل : يثبتهم في الدارين جزاء لهم على القول الثابت . وقال القفال وجماعة : « في الحياة  
الدنيا » أي في القبر ؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يبعثوا « وفي الآخرة » أي عند الحساب بما  
وحكاه الماوردي عن البراء قال : المراد بالحياة الدنيا المسألة في القبر ، وبالآخرة  
المسألة في القيامة : ( وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ) أي عن حجتهم في قبورهم كما ضلوا في الدنيا

(١) أي قول البراء . (٢) في الأصل « عيان » ومنه في كتاب « التذكرة » للزبيدي . والله  
في تهليل التهذيب « أنه كان يفض علياً » .

بكفرهم فلا يلقنهم كلمة الحق ، فإذا سُئلوا في قبورهم قالوا : لا ندرى ، فيقول : لا دريت ولا تليت ، وعند ذلك يضرب بالمقاييع على ما ثبت في الأخبار ، وقد ذكرنا ذلك في كتاب « التذكرة » . وقيل : يمهلهم حتى يزدادوا ضلالا في الدنيا . ( وَيَقُولُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ) من عذاب قوم وإضلال قوم . وقيل : إن سبب نزول هذه الآية ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف مساءلة مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ وما يكون من جواب الميت قال عمر : يا رسول الله أليكون معي عقل ؟ قال : " نعم " قال : كُفِّتُ إِذَا ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿١٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ أَلْقَرَارُ ﴿١٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتُّعُوا فَإِن مَّصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ) أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بعثه الله منهم وفهم فكفروا ، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم ، عن ابن عباس وعلى وغيرهما . وقيل : نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر . قال أبو الطفيل : سمعت عليا رضى الله عنه يقول : هم قريش الذين يُحْمَرُونَ يوم بدر . وقيل : نزلت في الأَجْرِينَ من قريش بنى مخزوم وبني أمية ، فأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين ، وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بدر ، قاله علي بن أبي طالب وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما . وقول رابع : أنهم متنصرون العرب جيلة بن الأسيهم وأصحابه حين لطم بفعل له عمر القصاص بمثلها ، فلم يرض وأُيْنِفَ فأرْتَدَ مُنْتَصِرًا وُلِّقَ بِالرُّومِ في جماعة من قومه ، عن ابن عباس وقتادة . ولما صار إلى بلد الروم ندم فقال :

(١) قيل في معنى « ولا تليت » : ولا تلوت ، أى لا قرأت ، من تلا يتلو ، وقالوا تليت بالياء ليعاكب بها الياء في دريت . (٢) المقامع : سياط من حديد رومها موصلة .

تَنَصَّرَتِ الْأَشْرَافُ مِنْ عَارِ لَطْمَةٍ • وَمَا كَانَ فِيهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا صَرَرٌ  
تَكْتَفِي مِنْهَا بِلُحَايٍ وَغَفْوَةٍ • وَبِعْتُ لَهَا الْعَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوَرِ  
فِيالْبَتَى أَرَى الْخَاصَّ بِسِلْدَةٍ • وَلَمْ أَنْكَرِ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ عُمَرُ

وقال الحسن : إنها عامة في جميع المشركين . ( وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ ) أي أنزلوهم . قال  
ابن عباس : هم قادة المشركين يوم بدر أسلوا قومهم ؛ أي الذين أتبعوهم . ( دَارُ الْبَوَارِ )  
قبل : جهنم ؛ قاله ابن زيد . وقيل : يوم بدر ؛ قاله علي بن أبي طالب ومجاهد . والبوار  
المهلك ؛ ومنه قول الشاعر :

فَلَمْ أَرْ مِثْلَهُمْ أَبْطَالَ حَرْبٍ • غَدَاةَ الْحَرْبِ إِذْ خِيفَ الْبَوَارُ

( جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ) بين أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد ، وعلى هذا لا يجوز الوقف  
على « دار البوار » ؛ لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن « دار البوار » فلورفعها رافع بإضماره ،  
على معنى : هي جهنم ، أو بما عاد من الضمير في « يصلونها » لحسن الوقف على « دار البوار » .  
( وَرَأَى الْقَرَارَ ) أي المستقر . قوله تعالى : ( وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَتْنَادًا ) أي أصناما عبدوها ؛  
وقد تقدم في « البقرة » . ( لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ) أي عن دينه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو  
بفتح الباء ، وكذلك في الج « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » ومثله في « لقمان » و « الزمر » وضمها  
الباقون على معنى يضلوا الناس عن سبيله ، وأما من فتح فعل معنى أنهم هم يضلون عن سبيل الله  
على اللزوم ، أي عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ؛ فهذه لام العاقبة . ( قُلْ تَتَّبِعُوا ) وعيد لهم ،  
وهو إشارة إلى تحليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع . ( فَإِنْ مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ )  
أي مبرءكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم .

قوله تعالى : قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا  
مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا) أى إن أهل مكة بدّلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقّق عبوديته أن (يُقيمُوا الصَّلَاةَ) يعنى الصلوات الخمس، أى قل لهم أقيموا. والأمر معه شرط مقدّر، هـول : أطلع الله يَدْخُلُك الجنة؛ أى إن أطلعت يَدْخُلُك الجنة؛ هذا قول الفراء . وقال الزجاج : « يقيموا » مجزوم بمعنى الآم ، أى لقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دلّ على الغائب بـ « قل » . قال ويحتمل أن يقال : « يقيموا » جواب أمر مخوف؛ أى قل لهم أقيموا الصلاة بقموا الصلاة . (وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) يعنى الزكاة؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الجوهري : السرّ ما خفى والعلانية ما ظهر . وقال الفاسم ابن يحيى : إن السرّ التطوع والعلانية الفرض، وقد مضى هذا المعنى في « البقرة »<sup>(١)</sup> مجزّدا عند قوله : « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ » . (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ) تقدم في « البقرة »<sup>(٢)</sup> أيضا . و « خلال » جمع خُلَّة كقُلَّة وقِلال . قال :

« فَلَسْتُ بِمَقْلٍ الْخِلَالِ وَلَا قَالِي »

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْتَاج بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَّكَ وَخَرَجَ لَكَ الْفُلُك لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَخَرَجَ لَكَ الْأَنْهَارُ ۝ وَخَرَجَ لَكَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَاسِينَ وَخَرَجَ لَكَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ۝ وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝

قوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) أى أبدعها واحترعها على غير مثال سبق . (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) أى من السحاب . (فَأَنْتَاج بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ) أى من الشجر

(١) راجع ج ٢ ص ٣٢٢ وما بعدها طبعه أول أو ثانية . (٢) راجع ج ٢ ص ٢٦٦ وما بعدها طبعه أول أو ثانية . (٣) قاله امرؤ القيس، ومعلوليت :

• صرحت الهوى ضيق من خشية إلهي •

ثمرات (رِزْقًا لَكُمْ) . ( وَتَحْتَ لَكُمْ الْفُلُكُ لِيَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ) تقدم معناه في «البقرة» .  
 ( وَتَحْتَ لَكُمْ الْإِنهَارُ ) يعنى البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وترعوا ، والبحار المسالحة  
 لاختلاف المنافع من الجبهات . ( وَتَحْتَ لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِينَ ) أى فى إصلاح  
 ما يصلحان من النبات وغيره ، والدُّؤوب مرود الشيء فى العمل على عادة جارية . وقيل :  
 دائين فى السير امتثالا لأمر الله ، والمعنى يجرى إلى يوم القيامة لا يفتران ؛ روى معناه عن  
 ابن عباس . ( وَتَحْتَ لَكُمْ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ) أى لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا من فضله فى النهار ،  
 كما قال : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » .

قوله تعالى : ( وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ) أى أعطاكم من كل مسؤل سألتموه شيئا ؛  
 مخفف ، عن الأخفش . وقيل : المعنى وأتاكم من كل ما سألتموه ، ومن كل ما لم تسألوه ،  
 مخفف ، فلم يسأله شيئا ولا قرأ ولا كثيرا من نعمه التى ابتدأنا بها . وهذا كما قال :  
 « سَرَّابِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ » على ما يأتى . وقيل : « مِنْ » زائدة ؛ أى أتاكم كل ما سألتموه .  
 وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما « وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ » بالتثنية « مَا سَأَلْتُمُوهُ » وقد رويت  
 هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقادة ؛ هى على النفى أى من كل ما لم تسألوه ؛ كالشمس  
 والقمر وغيرهما . وقيل : من كل شيء ما سألتموه أى الذى سألتموه . ( وَإِنْ تَعْلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ )  
 أى نعم الله لا تحصى ولا تطيقوا عذها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسمع والبصر وتقويم  
 الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق ؛ وهذه النعم من الله ، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر ؟  
 وهلا أستمتم بها على الطاعة ؟ ! ( إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ) الإنسان لفظ جنس وأراد به  
 الخصوص ؛ قال ابن عباس : أراد أبا جهل . وقيل : جميع الكفار .

قوله تعالى : ( وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي  
 وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنْ الْنَّاسِ فَمَنْ  
 تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

قوله تعالى : ( وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ) يعنى مكة وقد مضى في « البقرة » . ( وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ) أى اجعلنى جانباً عن عبادتها، وأراد بقوله : « بختى » بنيه من صلبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنماً . وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعوله . وقرأ الجحدري وعيسى « وَأَجْنِبْنِي » بقطع الألف والمعنى واحد ؛ يقال : جَنَّبْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ ؛ وَأَجْنَبْتُهُ وَجَنَّبْتُهُ إِيَّاهُ فَجَنَّبْتُهُ وَأَجْنَبْتُهُ أَيْ تَرَكْتُهُ . وكان إبراهيم التيمي يقول في قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول : « وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » كما عبدها أبى وقوى .

قوله تعالى : ( رَبِّ إِنِّي أَضَلَّتُ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ) لما كانت سبباً للإضلال أضاف الفعل اليه مجازاً؛ فإن الأصنام جمادات لا تفعل . ( فَمَنْ تَبِعَنِي ) في التوحيد . ( فَإِنَّهُ مِنِّي ) أى من أهل ديني . ( وَمَنْ عَصَانِي ) أى أصر على الشرك . ( فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ) قيل : قال هذا قبل أن يعرفه الله أن الله لا يفر أن يشرك به . وقيل : غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت . وقال مقاتل بن حيان : « وَمَنْ عَصَانِي » فيها دون الشرك .

قوله تعالى : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — روى البخاري عن ابن عباس : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل؛ اتخذت منطقاً لتعني أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس

(١) راجع ج ٤ ص ١١٧ وما بعدها طبعه ثانية . (٢) المنطق : النطاق وهو أن تلبس المرأة

توبها ثم تشد وسطها بشيء، وترفع وسط توبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال فلا تعثر في ذليها .

بها ماء، فوضعهما هناك، ووضع عندهما جرأاً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيمُ  
منطلقاً فبحث أم إسماعيل، فقالت : يا إبراهيم ! أين تذهب وتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه  
إنس ولا شيء، قالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له : الله أمرك بهذا؟  
قال : نعم . قالت إذا لا يُضيِّعنا؟ ثم رجعت، فأطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث  
لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال : « رَبِّ إِنِّى  
أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ » حتى بلغ « يَشْكُرُونَ » وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل  
وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا تقدموا فى السقاء عطشت وعطش أبناها، وجعلت تنظر  
إليه يتلوى - أو قال يتلبط <sup>(١)</sup> - فأطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفاء أقرب  
جبل فى الأرض إليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً،  
فهيضت من الصفاء، حتى إذا بلغت الوادى، رفعت طرفَ درعها، ثم سعت سعى الإنسان  
المجهود، ثم جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحداً فلم تر  
أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فذلك سعى  
الناس بينهما » فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صيد ! تريد نفسها، ثم تسمعت  
فسمعت أيضاً فقالت : قد أسمع إن كان عندك غوث ! فإذا هى بالملك عند موضع زمزم  
فبحث بعقبه - أو قال يبحاه - حتى ظهر الماء، فجعلت تُخوضه وتقول بيدها هكذا،  
وجعلت تفر من الماء فى سقاتها وهو يفور بعد ما تعرف؛ قال ابن عباس قال النبي  
صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال لو لم تفر من  
الماء - لكأنت زمزم عيناً معيناً » قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك :  
لا تخافى الضبعة فإن هاهنا بيت الله ينهى هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وذكر  
الحديث بطوله .

(١) يتلبط : يتسرع .  
وقد روى بالضم والكسر .  
المنمل . (تسلاطى) .  
(٢) غوث (بالفتح) كالغياث (بالكسر) من الإغاثة رعى الإغاثة .  
(٣) « وتقول بيدها هذا » : هو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على

مسئلة - لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرض مغيبة أنكلا على العزيز الرحيم ، وأقتداء بفعل إبراهيم الخليل ، كما تحوله غلاة الصوفية في حقيقة التوكل ، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله في الحديث : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . وقد روى أن سارة لما غارت من هاجر بعد أن ولدت لإسماعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة ، فروى أنه ركب البراق هو وهاجر والطفل بخاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة ، وترك أبنته وأمتة هنالك وركب منصرفا من يومه ، فكان ذلك كله يوحى من الله تعالى ، فلما ولي دعا بضمين هذه الآية .

الثانية - لما أراد الله تأسيس الحال ، وتمهيد المقام ، وخطه الموضع للبيت المكرم ، والبلد المحرم ، أرسل الملك فَبَحَثَ عن الماء ، وأقامه مقام الغذاء ، وفي الصحيح أن أبا ذر رضي الله عنه أجترأ به ثلاثين من يوم وليلة ، قال أبو ذر : ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسميت حتى تكسرت عُكْنِي ، وما أجد حل كبدي تخففة جوع ، وذكر الحديث <sup>(١)</sup> . وروى الدارقطني عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماء زمزم لما شرب له إن شربته تشفى به شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله به وإن شربته لقطع ظمئك قطعه وهي حزمة جبريل وسقيا الله إسماعيل " . وروى أيضا عن عكرمة قال كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال : اللهم إني أسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا ، وشفاء من كل داء . قال ابن العربي : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحت نيته ، وسامت طويته ، ولم يكن به مكذبا ، ولا يشربه مجربا ، فإن الله مع المتوكلين ، وهو يفضح الخبثين . وقال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي وحديث أبي رحمه الله قال : دخلت الطواف في ليلة ظلماء فأخذني من البول ما شغلني ، فجعلت أعتصر حتى آذاني ، وخفت إن خرجت من المسجد أن أظا بعض تلك الأقدام ، وذلك أيام الحج ، فذكرت هذا الحديث ، فدخلت زمزم فتصلت منه ، فذهب عني إلى الصباح . وروى عن عبد الله بن عمرو : وإن في زمزم عينا في الجنة من قبل الركن .

(١) مسئلة الجوع : ربه وعزاه . (٢) حزمة جبريل : أي ضربا يربه نبع الماء .

(٢) معلق : أكثر من الشرب حتى يملأ بطنه واشتائه .

الثالثة - قوله تعالى : ( وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ) « مِنْ » في قوله تعالى : « مِنْ ذُرِّيَّتِي »  
للتبويض أى أسكنت بعض ذريتي ؛ يعنى إسماعيل وأمه ، لأن إسمحق كان بالشام . وقيل :  
هى صلة ؛ أى أسكنت ذريتي .

الرابعة - قوله تعالى : ( عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَامِ ) يدل على أن البيت كان قديما على ما روى  
قيل الطوفان ، وقد مضى هذا المعنى في سورة « البقرة » . وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه  
غيره ، ووصفه بأنه محرم ، أى يحرم فيه ما يستباح في غيره من جماع وأستحلال . وقيل :  
محرم على الجبارة ، وأن تُهتِك حرمة ، ويستخف بمحقه ؛ قاله قتادة وغيره . وقد مضى القول  
في هذا في « السائلة » .

الخامسة - قوله تعالى : ( رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ) خَصَّهَا من جملة الذين لفضلها  
فيه ، ومكانها منه ، وهى عهد الله عند العباد ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « خمس صلوات كتبتن  
الله على العباد » الحديث . واللام في « ليقموا الصلاة » لام كي ؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون  
متعلقة بـ « أسكنت » ويصح أن تكون لام أمر ، كأنه رَغِب إلى الله أن يوفقههم لإقامة  
الصلاة .

السادسة - تَضَمَّت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن  
معنى « رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقموا الصلاة فيه . وقد  
اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فذهب عامة  
أهل الأثر إلى أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول صلى الله  
عليه وسلم بمائة صلاة ، وأحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير قال قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : « صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد  
الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدى هذا بمائة صلاة » قال الإمام  
الحافظ أبو عمر : وأستد هذا الحديث حبيب المعلم عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله

(١) راجع ج ٢ ص ١٢٠ وما بعدها طبع ثانية . (٢) راجع ج ٦ ص ٢٢٥ طبع أولى أو ثانية .

ابن الزبير وجوده ، ولم يخلط في لفظه ولا في معناه ، وكان ثقة . قال ابن أبي حنيفة سمعت  
يحيى بن معين يقول : حبيب المعلم ثقة . وذكر عبد الله بن أحمد قال سمعت أبي يقول :  
حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثه . وسئل أبو زرعة الرازي عن حبيب المعلم فقال : بصري ثقة ،  
قلت — وقد نخرج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن الزبير  
عن النبي صلى الله عليه وسلم الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم القيمي البستي في السند الصحيح  
له ، فالحديث صحيح وهو الحق عند النزاع والاختلاف . والحمد لله . قال أبو عمر : وقد روى  
عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل حديث ابن الزبير ، رواه موسى الجهمي عن نافع  
عن ابن عمر ، وموسى الجهمي ثقة ، أثنى عليه القطان وأحمد ويحيى وجماعتهم ، وروى عنه شعبة  
والتنوير ويحيى بن سعيد . وروى حكيم بن سيف ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم  
عن عطاء بن أبي رباح ، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة  
في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام  
أفضل من مائة ألف فيما سواه " وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرقة قد روى عنه أبو زرعة  
الرازي ، وأخذ عنه ابن وضاح ، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به . فإن كان حيفظ فهما  
حديثان ، وإلا فالقول قول حبيب المعلم . وروى محمد بن وضاح ، حدثنا يوسف بن عدي عن  
عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
" صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن  
الصلاة فيه أفضل " قال أبو عمر : وهذا كله نص في موضع الخلاف قاطع له عند من أئيم  
رشدته ، ولم تمل به عصبية . وذكر ابن حبيب عن مطرف وعن أصبغ عن ابن وهب أنهما كانا  
ينذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم  
على ما في هذا الباب . وقد اتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يبرز لهما في كل  
بلد إلا مكة فإنها تُصلّى في المسجد الحرام . وكان عمر وعلي وآبن مسعود وأبو الدرداء وجابر  
يفضلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد من بعدهم ، وإلى هذا ذهب الشافعي ، وهو قول  
عطاء والمكيين والكوفيين ، وروى مثله عن مالك ، وذكر ابن وهب في جامعه عن مالك أن

آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض قال : يا ربّ هذه أحب إليك أن تعبد فيها ؟ قال : بل مكة . والمشهور عنه ومن أهل المدينة تفضيل المدينة ، وأخلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك فطائفة تقول مكة ، وطائفة تقول المدينة .

السادسة . - قوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهي القلوب . وقد يُعبر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر :

وإن فؤاداً قاذي بصّابة \* إليك على طول المدى لصبور

وقيل : جمع وفد ، والأصل أوفدة ، فقدمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هي ، فكانه قال : واجعل وفوداً من الناس تهوى إليهم ؛ أي تترع ، يقال : هوى نحوه إذا مال ، وهوت الناقة تهوى هويّاً فهي هاوية إذا عدت عدواً شديداً كأنها في هواء برّ ، وقوله : « تهوى إليهم » مأخوذ عنه . قال ابن عباس ومجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس ، ولكن قال : « من الناس » فهم المسلمون ؛ فقوله : « تهوى إليهم » أي تحن إليهم ، وتحن إلى زيارة البيت . وقرأ مجاهد « تهوى إليهم » أي تهاوهم وتجلهم . ﴿ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه ، وأثبت لهم بالطائف سائر الأشجار ، وبما يجلب إليهم من الأمصار . وفي صحيح البخاري عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه : « بلغه إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل ، فسأل أمرأته عنه فقالت : خرج يبتني لنا ، ثم سألهم عن عيشهم وهبيلتهم فقالت : نحن بشرٌ نحن في ضيق وشدة ، فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يفتّر عتبة يابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه آتس شبتاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشتنا فأخبرته أنا في جهد وشدة ، قال : فهل أوصالك بشيء ؟ قالت : أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : خير عتبة بابك ، قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك ألحقني بأهلك ؛ فطلقها وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجدهم ، ودخل على أمرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتني لنا . قال :

كيف أتم؟ وسأله عن مشيهم وهيتهم فقالت: نحن بخير وسعة وأنت على الله. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال فما شربكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لم فيه" قال: فهما لا يخلو طيبهما أحد بخير مكة إلا لم يوافقاه؛ وذكر الحديث. وقال ابن عباس: قول إبراهيم «فاجعل أفئدة من الناس تَوَيُّ إلىَّ» سأل أن يجعل الله الناس يهتدون السكينة بمكة، فيصير بيننا عزما، وكل ذلك كان والحمد لله. وأول من سكنه جرهم. ففى البخارى - بعد قوله: وإن الله لا يضيع أهله - وكان البيت مرتضا من الأرض كالإية ثابته السيول فأتخذ من يمينه وعن شماله، وكذلك حتى مرَّت بهم رفقة من جرهم قافلين من طريق كذا، فنزلوا بأسفل مكة، فرأوا طائرا عاقفا فقالوا: <sup>(١)</sup> إن هذا الطائر ليؤثر على ماء! فعمدنا بهذا الوادى وما فيه ماء؛ فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء، فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء؛ فقالوا أناذنين لنا أن نزل عندك؟ قالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فألقى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس" فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل آيات منهم، شب الغلام، ومات أم إسماعيل، بغاه إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته؛ الحديث.

قوله تعالى: رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣١﴾

(١) العاقف هنا هو الذى يتردد على الماء ولا يمشى .  
(٢) الجسرى : الرسول .  
(٣) أنى أى وجد ذلك الحى الجهمى أم إسماعيل ، أو أنى استعان جرهم بالنزول أم إسماعيل والحال أنه يحب الأنس ؛ فها هو الذى (نكس) و(ذلك) إشارة إلى الاختزان .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلَمُ ﴾ أى ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا . وقال ابن عباس ومقاتل : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسمعيل وأمه حيث أَسْكَنَا بَوَادِ غِرْدَى زُرْع . ﴿ وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ قيل : هو من قول إبراهيم . وقيل : هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم : « ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلم » قال الله : « وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ﴾ أى على كبر سنى وسنّ أمرأتى ؛ قال ابن عباس : ولد له إسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحق وهو ابن مائة وأثنتي عشرة سنة . وقال سعيد بن جبیر : بُشِّرَ إِبْرَاهِيمُ بِإِسْحَاقَ بَعْدَ عَشْرٍ وَمِائَةٍ سَنَةٍ . ﴿ إِنْ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ . قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ أى من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه . ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أى وأجعل من ذريتي من يقيمها . ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴾ أى عبادتي كما قال : « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » . وقال عليه السلام : « الدُّعَاءُ خُصُّ الْعِبَادَةِ » وقد تقدم في « البقرة » . ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : استغفر إبراهيم لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله قال القشيري : ولا يبعد أن تكون أمه مسامة لأن الله ذكر صوره في استغفاره لأبيه دون أمه .

قلت : وعلى هذا قراءة سعيد بن جبیر « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » يعنى أباه . وقيل : استغفر لهما طمعا في إيمانها . وقيل : استغفر لهما بشرط أن يُسَلِّمَا . وقيل : أراد آدم وحواء . وقد روى أن العبد إذا قال : اللهم اغفر لي ولوالدي وكان أبواه قد ماتا كافرين أنصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع . وقيل : إنه أراد ولديه إسمعيل وإسحق . وكان إبراهيم النخعي يقرأ « وَلِوَالِدَيَّ » يعنى أبنيه ، وكذلك قرأ يحيى بن يعمر ، ذكره المساوردي والنحاس . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : « لِلْمُؤْمِنِينَ » كلهم وهو أظهر . ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أى يوم يقوم الناس للحساب .

قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ  
لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ  
إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْغَلَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ( وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ) وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم  
وسلم يصد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفاتهم دين إبراهيم ؛ أى أصبر كما صبر إبراهيم .  
وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سُنَّة الله إيهال العقاب مدة . قال  
ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم ، ونعزية للظالم . ( إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ) يعنى مشركى مكة  
يمهلهم ويؤخر عذابهم . وقراءة العامة « يؤخرهم » بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله :  
« وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ » . وقرأ الحسن والسَّيِّ ورؤى عن أبي عمرو أيضا « تؤخرهم » بالنون  
للتعظيم . ( لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ) أى لا تغمض من هول ما تراه فى ذلك اليوم ، قاله  
الفراء . يقال : شَخَصَ الرجل بصره وشَخَصَ البصرُ نفسه أى سَمَا وطَمَحَ من هول ما يرى .  
قال ابن عباس : تَشْخَصُ أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يَرْمَضُونَ .  
( مُهْطِعِينَ ) أى مسرعين ؛ قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبيرة ؛ مأخوذ من أھطع يھطع إھطاعا  
إذا أسرع . ومنه قوله تعالى : « مهطعين إلى الدِّبَاج » أى مسرعين . قال الشاعر

بدجلة دارهم ولقد أراهم \* بدجلة مهطعين إلى السَّجَّاج

وقيل : المهطع الذى ينظر فى ذلّ وخشوع ؛ أى ناظرين من غير أن يَطْرُقوا ؛ قاله ابن  
عباس ، وقال مجاهد والضحاك : « مهطعين » أى مبدئين النظر . وقال النحاس : والمعروف  
فى اللغة أن يقال : أھطع إذا أسرع ؛ قال أبو عبيد : وقد يكون الوجهان جميعا يعنى الإسراع  
مع أدامة النظر . وقال ابن زيد : المهطع الذى لا يرفع رأسه . ( مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ) أى رافعى  
رءوسهم ينظرون فى ذلّ . وإقناع الرأس رفعه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . قال ابن عرفة  
والثَّعْبِيّ وغيرهما : المقنع الذى يرفع رأسه ويقلب بصره على ما بين يديه ؛ ومنه الإقناع فى الصلاة<sup>(١)</sup>

(١) الإقناع فى الصلاة أن يرفع المصل رأسه حتى يكون أعلى من ظهره .

وأفنع صوته إذا رفعه . وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد .  
وقيل : ناكسى رموسهم ؛ قال المهدوي : ويقال أفنع إذا رفع رأسه ، وأفنع إذا طأطأ رأسه فلة  
وخضوعا ، والآية عثملة الوجهين ، وقاله المبرد ، والقول الأول أعرف في اللغة ؛ قال الزجاج :  
أَنفَضَ تَحَوَّى رَأْسَهُ وَأَفْنَعًا . كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئًا أَطْمَعَا

وقال الشَّيْخُ يصف إبلا :

يَا كَرْنَ الْعِضَاءَ بِمُقَنَّاتٍ \* تَوَاجِدُنَّ كَالْحَدِيدِ الْوَقِيعِ

يسى : رموس مرفوعات إليها لتناولهن . ومنه قيل : مقنعة لارتفاعها . ومنه قنع  
الرجل إذا رضى ؛ أى رفع رأسه عن السؤال . وقنع إذا سال أى أتى ما يتقنع منه ؛ عن  
النحاس . وقم مقنع أى معطوفة أسنانه إلى داخل . ورجل مقنع بالتشديد ؛ أى عليه بيضة ؛  
قاله الجوهري . ( لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ) أى لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي  
شاخصة النظر . يقال : طَرفَ الرجلُ يَطْرِفُ طرفًا إذا أطبق جفنه على الآخر ؛ فسمي النظر  
طرفًا لأنه به يكون . والطَرفُ العين . قال صخرة :

وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارِي \* حَتَّى يُوَارِيَ جَارِي مَا وَاها

وقال بجيل :

وَأَقْصِرْ طَرْفِي دُونَ جُمْلِ كَرَامَةٍ \* لِيُجْمَلَ وَلِلطَّرْفِ الَّذِي أَنَا قَاصِرُهُ

( وَأَقْصِرْهُمْ هَوَاءً ) أى لا تنفى شيئًا من شدة الخوف . ابن عباس : خالية من كل خير .  
السدى : خرجت قلوبهم من صدورهم فانشبت في حلوقهم ؛ وقال مجاهد ومرة وابن زيد :  
خاوية خربة متخرفة ليس فيها خير ولا عقل ؛ كقولك في البيت الذى ليس فيه شيء :  
إنما هو هواء ؛ وقاله ابن عباس . والهواء في اللغة الجوف الخالي ؛ ومنه قول حسان :

أَلَا أَبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي \* فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ يَنْجِبُ هَوَاءُ

(١) أنفض رأسه : حركة . (٢) العضاء : كل شجر يعظم له شوك . والحدأ (فتح الحاء) وقيل (بكرها)  
جمع حدأة ، وهى القاس ذات الرأسين ؛ والوقيع : الحد . شبه الشاعر أسنان الإبل بالقوس فى الحد .  
(٣) الجوف والجوف : الجبان الذى لا قلب له . والنخب : من النخب بمعنى النزع . يقال : رجل نخب  
أى جبان ؛ كأنه منزع القواد .

وقال زهير يصف ناقه صغيرة الرأس :

كَانَ الرَّحْلُ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ<sup>١</sup> • مِنَ الظِّلْمَانِ جُجُؤُهُ مَسَوًّءٌ

قارخ أى خال؛ وفى التزئيل : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى قَارِخًا » أى من كل شئ إلا من هم موسى • وقيل : فى الكلام إضمار؛ أى ذات هواه وخلاه •

قوله تعالى : وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آتِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَّحْبِ دَعَوَتِكَ وَنَتَّبِعِ أَرْسَلَ أَوْلَدَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : (وَأَنذِرِ النَّاسَ) قال ابن عباس : أراد أهل مكة • (يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) وهو يوم القيامة ؛ أى خَوْفُهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ • وإنما خصهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثواب لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي • (فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى فى ذلك اليوم (رَبَّنَا آتِنَا) أى آمهنا • (إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ) سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق فى الآخرة • (نَحْبِ دَعَوَتِكَ) أى إلى الإسلام (وَنَتَّبِعِ أَرْسَلَ) • فيجابوا : (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ) يعنى فى دار الدنيا • (مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) قال مجاهد : هو قسم قريش أنهم لا يبعثون • ابن جريج : هو ما حكاه عنهم فى قوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ » • « مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيه تأويلان : أحدهما - ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة ؛ أى لا تبعثون ولا تحشرون ؛ وهذا قول مجاهد • الثانى - « ما لكم من زوال » أى من العذاب • وذكر البيهقى من محمد بن كعب القرظى قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله فى أربعة ، فإذا كان فى الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً ، يقولون : « رَبَّنَا آمَنَّا أَلْفَيْنِ وَاحِدَيْنِ وَأَحيَيْنَا أَلْفَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » فيجيبهم الله ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحِسَابُ لِلَّهِ الْكَبِيرِ •

(١) "فوق صعل" : شبه الناقة فى مرعيتها بالظلم ، فكان وحلها فوه • والصعل : الصغير الرأس ، وبذلك

يوصف الظلم •

ثم يقولون : « رَبَّنَا أَتَرْنَا وَمَعَنَا فَارِجِنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيهم الله تعالى « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »

ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرَّسْلَ » فيجيهم الله تعالى « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ » فيقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » فيجيهم الله تعالى : « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ » . ويقولون : « رَبَّنَا ظَلَمْتَنَا عَلَيْنَا شِقْوَتَنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » فيجيهم الله تعالى : « أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فلا يتكلمون بعدها أبداً؛ نجره ابن المبارك في « دقائقه » بأطول من هذا - وقد كتبناه في كتاب « النذكرة » - وزاد في الحديث « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ » . وقد مكروا مكْرَهُم وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » قال هذه الثالثة، وذكر الحديث وزاد بعد قوله : « أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فانقطع عند ذلك الذعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبع بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم؛ قال : فخذني الأزهر ابن أبي الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

قوله تعالى : « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ » (١٥) « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُم وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » (١٦)

قوله تعالى : ( « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ » ) أي في بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم، بعد ما تبين لكم ما فعلنا بهم. وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ « وَتَبَيَّنَ لَكُم » بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه المباحي، وليناسب قوله : « كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » . وقراءة الجماعة « وَتَبَيَّنَ » وهي مثلها في المعنى؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم .

قوله تعالى : ( وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ ) أى بالشرك بالله وتكذيب الرسل والملائكة عن  
 ابن عباس وغيره . ( وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ) « إن » بمعنى « ما »  
 أى ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه « وإن » بمعنى « ما » فى القرآن فى مواضع  
 خمسة : أحدها هذا . الثانى — « فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ » . الثالث — « لَوْ أَرَدْنَا  
 أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا » أى ما كنا . الرابع — « قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ » .  
 الخامس — « وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ » . وقرا الجماعة « وإن كان » بالنون .  
 وقرا عمرو بن على وابن مسعود وأبى « وإن كاد » بالهال . والعامه على كسر اللام فى « لتزول »  
 على أنها لام المحذور وفتح اللام الثانية نصبا . وقرا بن محيصن وابن جرير والكسائى « لَتَزُولُ »  
 بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء ورفع الثانية « وإن » بحقة من الثقيلة ، ومعنى هذه  
 القراءة استعظام مكرهم ، أى ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه ؛ قال الطبري ،  
 الاختيار القراءة الأولى ؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة ؛ قال أبو بكر الأنباري : ولا حجة  
 على مصحف المسلمين فى الحديث الذى حدثناه أحمد بن الحسين : حدثنا عثمان بن أبى شيبة  
 حدثنا وكيع بن الجراح عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عبد الرحمن بن دانييل قال سمعت  
 على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : إن جبارا من الجبابرة قال لا أتى حتى أعلم من  
 فى السموات ، فعمد إلى فراخ نسر ، فأمر أن تطعم اللحم ، حتى أشتدت وعَصَلَتْ وأستعلجت  
 أمر بأن يتخذ تابوت يسع فيه رجلين ، وأن يجعل فيه عصا فى رأسها لم شديد حره ، وأن  
 يستوثق من أرجل النسر بالأوتاد ، وتُسَدُّ إلى قوائم التابوت ، ثم جلس هو وصاحب له  
 فى التابوت وأتاه النسر ، فلما رأت اللحم طلبته ، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله ؛  
 فقال الجبار لصاحبه : أفتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : أرى الجبال كأنها ذباب ، فقال :  
 أغلق الباب ؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد ، فقال الجبار لصاحبه : أفتح الباب  
 فانظر ما ترى ؟ فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُعدا ، فقال : تكس العصا فكسها ،  
 فانقضت النسر . فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هدة كادت الجبال تزول عن

حرايتها منها؛ قال : فسمعت علياً رضى الله عنه يقرأ « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَرْوُلَ » بفتح اللام الأولى من « لترول » وضم الثانية . وقد ذكر التعليق<sup>(١)</sup> هذا الخبر بمعناه ، وأن الجبار هو النمرود الذى حاج إبراهيم في ربه ، وقال عكرمة : كان معه في التابوت غلام أمرد ، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليه ملطخا بالدماء وقال : كُفَيْتُ نَفْسِكَ إِلَهَ السَّمَاءِ . قال عكرمة : تَطْلُعُ بَدَمٌ مِمَّاكَ مِنَ السَّمَاءِ ، قَذَفْتَ نَفْسَهَا إِلَيْهِ مِنْ بَحْرِ الْمَوَاءِ مَعْلَى . وقيل : طائر من الطير أصابه السهم ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنْكَسَ السهم ، فهبطت النسور والتابوت ، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور ففزعت ، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء ، وَأَنَّ السَّاعَةَ قَدْ قَامَتْ ، فذلك قوله : « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ » . قال القشيري : وهذا جائز بتقدير خلق الحياة في الجبال . وذكر الماوردي عن ابن عباس : أن النمرود بن كنان بنى الصرح في قرية الرس من سواد الكوفة ، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعاً ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً ، وصعد منه مع النسور ، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذ حصناً ، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد ، فداعى الصرح إليهم فهلكوا جميعاً ، فهذا معنى « وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ » وفي الجبال التي غنى زواهلها بمكرم وجهان : أحدهما - جبال الأرض . الثاني - الإسلام والقرآن ؛ لأنه لثبوت ورسوخه كالجبال . وقال القشيري : « وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ » أى هو عالم بذلك فيجازيهم ، أو عند الله جزاء مكرم لحذف المضاف . « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ » ينكسر اللام ؛ أى ما كان مكرم مكرًا يكون له أثر وخطر عند الله تعالى ، فالجبال مثل لأمر النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ » في تقديرهم « لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ » وتؤثر في إبطال الإسلام . وقرئ « لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ » بفتح اللام الأولى وضم الثانية ؛ أى كان مكرًا عظيمًا ترول منه الجبال ، ولكن الله حفظ رسول الله صلى الله

(١) تعقب هذه القصة ابن عطية في تفسيره بهذا حكاه عن الطبري بقوله : « وذلك عدى لا يصح عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، وفي هذه القصة ضعف من طريق المصنف ، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأسماك وصف ، ويبدو أن نمرود أحد بنفسه في مثل هذا » . (٢) عبارة التعليق في « قصص الأنبياء » : ( كُفَيْتُ نَفْسَكَ إِلَهَ السَّمَاءِ ) .

عليه وسلم، وهو كعوله تعالى : « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرًا بُخَارًا » والجبال لا تترول ولكن العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون .

قوله تعالى : فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ( فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ) اسم الله تعالى و « مخلف » مفعولا تحسب ؛ و « رُسُلُهُ » مفعول « وَعْدِهِ » وهو على الاتساع، والمعنى : خالف وعده رسله ؛ قال الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فِيهَا مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأْسُهُ « وَسَاطِرُهُ يَأْتِي إِلَى الشَّمْسِ أَجْمَعُ<sup>(١)</sup> »

قال القتيبي : هو من المقدم الذي يوضحه التأخير، والمؤخر الذي يوضحه التقديم، وسواء في قولك : مخلف وعده رسله ، ومخلف رسله وعده . ( إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ) أى من أعدائه ومن أسيئاته المنتقم وقد بيّناه فى « الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَغَ النَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ « وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ( يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ) أى أذكرك يوم تبدل الأرض، فتكون متعلقة بما قبله . وقيل : هو صفة أقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » . واختلف فى كيفية تبديل

(١) يصف الشاعر هاجرة قد أبلت الثيران إلى كنسا ، ترى الثور مدخلا رأسه فى ظل كناسه لما يجده من الحرارة ، وسائر بارز الشمس .

الأرضية فقال كثير من الناس : إن تبطل الأرض عبارة عن تغير صفاتها ، وتسوية آكامها ،  
 وأسفل جبالها ، وشد أرضها ؛ ورواه ابن مسعود رضى الله عنه ؛ أخرجه ابن ماجه فى سنته  
 وذكره ابن المبارك من حديث شهر بن حوشب ، قال حدثنى ابن عباس قال : إذا كان يوم  
 القيامة مدّت الأرض مدّ الأديم وزيد فى سمعتها كذا وكذا ؛ وذكر الحديث . وروى مرفوعا  
 من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تُبطل الأرض غير الأرض فيسطها  
 ويمدّها مدّ الأديم المُكاطى <sup>(١)</sup> لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ثم يزرع الله الخلق زجرة فإذا هم  
 فى الثانية فى مثل مواضعهم من الأولى [ من كان فى بطنها فى بطنها ومن كان على ظهرها  
 كان على ظهرها ] <sup>(٢)</sup> » ذكره الغزوى . وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها ، وتناثر نجومها ؛  
 قاله ابن عباس . وقيل : اختلاف أحوالها ، فرة كالمهل ومرة كاللدهان ؛ حكاه ابن الأنبارى ؛  
 وقد ذكرنا هذا الباب مبينا فى كتاب « التذكرة » وذكرنا ما للعلاء فى ذلك ، وأن الصحيح  
 إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم . روى مسلم عن قوبان  
 إمرئى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 يخافه خبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك ؛ وذكر الحديث ، وفيه : فقال اليهودى  
 أين يكون الناس يوم تبطل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم : « فى الظلمة دون الجسر <sup>(٣)</sup> » . وذكر الحديث . وخرج عن عائشة قالت : سئل  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « يوم تبطل الأرض غير الأرض والسموات » أين  
 يكون الناس يومئذ ؟ قال : « على الصراط » أخرجه ابن ماجه بإسناد مسلم مواء ، وأخرجه  
 الترمذى عن عائشة وأنها هى السائلة ، قال : هذا حديث حسن صحيح ؛ فهذه الأحاديث  
 تنص على أن السموات والأرض تُبدّل وتزال ، ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها  
 بعد كونهم على الجسر . وفى صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه

(١) أديم مكاطى : منسوب إلى مكاط ، وهو مما جل إليها فيع بها . ومكاط : اسم سوق من أسواق البهاية  
 مشهورة كانت بقرب مكة .  
 (٢) عبارة الأصل هنا ناقصة ومجرفة ، والزائدة والتصويب من تفسير القرطبي  
 وكتاب « التذكرة » مؤلف .  
 (٣) الجسر : الصراط .

وسلم : « يُحْتَسَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ مَقْرَأَةً كَقَرَصَةِ النَّخْلِ لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ » .  
 وقال جابر : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله عز وجل : « يَوْمَ تَبْدِلُ الْأَرْضَ فِيهِ  
 الْأَرْضُ » قال : تَبْدِلُ خُبْرَةً يَأْكُلُ مِنْهَا الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثم قرأ « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً  
 لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » . وقال ابن مسعود : إنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يعمل  
 عليها خطيئة . وقال ابن عباس : بأرض من فضة بيضاء . وقال علي رضي الله عنه : تبدل  
 الأرض يومئذ من فضة والماء من ذهب وهذا تبدل العين ، وحسبك . ( وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ  
 الْقَهَّارِ ) أى من قبورهم ، وقد تقدم :

فوله تعالى : ( وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ) وهم المشركون . ( يَوْمَئِذٍ ) أى يوم القيامة . ( مُفْرَقِينَ )  
 أى مشدودين ( فِي الْأَصْفَادِ ) وهى الأغلال والقيود ، واحدها صَفْدٌ وَصَفْدٌ . ويقال : صَفَّدْتُهُ  
 صَفْداً أى قَيْدَتُهُ وَالْأَكْمَ صَفَّدَ ، فإذا أردت التكثير قلت : صَفَّدْتُهُ تَصْفِيفاً ، قال عمرو  
 ابن كلثوم :

فَأُبْسُوا بِالنَّهَابِ وَالسَّابَا \* وَأُبْسُوا بِالْمُلُوكِ مُصَفِّينَا

أى مقيدينا . وقال حسان :

مِنْ كُلِّ مَأْسُورٍ يُسَدُّ صَفَادُهُ \* صَفِيرٌ إِذَا لَاقَى الْكَرِيمَةَ حَامٍ

أى غله . وأصفدته إصفاذا أعطيته . وقيل : صَفَّدْتُهُ وَأَصَفَّدْتُهُ جَارِيَانٍ فِي الْقَيْدِ  
 وَالْإِعْطَاءُ جَمِيعاً ، قال النابغة :

\* فَلَمْ أَعْرِضْ أَبْتَ اللَّحْنَ بِالْصَفْدِ \*  
 (٢٢)

فَالصَّفْدُ الْعَطَاءُ لِأَنَّهُ يُقَيَّدُ وَيُعِيدُ ، قال أبو الطيب ،

وَقَيَّدْتُ تَعْنِي فِي ذَرَاكَ حَبَّةً \* وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْداً تَقِيدَا  
 (٢٣)

(١) النقي : الفتيق الموارى . والمحوارى : ما حوَّز أى يعض . والعلم الآم

(٢) صغى أبت اللحن ، أى أبت أن تاتي شيئا تظن عليه ، وصعدت :

هكذا التاء . فَإِنْ تَسَمَّ قَاتَهُ \*

(٣) الذرا ( بالفتح ) : الله اردوا حسناء وكل ما استرت به ، تقول : أنا فى ذرا فلان أى فى كفه ومشره .

قيل : يقرن كل كافر مع شيطان في غل ، بيانه قوله : « أَحْمَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ »  
 معنى قرناهم من الشياطين . وقيل : لانهم الكفار يجمعون في الأصفاة كما اجتمعوا في الدنيا  
 على المعاصي . ( سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قِطْرَانٍ ) أى قصصهم ، عن ابن دُرَيْد وغيره ، واحدها يربال ،  
 والفعل يربلت و سربت فربى ؛ قال كعب بن مالك :

تَلَقَّيْتُكُمْ عَصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَمْ . مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ الْهَيْجَا سَرَّابِلُ

« مِنْ قِطْرَانٍ » معنى قطران الإبل الذى تُنَبَّاهُ ؛ قاله الحسن . وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم .  
 وفي الصحيح أن الناعمة إذا لم تنب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها يربال من قطران  
 ويدرع من حرب . وروى عن حماد أنهم قالوا هو النحاس . وقرا عيسى بن عمر : « قِطْرَانٍ »  
 بفتح القاف وتسكين الطاء . وفيه قراءة ثالثة : كسر القاف وحزم الطاء ؛ ومنه قول أبي النجيم :

بِجَوْزٍ كَأَنَّ الْقَرْقَ الْمَتَّوْحَا<sup>(١)</sup> . لَيْسَهُ الْقِطْرَانُ وَالْمُسُوحَا

وقراءة رابعة : « مِنْ قِطْرَانٍ » رويت عن ابن عباس وأبي هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير  
 ويعقوب ؛ والقِطْرُ النحاس والصُّفْرُ المذاب ؛ ومنه قوله تعالى : « أَتَوْنِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا » .  
 والآن : الذى قد انتهى إلى حره ؛ ومنه قوله تعالى : « وَبَيْنَ حَمِيمِ آيٍ » . ( وَتَفْتَنِي )  
 أى تضرب ( وَجُوهَهُمُ النَّارُ ) فَتَفْتَنِيهَا . ( لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ) أى بما كسبت .  
 ( إِنَّ اللَّهَ مَبِيعُ الْحِسَابِ ) تهتم .

قوله تعالى : ( هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ) أى هذا الذى أنزلنا إليك بلاغ ؛ أى تبليغ وعظة .  
 ( وَلِيُنذِرُوا بِهِ ) أى ليخزفوا عقاب الله عز وجل . وقروا . « وَلِيُنذِرُوا » بفتح الياء والدال ،  
 يقال : نذرت بالشيء أنذر إذا علمت به فاستعددت له ، ولم يستعملوا منه مصدرا كما لم يستعملوا  
 من صمى وليس ، وكأنهم استغنوا بأن والفعل كقولك : مررت أن نذرت بالشيء . ( وَلِيَعْلَمُوا )  
 أَمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ) أى وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين . ( وَلِيَذْكُرُوا )

(١) تنح العرق نرج من الجلد . (٢) « قلم » : ضبطه في « روح المعاني » بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين

الراء ، ويث في « البحر المحيط » ، وضبط بفتح القاف وكسرهما مع سكون الطاء ، فيه ثلاث لغات .

الآلِساب) أى وليتمظ أصحاب العقول . وهذه الامات فى و« ليندروا » و« ليعلموا »  
و« ليدكر » متعلقة بمجنوف ؛ التقدير : ولذلك أنزلناه . وروى يمان بن رثاب أن هذه  
الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وسئل بعضهم هل لكاب الله عنوان ؟  
فقال : نعم ؛ قيل : وأين هو ؟ قال قوله تعالى : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به »  
إلى آخرها . تم تفسير سورة ابراهيم عليه السلام والحمد لله .



# بسم الله الرحمن الرحيم

## تفسير سورة الحجر

قوله تعالى : أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ آلَ كَثِبٍ وَقُرَّانٍ مِّبِيبٍ ﴿١﴾

تقدم معناه . و «الكاتب» قيل فيه : إنه اسم الجنس الكاتب المتقدمة من التوارة والإنجيل ، ثم قرنهما بالكاتب الميين . وقيل : الكاتب هو القرآن ، جمع له بين الاسمين .

قوله تعالى : رَبِّمَا يَودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾

«رب» لا تدخل على الفعل ، فإذا لحقتها «ما» هيأتها للدخول على الفعل تقول : وربما قام زيد ، وربما يقوم زيد . ويجوز أن تكون «ما» نكرة بمعنى شيء ، و«يود» صفة له ، أى ربه شيء يود الكافر . وقرأ نافع وعاصم «ربما» مخففة الباء . الباقون مشددة ، وهما للثنا . قال أبو حاتم : أهل الجواز يخففون ربما ، قال الشاعر :

رَبِّمَا ضَرِيَّةٌ بِسَيْفٍ صَقِيلٍ • مِنْ بَصْرَى وَطَعْنَةٍ مُجْلَلَةٍ ﴿٣﴾

وتميم وقيس وربيعة يتقاربونها . وحكى فيها : رَبِّمَا وَرَبِّمَا ، وَرَبِّمَا وَرَبِّمَا ، بخفيف الباء وتشديد الباء أيضاً . وأصلها أن تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير ، أى يود الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين ، قاله الكوفيون . ومنه قول الشاعر :

(١) راجع ج ٨ ص ٣٠٤ طبعة أول أو ثانية . (٢) البيت لعدي بن الرطلاء التميمي . وبصري : جملة قرب الشام ، هي كرى حوران ، كان يقوم فيها سوق مجاهلية . قال صاحب نزاة الأدب : « ... وإنما صح إضافة بين إلى بصري لاشتغالها على تمسّد من الأكمة » أى بين أما كن بصري وفواحيها . وروى الشريف الحنفى في حماسه : « دون بصري » ودون هنا بمعنى قبل أو بمعنى خلف . وقال البصري : بمعنى عند . راجع الخزانة في الشاهد التاسع والستين بعد السبائة . (٣) قال ابن هشام في المتن : « وفي رب ست عشرة لغة : ضم الراء ونقصها » وكلاهما مع التشديد والتخفيف . والأدوية الأربعة مع تاء التثنية ، ساكنة أو معركة ، ومع التجرد منها ، فهذه اثنا عشرة . والضم والتثنية مع إسكان الباء وضع الحرفين مع التشديد ومع التخفيف .

الآية أهدت لك العين نظرة = قصارك منها أنها عنك لا تجدي<sup>(١)</sup>

وقال بعضهم : هي التثليل في هذا الموضع ؛ لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها ؛ لشغلهم بالذباب ، والله أعلم . وقال : « رَبِّمَا يَوِّدُ » وهي إنما تكون لما وقع ؛ لأنه لصدق الوعد كأنه عيان قد كان . وخرج الطبراني أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ناساً من أمتي يدخلون النار بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يغيرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم وإيمانكم فتحكم فلا يبقى موحداً إلا أخرجه الله من النار — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — رَبِّمَا يَوِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لو كانوا مسلمين » . قال الحسن : إذا رأى المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنة وماوهم في النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين . وقال الضحاك : هذا التمني إنما هو عند المعاناة في الدنيا حين يتبين لهم الهدى من الضلالة . وقيل : في القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين .

قوله تعالى : ذُرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ ﴿١﴾

فيه مسائل

الأولى — قوله تعالى : ( ذُرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ) تهديد لهم . ( وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ) أي يشغلهم عن الطاعة . يقال : ألهمه عن كذا أي شغله . ولين هو عن الشيء يلين . ( فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) إذا أراد القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا . وهذه الآية منسوخة بالسيف .

الثانية — في مستد البراز عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة من الشقاء جهود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا » . وطول الأمل داء

(١) أي لا تفي ، يقال : ما يجدي منك هذا ، أي ما يجني . وفي بعض نسخ الأصل : لا تجزي ، أي لا تفي . وفي بعض النسخ : ولم توف لي مرة ثانية .

عضال ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه، ولم يفارقه داء ولا نجح فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكاء والعلماء . وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانتكاب عليها ، والحُبُّ لها والإعراض عن الآخرة . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نجح أول هذه الأمة باليقين والزهد وبذلك آخرها بالبخل والأمل » . وروى عن أبي الدرداء رضى الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال : يا أهل دمشق ، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ، إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ كَثِيرًا وَيَتَوَكَّلُونَ مُشِيدًا وَيَأْمَلُونَ مُبِيدًا ، فأصبح جمعهم بُورًا وبنيانهم قبورًا وأملهم غرورًا . هذه عاد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً ، فمن يشتري مني اليوم تركتهم بدرهمين ؟ وأنشد :

يا ذا المؤمل آمالاً وإن بصدت \* منه وزعم أن يحظى بأقصاها

أنى نفوز بما ترجوه ويك وما \* أصبحت في ثقة من تيل أداها

وقال الحسن : ما أطال عبداً الأمل إلا أساء العمل . وصدق رضى الله عنه ! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتواني ، ويعقب التشاغل والتفاس ، ويغلب على الأرض ويميل إلى الهوى . وهذا أمر قد شوهد بالبيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يطلب صاحبه يرهان ؛ كما أن قصر الأمل يبعث على العمل ، ويحيل على المبادرة ، ويحث على المسابقة

قوله تعالى : وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿١﴾

أى أجل مؤقت كتب لهم في اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ ﴿٢﴾

« من » صلة ؛ كقولك : ما جاءني من أحد . أى لا تتجاوز أجلها فتريد عليه ،

ولا تتقدم قبله . وتظهر قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦٦﴾  
لَوْ مَا تَأْتِيكَ إِلَّا الْمَلَائِكَةُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٧﴾

قاله كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم على جهة الاستهزاء ، ثم طلبوا منه إتيان  
الملائكة دلالة على صدقه . و ( لَوْ مَا ) تحضيض على الفعل كلولا وهلا . وقال الفراء :  
الميم في « لَوْ مَا » بدل من اللام في لولا . ومثله أسسوى على النسيء واستوى عليه ، ومثله  
خالته وخالته ، فهو خلى وخلى . أى صديق . وعلى هذا يجوز « لوما » بمعنى الخبر ، تقول :  
لوما زيد لضرب عمرو . قال الكسائي : لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام . قال ابن مقبل :  
لوما الحياء ولوما الذين عبتكما . ببعض ما فيكما إذ عبتا عورى  
يريد لولا الحياء . وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد . وأشد أهل اللغة على ذلك :  
تصدون عقر النّيب أفضل مجيّدكم . بنى ضوطرى لولا الكمي<sup>(١)</sup> الملقنا  
أى هلا تصدون الكمي<sup>(٢)</sup> الملقنا .

قوله تعالى : مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٦٨﴾  
قرأ حفص وحزمة والكسائي ( مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ) واختاره أبو عبيد . وقرأ  
أبو بكر والمفضل « مَا تُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ » . الباقر « مَا تُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ » وتقديره : ما تنزل  
بنائين حذفنا أحدهما تخفيفا ، وقد شدد التاء البزى ، واختاره أبو حاتم اعتبارا بقوله :  
« تُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ » . ومعنى ( إِلَّا بِالْحَقِّ ) إلا بالقرآن . وقيل بالرسالة ؛ عن مجاهد .  
وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا . ( وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ) أى لو نزلت الملائكة  
بإهلاكهم لما أمهلوا ولا قبلت لهم توبة . وقيل : المعنى لو نزلت الملائكة تشهد لك فكفروا

(١) البيت بطريرجوه الفردق . والعقر : ضرب ثور اسم الالة بالسيف . والنّيب ( بكسر النون ) : جمع ناي ،  
وهى الناقة المسنة . وضوطرى : هو الرجل الضخم القيم الذى لا غنا عنه ؛ وهى كلمة ذم وسب . والكمي : الشجاع  
المتكبر في سلاحه ؛ لأنه كمي<sup>(٢)</sup> خمسة أى شذها بالدرع والبيضة . واللقن : القى على رأسه البيضة والمففر :  
(٢) آية : سورة القدر .

بعد ذلك لم ينظروا . وأصل « إِنَّا » إِذْ أَنْ - ومعناه حينئذ - فضع إليها أَنْ، واستقلوا  
الهمزة لحذفوها .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ) يعني القرآن . ( وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) من أن يزد  
فيه أو ينقص منه . قال قتادة وثابت البناني : حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلا  
أو ينقص منه حقا ؛ فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا ، وقال في غيره : « بما أَسْتَحْفِظُوا » ،  
فَوَكَّلْ حفظه إليهم فبدلوا وغيروا . أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه  
الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن علي بن خلف بن معزوز الكوفي التليساني قال :  
قرئ علي الشيخة العالمة نضر النساء شهيدة بنت أبي نصر أحمد بن العرج الديلمي وذلك  
بمطرحا بدار السلام في آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة ، قيل لها : أخبركم  
الشيخ الأجل العامل تقيب النقاء أبو القوارس طراد بن محمد الزبني قراءة عليه وأنت تسمعين  
سنة تسعين وأربعمائة ، أخبرنا علي بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا أبو علي عيسى بن محمد بن أحمد  
أبن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز أبن جريح المعروف بالطوماري حدثنا الحسين بن فهم  
قال : سمعت يحيى بن أكرم يقول : كان للأمون - وهو أمير إذ ذاك - مجلس نظر ، فدخل  
في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن  
الكلام والمبارة ، قال : فلما تقوض المجلس دعاه للمأمون فقال له : إسرائيل ؟ قال نعم .  
قال له : أسلم حتى أفضل بك وأصنع ، ووعده . فقال : ديني ودين آبائي ! وأنصرف . قال :  
فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما ، قال : فتكلم على الله فآحسن الكلام ؛ فلما تقوض المجلس  
دعاه المأمون وقال : ألسنت صاحبتك بالأمس ؟ قال له : بلى . قال : فلما كان سبب إسلامك ؟  
قال : انصرفت من حضرتك فأجبت أن أمتحن هذه الأديان ، وأنت ترائي حسن الخط ،

(١) أي قوله تعالى : « إِنَّا نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » أي « إِنَّا نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » آية ١ : سورة المائدة ، راجع ج ٦ ص ١٨٨

لعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشترت  
منى ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البيعة فاشترت  
منى ، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الوزايف  
نصفحوها ، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعملت أن هذا  
كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي . قال يحيى بن أكثم : فنجحت تلك السنة فليقت  
سفيان بن عيينة فذكرت له انظر فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عز وجل . قال قلت :  
في أي موضع ؟ قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل : « بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ  
كِتَابِ اللَّهِ » ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »<sup>(١)</sup>  
فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضيع . وقيل : « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » أي لحمد صلى الله عليه وسلم  
من أن يقول علينا أو يقول عليه . أو « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » من أن يكاد أو يقتل . نظيره  
« وَاللَّهُ يَتَعَصَّمُ مِنَ النَّاسِ » . و « نحن » يجوز أن يكون موضعه رفعاً بالابتداء و « نزلنا »  
الحبر . والمجسلة خبر « إن » . ويجوز أن يكون « نحن » تأكيداً لاسم « إن » في موضع  
نصب ، ولا تكون فاصلة لأن الذي بعدها ليس بمعرفة وإنما هو جملة ، والجل تكون نعتاً  
للتكرات لحكمها حكم التكرات .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِبَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

المعنى : ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً ، لحذف . والشيع جمع شيعة وهي الأئمة ، أي  
في أمهم ؛ قاله ابن عباس وقادة . الحسن : في فرقهم . والشعبة : للفرقة والطائفة من الناس  
المختلفة المتفقة الكلمة . فكان الشيع الفرق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَلِسَ شَيْعاً »<sup>(٢)</sup> . وأصله  
ماخوذ من الشيع وهو الحطب الصغار يوقد به الكبار — كما تقدم في « الأنعام » . وقال  
الكلبي : إن الشيع هنا القرى .

(١) آية ٤ : سورة المائدة . (٢) آية ١٧ : سورة المائدة . (٣) راجع ج ٧ ص ٩

طبعة أهل أدنانية .

قوله تعالى : وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾  
 تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، أى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فعل بمن  
 قبلك من الرسل .

قوله تعالى : كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ  
 وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ( كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ ) أى الضلال والكفر والاستهزاء والشرك . ( فِي قُلُوبِ  
 الْمُجْرِمِينَ ) من قومك ، عن الحسن وقتادة وغيرهما . أى كما سلكتهم في قلوب من تقدم من  
 شيع الأولين كذلك نسلكتهم في قلوب مشركي قومك حتى لا يؤمنوا بك ، كما لم يؤمن من قبلهم  
 برسولهم . وروى ابن جريج عن مجاهد قال : نسلكتهم بالكذب . والسلك : إدخال الشيء في الشيء  
 كإدخال الخيط في الخيط . يقال : سلكتهم سلكاً مسلطاً وسلوفاً ، وأسلكه إسلافاً . وسلك  
 الطريق سلوكاً وسلكاً وأسلكه دخله ، والشيء في غيره مثله ، والشيء كذلك والرفع ، والخيط  
 في الجوهر ، كله قتل وأفعل . وقال عدي بن زيد :  
 • وقد سلكتوك في يوم عصب <sup>(١)</sup> •

والسلك ( بالكسر ) الخيط . وفي الآية رد على القدرية والمعتلة . وقيل : المعنى نسلكت  
 القرآن في قلوبهم فيكذبون به . وقال الحسن ومجاهد وقتادة القول الذى عليه أكثر أهل التفسير ،  
 وهو ألزم حجة على المعتلة . وعن الحسن أيضاً : نسلكت الذكر إلزاماً للحجة ، ذكره الغزالي .  
 ( وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ) أى مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من  
 الهلاك . وقيل : • خلت سنة الأولين • بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر ، فهم  
 يقتنون بأولئك .

(١) هنا حجر البنت ، ومعبده كاللسان ونعرا . التمراتية  
 • وكنت وأزجصك لم أعرد •

(٢) في الأصول ، «ههنا» ٦

قوله تعالى وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٥﴾  
لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٦﴾

يقال : ظلل يفعل كذا، أى يفعله بالنهار . والمصدر الظلول . أى لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتدلّوا بالخيالات ؛ كما قالوا للقرآن المعجز : إن صحر (يعرجون) من عرج يخرج أى صعد . والمعارض المضاعد . أى لو صعدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر ؛ عن الحسن وغيره . وقيل : الضمير في «عليهم» لشركين . وفي «فظلوا» للسلاكة ، تذهب ونجى . أى لو كشف هؤلاء حتى يأتوا أبراراً في السماء تصدّ فيها الملائكة وتزل لقالوا : رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له ؛ عن ابن عباس وقتادة . ومعنى (سُكَّرَتْ) سُكِّرَتْ بالسحر ؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال الحسن : سُكِّرَتْ . الكلي : أغشيت أبصارنا ؛ وعنه أيضاً عَمِيَتْ . قتادة : أخذت . وقال المؤجج : دبرنا من الدوران ؛ أى صارت أبصارنا سكرى . جَوَّيِرَ : خُدعت . وقال أبو عمرو ابن العلاء : «سُكَّرَتْ» غُشِيَتْ وَغُطِّيَتْ . ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مغفر . وجعلت عين الحورود تسكر

وقال مجاهد : «سُكَّرَتْ» حبست . ومنه قول أوس بن حجر :

فصرت على لسيلة ماهرة <sup>(١)</sup> . فليست بطلي ولا ساكرة

قلت : وهذه أقوال متقاربة يجمعها قولك : مُتِعَتْ . قال ابن عريز : «سُكَّرَتْ أبصارنا» سُكِّرَتْ أبصارنا ؛ هو من قولك : سُكِّرَتْ النهر إذا سدته . ويقال : هو من سُكَّرَ الشراب ، كأن العين يلحقها ما يلحق الشارب إذا سكر . وقرأ ابن كثير «سُكِّرَتْ» بالتخفيف . والباقون بالتشديد . قال ابن الأعرابي : سُكِّرَتْ ملئت . قال المهدوي : والتخفيف والتشديد

(١) في اللسان مادة سكر : «سُكِّرَتْ» بالميم والقاف المفتوحين ، ومعنى «سُكِّرَتْ» استصب وتعت لا يبرح . وله إطلاق لا يشرق لا يبرح فيها ولا حر ، ولا مطر ولا قو . (٢) حارة ابن الأعرابي كما في نسخ الأصل ، «سُكِّرَتْ ملئت ، وسُكِّرَتْ ملئت» ولم نر ما يربط هذا ، وله تكرير من التنازع مع تحريف .

في «سكرت» ظاهران، التشديد للكثير والتخفيف يؤدي عن معناه . والمعروف أن «سكر» لا يتعدى . قال أبو علي : يجوز أن يكون شمع متعدياً في البصر . ومن قرأ «سكرت» فإنه شبه ماعرض لأبصارهم بحال السكران، كأنها جرت مجرى السكران لعدم تحصيله . وقد قيل : إنه بالتخفيف [من] سكر الشراب، وبالتشديد أخذت، ذكرهما الماوردي . وقال النحاس ، والمعروف من قراءة مجاهد والحسن «سكرت» بالتخفيف . قال الحسن : أي سُحِرَتْ . وحكى أبو عبيد عن أبي عبيدة أنه يقال : سُرَّتْ أبصارهم إذا عَشِبَها سُمُودٌ حتى لا يبصروا . وقال الفراء : من قرأ «سكرت» أخذه من سكور الريح . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة . والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى ، قال : هو من السكر في الشراب . وهذا قول حسن ؛ أي غشيم ما غطى أبصارهم كما غشى السكران ما غطى عقله . يسكور الريح سكورها وفورها ؛ فهو يرجع إلى معنى التحير .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١١﴾

لما ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته لبُستل بها على وحدانيته . والبروج : القصور والمنازل . قال ابن عباس : أي جعلنا في السماء بروج الشمس والقمر ؛ أي منازلها . وأسماء هذه البروج : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسبلية ، والميزان ، والمقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت . والعرب تعد المعرفة لمواقع النجوم وأولها من أجل العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والحصب والجذب . وقالوا : الفلك اثنا عشر برجاً ، كل برج ميلان ونصف . وأصل البروج الظهور ؛ ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها . وقد تقدم هذا المعنى في النساء<sup>(١)</sup> . وقال الحسن وقتادة : البروج النجوم ، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها . وقيل : الكواكب العظام ؛ قاله أبو صالح ،

(١) السابير : ضعف البصر . وقيل : هو الشيء الذي يترأى للانسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب .

(٢) راجع ج ٥ ص ٢٨٤ طبعة أول أو ثانية .

ومنى السبعة السيارة . وقال قوم : « هروجا » ؛ أى قصورا ويوتا فيها الحرم ، خلقها الله فى السماء . فانه أعلم . ( وزيناها ) معنى السماء ؛ كما قال فى سورة المملك : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » . ( الناظرين ) للمتبرين والمتفكرين .

قوله تعالى : وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧)

أى مرجوم . والرجم الرى بالجمجمة . وقيل : الرجم العن والطرد . وقد تقدم . وقال الكسائى : كل رجم فى القرآن فهو بمعنى الشتم . وزعم الكلبي أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى ، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حفظ جميعها بعد بعثه وحُرست منهم بالشُّب . وقاله ابن عباس وصى الله عنه . قال ابن عباس : وقد كانت الشياطين لا يحبجون عن السماء ، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة ، فيزيدون عليها تسعا فيحدثون بها أهل الأرض ؛ الكلمة حق والتسع باطل ؛ فاذا رأوا شيئا عما قالوه صدقوه فيما جاءوا به ، فلما ولد عيسى بن مريم عليهم السلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، فلما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمي بنهب ؛ على ما يأتى .

قوله تعالى : إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَاتَّبَعُوْهُ شَهَابٌ مِّينَ (١٨)

أى لكن من استرق السمع ، أى الخطفة اليسيرة ، فهو استثناء منقطع . وقيل ، هو متصل ، أى إلا من استرق السمع . أى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحي وغيره ؛ إلا من استرق السمع فانا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحي ، فانا الوحي فلا تسمع منه شيئا ؛ لقوله : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ » . وإذا استمع الشياطين

- (١) وهى — حسب ترتيبها التصاعدي — : القمر ، عطارد ، الزهرة ، الشمس ، المريخ ، المشتري ، زحل .  
(٢) آية ٥ . (٣) راجع ج ٩ ص ٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٤) فى سورة العافات  
فى قوله تعالى : « إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ دُرِيَّةً لِّتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَوَّلَ مَا بَدَأُوا . وفى سورة الجن فى قوله تعالى :  
« وَإِنَّا لَنَسُوا السَّمْعَ » آية ٨ وما بعدها . (٥) آية ٢١٢ سورة الشعراء .

إلى شيء ليس يوحى فانهم يقذفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهاب فتقتلهم أو تحلهم<sup>(١)</sup> ذكره الحسن وابن عباس .

قوله تعالى : ( فَاتَّبِعْهُ شَهَابٌ مُّينٌ ) أتبعه : أدركه وحلقه . شهاب : كوكب مضى . وكذلك شهاب ثاقب . وقوله : « شهاب قيس » بشملة ناري رأس عود ؛ قاله ابن عريز . وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب في إثر عَصْرِيَّة • مسومٌ في سواد الليل مُتَغَضِب

وسمى الكوكب شهابا لبريقه ، يشبه النار . وقيل : شهاب لشملة من نار ، قيس لأهل الأرض ، فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد ، بخلاف الكوكب فإنه إذا أحرق عاد إلى مكانه . قال ابن عباس : تصعد الشياطين أنوفنا تسترق السمع فينفرد السارد منها فيعلو ، فيرمى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ما شاء الله فيلتهب ، فيأتى أصحابه وهو يتهب فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا ، فينهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسما ، فيحدثون بها أهل الأرض ، الكلمة حق والتسع باطل . فإذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان صدقهم بكل ما جاءوا به من كذبهم . وسيأتى هذا المعنى مرفوعا في سورة « سبا » إن شاء الله تعالى .

واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا . فقال ابن عباس : الشهاب يمحرج ويحرق ويحزب ولا يقتل . وقال الحسن وطائفة : يقتل ؛ فعل هذا القول في قتلهم بالشهاب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما — أنهم يقتلون قبل إلقاء ما استرقوه من السمع إلى غيرهم ؛ فعل هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء ، ولذلك انقطعت الكهانة . والثاني — أنهم يقتلون بعد إلقاء ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن ؛ ولذلك ما يهودون إلى استراقه ، ولو لم يصل لا تقطع الاستراق وانقطع الإحراق ؛ ذكره المساوردي .

(١) الخبل (سكون الباء) : قساد الأعضاء . (٢) آية ٧ سورة النمل . (٣) أى إبليس ، وسوم : علم ومتغضب : متعصب من مكانه . (٤) في قوله تعالى : « ولا تتبع السفاعة حدته » آية ٢٦ .

قلت : والقوله الآخر أصح على ما يأتي بيانه في «الصفات» . واختلف هل كان رمي بالشبه قبل المبعث ؟ فقال الأكثرون نعم . وقيل لا ، وإنما ذلك بعد المبعث . وميائي بيان هذه المسألة في سورة «الجن» إن شاء الله تعالى . وفي «الصفات» أيضا . قال الزجاج : والرمي بالشبه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده ؛ لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في أشعارهم ، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق والسيل . ولا يبعد أن يقال : انقضاض الكواكب كان في قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوما للشياطين ، ثم صار رجوما حين ولد النبي صلى الله عليه وسلم . وقال العلماء : نحن نرى انقضاض الكواكب فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصير نارا إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يرمون بشفعة من نار من الهوى فيخيل إلينا أنه نجم سرى . والشهاب في اللغة النار الساطعة . وذكر أبو داود عن عامر الشعبي قال : لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم رحمت الشياطين بنجوم لم تكن تريم بها قبل ، فاتوا عبد ياليل بن عمرو التقي فقالوا : إن الناس قد مزعوا وقد أحتموا رقيقهم وسيبوا أنعامهم لما رأوا في النجوم . فقال لهم — وكان رجلا أعمى — : لا تعجلوا ، وانظروا فإن كانت النجوم التي تُعرف فهي عند فناء الناس ، وإن كانت لا تعرف فهي من حدث . فنظروا فإذا هي نجوم لا تُعرف ، فقالوا : هذا من حدث ، فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ ۚ وَمَنْ لَكُمْ لَهُمْ يَرْزُقِينَ ۝٢٠**

قوله تعالى : **(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا)** هذا من نعمه أيضا ، وما يدل على كمال قدرته . قال ابن عباس : بسطناها على وجه الماء ؛ كما قال : **«وَالْأَرْضَ مَدَدَ ذَلِكَ دَحَاهَا»** أي **(١)** في قوله تعالى : **«لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا الْمَلَأَ الْأَعْلَى ...»** أي **٨** . **(٢)** أي سورة النازعات .

بسطها . وقال : « وَالْأَرْضَ قَرَشَهَا فَأَتِمَّ الْمُسْلِمُونَ » . وهو يريد على من قُعم أنها كالكرة .  
وقد تقدم . ( وَأَنْتَبِهَاتُ فِيهَا رَوَاسِي ) جبالاً ثابتة لئلا تتحرك بأهلها . ( وَأَنْتَبِهَاتُ فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ) أى مقدر معلوم ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبیر . وإنما قال « موزون » لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء . قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرَّة • هندی لكل غُاصم ميزانهُ

وقال قتادة : موزون يعنى مقسوم . وقال مجاهد : موزون معدود . ويقال : هذا كلام موزون ، أى منظوم غير متثر . فعلى هذا أى أنبتنا فى الأرض ما يوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن . وقد قال الله عز وجل فى الحيوان : « وَأَنْتَبِهَاتُ نَبَاتًا حَسَنًا » . والمقصود من الإنبتاء الإنشاء والإيجاد . وقيل : ( أَنْتَبْنَا فِيهَا ) أى فى الجبال ( مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ) من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقصدير ، حتى الزرنيخ والكحل ، كل ذلك يوزن وزنه . وروى معناه عن الحسن وابن زيد . وقيل : أنبتنا فى الأرض الثمار مما يكال ويوزن . وقيل : ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجل قدراً وأعم نفعاً مما لا ثمن له . ( وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ) يعنى المطاعم والمشارب التى يعيشون بها ، واحدها معيشة ( يسكون الياء ) . ومنه قول جرير :  
تكلّفنى مَعِيشَةً آلِ زَيْدٍ • وَمَنْ لى بِالْمَرْقِقِ وَالصَّنَابِ<sup>(١)</sup>

وَالْأَصْلُ مَعِيشَةٌ عَلَى مَفْعَلَةٍ ( بتحريك الياء ) . وقد تقدم فى الأعراف . وقيل : إنها الملابس ؛ قاله الحسن . وقيل : إنها التصرف فى أسباب الرزق مدة الحياة . قال الماوردي : وهو الظاهر . ( وَمَنْ لَسَمَ لَهُ رِزْقَيْنِ ) يريد اللواب والأنعام ؛ قاله مجاهد . وعنده أيضاً هم العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم : « نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ »<sup>(٢)</sup> . ولقطة « مَنْ » يجوز أن يتناول العبيد واللواب إذا اجتمعوا ؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل ، غلب من يعقل . أى

(١) آية ٤٨ سورة الانبياء . (٢) فى قوله تعالى : « وهو الذى على الأرض .. » آية ٣ سورة الرعد .  
راجع ج ٩ ص ٢٨٠ طبة أول أو ثانية . (٣) آية ٣٧ سورة آل عمران . (٤) الصناب ،  
الزبد المصروب بالزبد ، يترجم به . (٥) راجع ج ٧ ص ١٦٧ طبة أول أو ثانية .  
: (٦) آية ٣١ سورة الإسراء .

جعلنا لكم فيها معاش وعيسدا وإماء ودواب وأولاداً ترزقهم ولا ترزقونهم . ف«من» على هذا التأويل في موضع نصب ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : أراد به الوحش . قال سعيد : قرأ علينا منصور « وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ » قال : الوحش . ف«من» على هذا تكون لما لا يعقل ؛ مثل « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ » الآية . وهي في محل خفض عطفاً على الكاف والميم في قوله : « لَكُمْ » . وفيه فتح عند البصريين ؛ فإنه لا يجوز عندهم عطف الظاهر على المضممر إلا بإعادة حرف الجر ؛ مثل مررت به وبزيد . ولا يجوز مررت به وبزيد إلا في الشعر . كما قال :

فاليوم قزيت تهجونا وتسيبنا . فأذهب فما لك والأيام من تحب

وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » وسورة « النساء » .

قوله تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ

مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ( وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ) أى وإن من شيء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ؛ يعنى المطر المتزل من السماء ؛ لأن به نبات كل شيء . قال الحسن : المطر خزائن كل شيء . وقيل : الخزائن المفاتيح ، أى فى السماء مفاتيح الأرزاق ؛ قاله الكلبى . والمعنى واحد . ( وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ) أى ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه ؛ كما قال : « وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبِفَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُتَرَدَّلُ بِقَدَرٍ مَا بَشَاءُ » . وروى عن ابن مسعود والحكم بن عبيدة وغيرهما أنه ليس عام أكثر مطراً من عام ، ولكن الله يقسمه كيف شاء ، فيمطر قوم ويحرم آخرون . وربما كان المطر فى البحار والقفار . والخزائن جمع الخزانة ، وهو الموضع الذى يستتر فيه الإنسان ماله . والخزانة أيضاً مصدر خزّن يحزّن . وما كان فى خزانة الإنسان كان معدّ له . فكذا ما بقدر عليه الرب

فَكَانَ مَعَهُ عِنْدَهُ قَالَهُ الشَّعْبِيُّ . وَرَوَى جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ قَالَ : فِي الْعَرْشِ  
مِثَالُ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي الْبُزْ وَالْبَحْرِ . وَهُوَ ثَابِتٌ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا  
خَزَائِنُهُ » . وَالْإِنْزَالُ بِمَعْنَى الْإِنْشَاءِ وَالْإِبْجَادِ ؛ كَقَوْلِهِ : « وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَنْوَاجَ »<sup>(١)</sup>  
وَقَوْلِهِ : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » . وَقِيلَ : الْإِنْزَالُ بِمَعْنَى الْإِعْطَاءِ ، وَسَمَاءُ الْإِنْزَالِ  
لِأَنَّ أَحْكَامَ اللَّهِ إِنَّمَا تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاْتَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ » ﴿١٥﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ » قِرَاءَةُ الْعَامَّةِ « الرِّيحَ » بِالْجَمْعِ . وَقَرَأَ حِزْمَةُ  
بِالتَّوْحِيدِ ؛ لِأَنَّ مَعْنَى الرِّيحِ الْجَمْعُ أَيْضًا وَإِنْ كَانَ لِفِظْهَا لَفْظُ الْوَاحِدِ . كَمَا يُقَالُ : جَاءَتِ الرِّيحُ  
مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . كَمَا يُقَالُ : أَرْضٌ سَبَاسِبٌ وَثُوبٌ أَخْلَاقٌ . وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ الْعَرَبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ  
أَتَسَّعَ . وَأَمَّا وَجْهُ قِرَاءَةِ الْعَامَّةِ فَلَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَفَثَ بِـ « لَوَاحِغٍ » وَهِيَ جَمْعٌ . وَمَعْنَى لَوَاحِغٍ  
حَوَامِلٌ ؛ لِأَنَّهَا تَحْمِلُ الْمَاءَ وَالتُّرَابَ وَالسَّحَابَ وَالْخَيْرَ وَالنَّفْعَ . قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : وَجَعَلَ الرِّيحُ  
لَاغًا لِأَنَّهَا تَحْمِلُ السَّحَابَ ؛ أَيْ يُقَالُ وَتَصَرَّفَهُ ثُمَّ تَمَّ بِهَ قَسْمَتُهُ ؛ أَيْ نَزَلَهُ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :  
« حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا نَقَالًا »<sup>(٢)</sup> أَيْ حَمَلَتْ . وَنَاقَةُ لَاحٍ وَتُوقُ لَوَاحِغٌ إِذَا حَمَلَتْ الْأُجُنَّةَ فِي بَطُونِهَا .  
وَقِيلَ : لَوَاحِغٌ بِمَعْنَى مُلْقِيَةٍ وَهِيَ الْأَصْلُ ، وَلَكِنَّا لَا نُلْقِحُ إِلَّا وَهِيَ فِي نَفْسِهَا لَاحٍ ؛ كَأَنَّ الرِّيحَ  
لَقِيَتْ بِخَيْرٍ . وَقِيلَ : ذَوَاتُ لَقْحٍ ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ ؛ أَيْ مِنْهَا مَا يُلْقِحُ الشَّجَرَ ؛ كَقَوْلِهِمْ :  
عَبْسَةٌ رَاضِيَةٌ ؛ أَيْ فِيهَا رَضَا ، وَلَبِلَ تَائِمٌ ؛ أَيْ فِيهِ نَوْمٌ . وَمِنْهَا مَا تَأْتِي بِالسَّحَابِ . يُقَالُ :  
لَقِيَتْ النَّاقَةُ ( بِالْكَسْرِ ) لَقْحًا وَلَقْحَا ( بِالْفَتْحِ ) فَهِيَ لَاحٍ . وَالْقَحْحُ الْفَعْلُ أَيْ الْتَمَّ إِلَيْهَا

(١) آية ٦ سورة الزمر . (٢) آية ٢٥ سورة الحديد . (٣) السبب : الأرض المنسوبة إلى العبدية .

(٤) مَرَّتِ الرِّيحُ السَّحَابَ إِذَا أَنْزَلَتْ مِنْهُ الْمَطَرَ . (٥) آية ٥٧ سورة الأعراف .

الله فعملته قال الرياح كالفضل للسحاب . قال الجوهرى : ورياح لوانغ ولا يقال ملاح ، وهو من النبال . وحكى الله دوى عن أبي عبيدة : لوانغ بمعنى ملاح ، ذهب إلى أنه جمع مَلِيحة ومَلِيح ، ثم حذفت زوالده . وقيل : هو جمع لائحة ولاغ ، على معنى ذات اللفاح على النسب . ويحوز أن يكون معنى لاغ حاملا . والعرب تقول للجَنُوب : لاغ وحامل ، ولشمال حائل وعقيم . وقال عبيد بن عمير : يرسل الله المباشرة فتم الأرض قبا ، ثم يرسل الكثير لتثير السحاب ، ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه ، ثم يبعث اللوانغ فتلقح الشجر . وقيل : الرياح اللوانغ التي تحمل الندى فجمعته في السحاب ، فإذا اجتمع فيه صار مطرا . وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الرياح الجنوب من الجنة وهى الرياح اللوانغ التي ذكرها الله في كتابه وفيها منافع للناس" . وروى عنه عليه السلام أنه قال : "ما هبت جنوب إلا أنبع الله بها عينا غدقة" . وقال أبو بكر بن عياش : لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها ، فالصبا تهيج ، والدبور تلقحه ، والجنوب تدره ، والشمال تنزفه .

الثانية - روى ابن وهب وابن القاسم وأئيب وابن عبد الحكم عن مالك - واللفظ لأئيب - قال مالك : قال الله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » فلقاح القمح عندى أن يحبب ويُسئِل ، ولا أدري ما يبيس في أكمامه ، ولكن يُحبب حتى يكون لو يس حينئذ لم يكن فساد الأخير فيه . ولقاح الشجر كلها أن تنثر ثم يسقط منها ما يسقط ويشت ما يشبت ؛ وليس ذلك بأن تؤرد . قال ابن العربى : إنما عول مالك في هذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل ، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة تحبيب الثمر وتسئله ؛ لأنه سُمى باسم تسترك فيه كل حامله وهو اللقاح ، وعليه جاء الحديث "نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الحب حتى يشتد" . قال ابن عبد البر : الإبار عند أهل العلم في النخل التلقيح ، وهو أن يؤخذ شيء من طلع [ ذكرور ] النخل فيُدخل بين ظهري طلع الإناث .

ومعنى ذلك في سائر الثمار طلوع الثمرة من الثين وغيره حتى تكون الثمرة مهيئة منقورة البياض .  
والمعتبر عند مالك وأصحابه فيما يذكر من التمسك التذكري ، وفي الآيات التي ذكرت من قرآن  
ما ثبتت ويسقط ما يسقط . وحد ذلك في الزرع ظهوره من الأرض ، قاله مالك . وقته  
روى عنه أن إباره أن يجيب . ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا نشق طلع ثمرته فأن إباره  
وقد أبر غيره ممن حاله مثل حاله ، أن حكمه حكم ما أبر ، لأنه قد جاء عليه وقت الإبر ثمرة  
ظاهرة بعد تنبيهه في الحب . فإن أبر بعض الحائط كان المبر يبر تمامه . كما أن الحائط إذا  
يذا صلاحه كان سائر الحائط تبعاً لذلك الصلاح في جواز بيعه .

الثالثة - روى الأئمة كلهم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يقول : " من ابتاع نخلاً بعد أن تؤبر فثمرتها للذي باعها إلا أن يشترط المبتاع . ومن  
ابتاع عبداً قاله للذي باعه إلا أن يشترطه المبتاع " . قال علماؤنا : إنما لم يدخل الثمر المؤبر  
مع الأصول في البيع إلا بالشرط ، لأنه عين موجودة يحاط بها أمر سقوطها غالباً .  
بخلاف التي لم تؤبر ، إذ ليس سقوطها مأموناً فلم يتحقق لها وجود ، فلم يميز للبائع اشتراطها  
ولا استثنائها ، لأنها كالجنين . وهذا هو المشهور من مذهب مالك ، وقيل : يجوز استثنائها في  
هو قول الشافعي .

الرابعة - لو اشترى النخل وبين الثمر للبائع جاز لشترى الأصل شراء الثمرة قبل طيبها  
حل مشهور قول مالك ، ويرى لها حكم التبعية وإن أفردت بالعقد ، وعنه في رواية ،  
لا يجوز . وبذلك قال الشافعي وأبو حنيفة والثوري وأهل الظاهر وفقهاء الحديث . وهو  
لأظهر من أحاديث النهي عن بيع الثمرة قبل بدو صلاحها .

الخامسة - ومما يتعلق بهذا الباب النهي عن بيع الملاح ، والملاح الفحول من الإبل ،  
الواحد ملقح . والملاح أيضاً الإناث التي في بطونها أولادها ، الواحدة ملقحة ( بفتح القاف ) .  
والملاحج مافي بطون النوق من الأجنة ، الواحدة ملقوكة ، من قولهم : لقحت ، كالحقوم  
من حمر ، والمجنون من جن . وفي هذا جاء النهي . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم :

أنه نهي عن الخمر وهو يوسع ما في بطون الإناث . ونهى عن المضامين والملاقيح . قال أبو عبيد : المضامين ما في البطون ، وهي الأجنة . والملاقيح ما في أصلاب الفحول . وهو قول سعيد بن المسيب وغيره . وقيل بالعكس : إن المضامين ما في ظهور الجمل ، والملاقيح ما في بطون الإناث . وهو قول ابن حبيب وغيره . وأى الأمرين كان ، فعلماء المسلمين يجمعون على أن ذلك لا يجوز . وذكر المزني عن ابن هشام شاهدا بأن الملاقيح ما في البطون ليمض الأعراب :

مَيْتَى مَلَأْنَا فِي الْأَبْطُرِ \* تُتَجَّ مَا تَلَقَّحَ بَعْدَ أَزْمِنَ<sup>(١)</sup>

وذكر الجوهري على ذلك شاهدا قول الرازي :

إِنَّا وَجَدْنَا طَرْدَ الْهَوَامِلِ \* خَيْرًا مِنَ الثَّانَانِ وَالْمَسَائِلِ<sup>(٢)</sup>

وعبدية العناب وطير قابيل \* ملفوحة في بطن ناب حامل

قوله تعالى : ( وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ) أى من السحاب . وكل ما علاك فأطلقك يسمى ماء . وقيل : من جهة السماء . ( مَاءٌ ) أى قطرا . ( فَأَسْقَيْنَا كُنُوهَ ) أى جعلنا ذلك المطر السقيام ولشرب مواشيك وأرضكم . وقيل : سقى وأسقى بمعنى . وقيل بالفرق ، وقد تقدم . ( وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ) أى ليست خزائنه عندهم ؛ أى نحن الخازنون لهذا الماء ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا . ومثله « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » ، « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ »<sup>(٣)</sup> . وقال سفيان : لستم بما نعين المطر .

قوله تعالى : وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ أَلْوَرُثُونَ<sup>(٤)</sup>

أى الأرض ومن عليها ، ولا يبقى شيء سوانا . نظيره « إِنَّا نَحْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ »<sup>(٥)</sup> . فلكل كل شيء لله تعالى . ولكن ملك عباده أملا كما فإذا ماتوا انقطع

(١) كذا في الأصل . (٢) الهوامل : الإبل المهدلة . والثانان : الأئین . والياب : الثالثة المسنة .  
والحائل : التي لم تحمل . (٣) راجع ج ١ ص ١١٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ٤٨ سورة الفرقان .  
(٥) آية ١٨ سورة المؤمنون . (٦) آية ٤٠ سورة مريم .

الذموى، فكان الله وارثا من هذا الوجه . وقيل : الإحياء في هذه الآية إحياء التطفة في الأرحام . فأما البعث فقد ذكره بعد هذا في قوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يُخْرِجُهُ » .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا  
الْمُسْتَفْخِرِينَ ﴿٢٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَفْخِرِينَ ) فيه ثلاث تأويلات : الأول — « المستقدمين » في الخلق إلى اليوم ، و « المستأخرين » الذين لم يخلقوا بعد ؛ قاله قتادة وعكرمة وغيرهما . الثاني — « المستقدمين » الأموات ، و « المستأخرين » الأحياء ؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثالث — « المستقدمين » من تقدم أنه عهد ؛ و « المستأخرين » أمة عهد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله مجاهد . الرابع — « المستقدمين » في الطاعة والخير ، و « المستأخرين » في المعصية والشر ؛ قاله الحسن وقتادة أيضا . الخامس — « المستقدمين » في صفوف الحرب ، و « المستأخرين » فيها ؛ قاله سعيد بن المسيب . السادس — « المستقدمين » من قتل في الجهاد ، و « المستأخرين » من لم يقتل ؛ قاله القرطبي . السابع — « المستقدمين » أول الخلق ، و « المستأخرين » آخر الخلق ؛ قاله الشعبي . الثامن — « المستقدمين » في صفوف الصلاة ، و « المستأخرين » فيها بسبب النساء . وكل هذا معلوم لله تعالى ؛ فإنه عالم بكل موجود ومعدوم ، وعالم بمن خلق وما هو خالقه إلى يوم القيامة . إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية ؛ لما رواه النسائي والترمذي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركع نظر من تحت إبطه ، فأزل الله عن وجهه . « وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَفْخِرِينَ » . وروى عن أبي الجوزاء ولم يذكر ابن عباس . وهو أصح .

**الثالثة -** هذا يدل على فضل الأول الوقت في الصلاة وعلى فضل الصف الأول ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : **«مرو وسلم الناس في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»** . فإذا جاء الرجل عند الزوال فتزل في الصف الأول مجاور الإمام ، حاز ثلاث مراتب في الفضل : الأول الوقت ، والصف الأول ، ومجاورة الإمام . فإن جاء عند الزوال فتزل في الصف الآخر أو فيما تزل عن الصف الأول ، فقد حاز فضل أول الوقت وفاته فضل الصف الأول والمجاورة . فإن جاء وقت الزوال وتزل في الصف الأول دون ما يلي الإمام فقد حاز فضل أول الوقت وفضل الصف الأول ، وفاته مجاورة الإمام . فإن جاء بعد الزوال وتزل في الصف الأول فقد فاته فضيلة أول الوقت ، وحاز فضيلة الصف الأول ومجاورة الإمام . وهكذا . ومجاورة الإمام لا تكون لكل أحد ، وإنما هي كما قال صلى الله عليه وسلم : **«ليأتي حكم أول الأحلام والنبي»** الحديث . فما يلي الإمام ينبغي أن يكون لمن كانت هذه صفته ، فإن تزلوا غيره أخر وتقدم هو إلى الموضع ؛ لأنه حقه بأمر صاحب الشرع ، كما لحظ هو موضع الإمام تقدم أو تأخر ؛ قاله ابن العربي .

قلت : وعليه يحمل قول عمر رضي الله عنه : تأخر يا فلان ، تقدم يا فلان ؛ ثم يتقدم فيكبر . وقد روى عن كعب أن الرجل من هذه الأمة ليختر ساجدا فينفر لمن خافه . وكان كعب يتوكل الصف المؤخر من المسجد جاء ذلك ، ويذكر أنه وجده كذلك في التوراة . ذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول . وسأيت في سورة « الصافات » زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى .

**الثالثة -** وكما تدل هذه الآية على فضل الصف الأول في الصلاة ، فكذلك تدل على فضل الصف الأول في القتال ؛ فإن القيام في نحر العدو ، وبيع العبد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل ؛ فالتقدم إليه أفضل ، ولا خلاف فيه ولا خفاء به . ولم يكن أحد يتقدم في الحرب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان أشجع الناس . قال البراء : كنا والله إذا حمز الياس تنق به ، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) أي إلا أن يقرعوا .

قوله تعالى : وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ( وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ) أى لتساب والجزاء . ( إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ) تقدم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ) ببنى آدم عليه السلام . ( مِنْ صَلْصَالٍ ) أى من طين يابس ، عن ابن عباس وغيره . والصلصال : الطين الخراطيل بالزل نصار يتصلصل إذا جف ، فإذا طبع بالنار فهو الفخار ، عن أبي عبيدة . وهو قول أكثر المفسرين . وأنشد أهل اللغة :

كَمْثَوِ الْمَصْلِلِ الْحَوَالِ •

وقال مجاهد : هو الطين المثنى ، واختاره الكشاف . قال : وهو من قول العرب : صلصلت وأصل إذا أتت - مطبوخا كان أو نينا - يصل صلولا . قال الخطيب :

ذَاكَ قَى يَسْتَلُّ ذَا قِنْدِهِ • لَا يُغِيدُ الْقَمَّ لَدَيْهِ الصُّلُولُ

وطين صلال ومصلل ؛ أى يصوت إذا تقرته كما يصوت الحديد . فكان أول تزياء ، أى متفوق الأجزاء ثم بل نصار طينا ، ثم ترك حتى أتت نصار حما مسنونا ؛ أى متنعما ، ثم يس نصار صلصالا ؛ على قول الجمهور . وقد مضى فى «البقرة» بيان هذا . والحمأ : الطين الأسود ، وكذلك الحمأة بالتسكين ؛ تقول منه : حيث البئر حما (بالتسكين) إذا زعت حباتها . وحيث البئر حما (بالتحريك) كثرت حباتها . وأحاثها إحماء ألقيت فيها الحمأة ؛ عن ابن السكيت . وقال أبو عبيدة : الحمأة (مسكرون الميم) مثل الكعكة . والجمع حمء ، مثل عمرة وقمر . والحمأ المصدرة مثل الملح والجوزع ، ثم سمي به . والمسنون المتغير . قال ابن عباس : هو التراب المبلل المثنى ،

(١) رابع ج ١ ص ٢٨٧ طبة ثانية أرتالة . (٢) هذا هو البيت . ونماه كان السان :

حترين تصلو إذا سبها الصر • تصعد المصلل الجوزل

(٣) رابع المسألة الأول ج ١ ص ٢٧٩ طبة ثانية أرتالة .

يفعل صلصا لا كالنخار . ومثله قول مجاهد وقادة ، قالا : المتن المتغير من قولهم : قد  
 أيس الماء إذا تغير ، ومنه « يَسَنُ » و « ماء غير آسن » . ومنه قول أبي قيس بن الأسل :  
 صفت صدأ رُضابا غير ذى أسن \* كالمسك قُت على ماء العنايد  
 وقال الفراء : هو المتغير ، وأصله من قولهم : سَنَتِ الحجر على الحجر إذا حكته به . وما يخرج  
 من الحجر يُقال له السنانة والسنين ، ومنه المسن . قال الشاعر :  
 ثم خاصرتهما إلى القبة الجم \* سراء تمشي في ممر مر مسنون  
 أى محكوك ملمس . حكى أن يزيد بن معاوية قال لأبيه : ألا ترى عبد الرحمن بن حسان  
 يُسَبِّح بآيتك . فقال معاوية : وما قال ؟ فقال قال :  
 هى زهراء مثل لؤلؤة النور \* ناص ميّزت من جواهر مكنون  
 فقال معاوية : صدق ! فقال يزيد : [ إنه يقول <sup>(٢١)</sup> ] :  
 وإذا ما نسبتنا لم تجدنا \* فى سناء من المكارم دون  
 فقال : صدق ! فقال : أين قوله ؟ ثم خاصرتها إلى البيت . فقال معاوية : كذب . وقال  
 أبو عبيدة : المسنون المصبوب ، وهو من قول العرب : سَنَبَتِ الماءَ ، وغيره على الوجه إذا  
 صبته . والسَّن الصب . وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : المسنون الرطب ؛  
 وهذا بمعنى المصبوب ؛ لأنه لا يكون مصبوبا إلا وهو رطب . النحاس : وهذا قول حسن ؛  
 لأنه يقال : سَنَتِ الشيء أى صبته . قال أبو عمرو بن العلاء : ومنه الأثر المروى عن عمر <sup>(٢٢)</sup>  
 أنه كان يَسُن الماء على وجهه ولا يَسَنه . والشَّن ( بالشين ) تفريق الماء ، وبالسین المهملة  
 صبه من غير تفريق . وقال سيويه : المسنون المصور . أخذ من سَنَ الوجه وهو صورته .  
 وقال ذو الرمة :

شريك سَنَ وجه غير مُقْرِف \* ملساء ليس بها خال ولا تَقَب <sup>(٢٣)</sup>

(١) فى اللسان : الخضراب . (٢) الزيادة عن اللسان . (٣) فى نهاية ابن الأثير : « ابن عمر » .

(٤) السنة : السودة ، والمقرة : التى دنت من الهبة ، واليتب : الأثر من الجراح والقروح . وقوله :  
 غير مقرفة : أى غير هجينة ، حقيقة كريمة .

وقال الأخفش : المسنون المنصوب القائم ؛ من قولهم : وجه مسنون إذا كان فيه طول . وقد قيل : إن الصلصال التراب المدقق ؛ حكاية المهدوي . ومن قال : إن الصلصال هو المستن فاصله صلال ، فأبدل من إحدى اللامين الصاد . و « مِنْ حَمَلٍ » مفسر لجنس الصلصال ؛ كقولك : أخذت هذا من رجل من العرب .

قوله تعالى : **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ** ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ( **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ** ) أى من قبل خلق آدم . وقال الحسن : يعنى إبليس ، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام . ونسب جانا لتواريه عن الأئمة . وفي صحيح مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما صور الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يملك<sup>(١)</sup> » . ( **مِنْ نَارِ السُّمُومِ** ) قال ابن مسعود : نار السموم التى خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم . وقال ابن عباس : السموم الريح الحارة التى تقتل . وعنه : أنها نار لادخان لها ، والصواعق تكون منها ، وهى نار تكون بين السماء والجناب . فإذا أحدث الله أمرا اخترقت الحجاب فبوت الصاعقة إلى ما أمرت . فالهتة<sup>(٢)</sup> التى تسمعون نرق ذلك الحجاب . وقال الحسن : نار السموم نار دنيا حجاب ، والذى تسمعون من انقطاع السحاب صوتها . وعن ابن عباس أيضا قال : كان إبليس من حمى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة . قال — : وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار .

قلت : هذا فيه نظر ؛ فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر ؛ إذ مثله لا يقال من جهة الراى . وقد خرج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ** » .

(١) أى لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات . وقيل : لا يملك نفسه عند البغى . وقيل : لا يملك دفع الرؤساء عنه . (٢) الهدة : صوت وقع الحائط ونحوه .

فقوله : " خلقت الملائكة من نور " يقتضى العموم . والله أعلم . وقال الجوهري : مارج من نار نار لا دخان لها خلق منها الجن ، والسموم الريح الحارة تؤت ؛ يقال منه : سم يومنا فهو يوم مسموم ، والجمع سمائم . قال أبو عبيدة : السموم بالهـاء وقد تكون بالليل ، والخروج بالليل وقد تكون بالنهار . القشيري : وسميت الريح الحارة سموما لدخولها في مسام البدن .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ( وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ) تقدم في « البقرة » . ( إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ ) من طين . ( فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ) أى سَوَّيْتُ خلقه وصوره . ( وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ) النفخ إخراج الريح ، فى الشيء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن من ذلك الجسم . وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ، فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه لنفسه <sup>٢٨</sup> . وكفى له . وكفى له . وأرضى وسمانى وبنى وناق الله وشهر الله . ومثله « رُوحُ يَتَمِّ » وقد تقدم فى « النساء » <sup>٢٩</sup> . وذكروا فى كتاب ( التذكرة ) الأحاديث الواردة التى تدل على أن الروح جسم لطيف ، وأن النفس والروح اسمان لمسمى واحد . وسيأتى ذلك إن شاء الله . ويحيى قال : إن الروح هو لتحيية قال أراد ، فإذا ركبت فيه الحياة . ( فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ) أى سجودوا له ساجدين . وهو سجود تحية وتكريم لا بسجود عبادة . والله أن يفضل من يريد ، فضيل الأنبياء على الملائكة . وقد تقدم فى « البقرة » هذا المعنى . وقال القفال : كانوا أفضل من آدم ، وأستخرجهم بالسجود له تعريضا لهم للثواب الجزيل . وهو مذهب المعتزلة . وقيل : أمروا بالسجود لله عند آدم ، وكان آدم قبيلة لهم .

(٢٨) راجع ١٠ ص ٣٥٥ طبع ثانية لـ ١٤٢٤ هـ . (٢٩) راجع ٦٦ ص ٢٢ طبع أمد آر ١٤٢٥ هـ .

(٣٠) راجع ١٠ ص ٣٦١ وما بعدها . طبع ثانية لـ ١٤٢٥ هـ .

قوله تعالى : فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى  
أَنْ يَسْجُدَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ فيه مسائل ثلاث :  
الأولى - لا شك أن إبليس كان مأمورا بالسجود ، لقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » وإنما منعه من ذلك الاستكبار والاستعظام ؛ كما تقدم في « البقرة » <sup>(١)</sup> بيانه .  
ثم قيل : كان من الملائكة ؛ فهو استثناء من الجنس . وقال قوم : لم يكن من الملائكة ؛  
فهو استثناء منقطع . وقد مضى في « البقرة » هذا كله مستوفى . وقال ابن عباس : الجن  
أبو الجن وليسوا شياطين . والشياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس . والجن  
يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر . فأدم أبو الإنس . والجان أبو الجن . وإبليس  
أبو الشياطين ؛ ذكره المسوردي . والذي تقدم في « البقرة » خلاف هذا فتلزمه  
هناك .

الثانية - الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعي ، حتى لو قال : لقلان  
على دينار إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا قميصا ، وما جازى ذلك كان مقبولا ، ويسقط  
عنه من المبلغ قيمة الثوب والقميص . ويستوى في ذلك المكيلات والموزونات والمقدرات .  
وقال مالك وأبو حنيفة رضي الله عنهما : استثناء المكيل من الموزون والموزون من المكيل  
جائز ، حتى لو استثنى الدراهم من الخنطة والخنطة من الدراهم قبل . فأما إفتناستى المقومات  
من المكيلات أو الموزونات ، والمكيلات من المقومات ، مثل أن يقول : على عشرة دنانير  
إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا دينارا لا يصح الاستثناء ، ويلزم التقييد بجميع المبلغ . وقال  
محمد بن الحسن : الاستثناء من غير الجنس لا يصح ، ويلزم المقر جملة ما أقر به . والدليل

(١) آية ١٢ سورة الأعراف . راجع ج ٧ ص ١٦٩ طبة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١  
ص ٢٩٦ طبة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع ج ١ ص ٢٩٤ طبة ثانية أو ثالثة .

لقول الشافعي أن لفظ الاستثناء يستعمل في المجلس وغير المجلس؛ قال الله تعالى: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا. إِلَّا قِيلًا مَلَامًا سَلَامًا» <sup>(١)</sup> فاستثنى السلام من جملة اللغو. ومثله «فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إِلَّا إِبْلِيسَ» وإبليس ليس من جملة الملائكة؛ قال الله تعالى: «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» <sup>(٢)</sup>. وقال الشاعر:

وبلدة ليس بها أنيس • إلا اليعافير وإلا العيسُ

فاستثنى اليعافير وهي ذكور الغنم، والعيس وهي الجمال البيض من الأيس؛ ومثله قول النابغة:

.....

قوله تعالى: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ» <sup>(٣)</sup>

قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ <sup>(٤)</sup>

قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ <sup>(٥)</sup> وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ <sup>(٦)</sup>

قوله تعالى: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ (أَي مَا الْمَانعُ لَكَ) (أَلَا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ) (أَي فِي الْأَنْكُونِ) (قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ) (يَتَنَكَّبُهُ وَحِجْدَهُ) وأنه خير منه، إذ هو من نار والنار تأكل الطين؛ كما تقدم في «الأعراف»

ميانه» (قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا) أي من السموات، أو من جنة عدن، أو من جملة الملائكة.

(فَأَنْتَكَ رَجِيمٌ) أي مخرجوم بالشبه. وقيل: ملعون مشؤم. وقد تقدم هذا كله مستوفى في البقرة والأعراف. (وَأَنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ) أي لعني؛ كما في سورة «ص»: <sup>(٧)</sup>

(١) آية ٢٥ سورة الواقعة. (٢) آية ٥٠ سورة الكهف. (٣) لم يذكر المؤلف رحمه الله قول النابغة، وأوله سقط من النسخ. وأوله يشير إلى قوله:

حققت حينما شيرتني مقنونة • ولا علم إلا حسن ثلن بها حب

وهذا البيت أورده سيره في كتابه شاهد على نصب ما بعد إلا على الاستثناء المطلق؛ لأن حسن الثلن ليس من العلم والمقنونة والاستثناء في البيت. والحقي: حققت غير مستثنى في بيت حسن ثلن في بها حب فقام معنى مقام العلم الذي يوجب النابغة. (راجع كتاب سيره). (٤) راجع ج ٧ ص ١٧ طبة أول أو ثانية. (٥) آية ٧٨.

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ  
مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٦٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ( قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ ) هذا السؤال من إبليس لم يكن  
عن ثقته منه بمنزلة عند الله تعالى ، وأنه أهل أن يحاب له دعاء ، ولكن مال تأخير عذابه  
زيادة في بلائه ، كفعل الآيس من السلامة . وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يموتون : ألا يموت ؛  
لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده . قال الله تعالى : ( فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ) بمعنى من  
المؤجلين . ( إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ) قال ابن عباس : أراد به الصفحة الأولى ، أى حين  
تموت الخلائق . وقيل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويشهله إبليس . فيموت  
إبليس ثم يبعث ؛ قال الله تعالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » وفى كلام الله تعالى له قولان :  
أحدهما — كلمة على لسان رسوله . الثانى — كلمة تفلظا فى الوعيد لا على وجه التكرمة  
والتقريب .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَرَيْنَهُمْ فِي الْآرِضِ  
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ( قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَرَيْنَهُمْ فِي الْآرِضِ ) تقدم معنى الإغواء  
والزينة فى الأعراف . وتريته هنا يكون بوجهين : إما بفعل للماضى ، وإما بشغلهم  
بزينة الدنيا عن فعل الطاعة . ومعنى ( لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ) أى لأضلّهم عن طريق الهدى .  
وروى ابن طيبة عبد الله عن ذرّاج أبى السّمح عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى  
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال  
أغوى بني آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم فقال الرب وعزتك وجلالك لا أزال أغفر لهم  
ما استغفرونى " .

قوله تعالى : إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام ؛ أى الذين استخلصتهم وأخلصتهم . وقرأ الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء . حكى أبو ثمانية أن الطواوين سألوا جيسى عليه السلام عن المخلصين لله فقال : " الذى يعمل ولا يحب أن يحمده الناس " .

قوله تعالى : قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾

قال عمر بن الخطاب : معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجم به على الجنة . الحسن : « على » بمعنى إلى . مجاهد والكسائي : هذا على الوعيد والتهديد ؛ كقولك لمن تهذبه : طريقك على ومصيرك إلى . وكقوله : « إِنَّ رَبَّكَ لِلْمُزْصَادِ <sup>(١)</sup> » . فكان معنى للكلام : هذا طريق مرجعه إلى فأجازى كلاً بعمله ، يعنى طريق العبودية . وقيل : المعنى على أن أدل على الصراط المستقيم باليان والبرهان . وقيل : بالتوفيق والهداية . وقرأ ابن سيرين وقادة والحسن وقيس بن عباد وأبو رجاء ومحمد ويعقوب : « هذا صراط على مستقيم » . يرفع « على » وتوحيده ، ومعناه رفيع مستقيم ، أى رفيع فى الدين والحق . وقيل : رفيع أن يملك ، مستقيم أن يمال .

قوله تعالى : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ

مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾

فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ) قال العلماء : يعنى على قلوبهم . وقال ابن عينة : أى فى أن يقيمهم فى ذنب يمنعهم عصى ويضيق عليهم . وهؤلاء الذين هدامهم الله واجتباهم واخترهم واصطفاهم .

قلت : لمعل قائل يقول : قد أخبر الله عن صفة آدم وحواء عليهما السلام بقوله : « فَازْلَمْهُمَا الشَّيْطَانُ <sup>(١)</sup> » ، وعن جملة من أصحاب نبيه بقوله : « إِنَّمَا اسْتَرْهَمَ الشَّيْطَانُ بَعْضَ مَا كَسَبُوا » <sup>(٢)</sup> فالجواب ما ذكر ، وهو أنه ليس له سلطان على قلوبهم ، ولا موضع إيمانهم ، ولا يقيمهم في ذنب يؤللهال عدم القبول ، بل تزيله التوبة وتحوه الأوبة . ولم يكن خروج آدم عقوبة لما تناول ؛ على ما تقدم في « البقرة » بيانه . وأما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقد مضى القول عنهم في آل عمران <sup>(٣)</sup> . ثم إن قوله سبحانه : « لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » بمحمل أن يكون خاصا فيمن حفظه الله ، ويحتمل أن يكون في أكثر الأوقات والأحوال ، وقد يكون في تسلطه تفرج كربة وإزالة غمة ؛ كما فعل ببلال ، إذ أنه يهتدي كما يهتدى الصبي حتى نام ، ونام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس ، وفزعوا وقالوا : ما كفارة ما صنعنا بتقربنا في صلاتنا ؟ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ فِي النُّومِ تَقَرُّبٌ » ، ففزع عنهم . ( إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ النَّارِ ) أي الضالين المشركين . أي سلطانه على هؤلاء ، دليله « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُتَشِيرُونَ » <sup>(٤)</sup> .

الثانية - وهذه الآية والتي قبلها دليل على جواز استثناء القليل من الكثير والكثير من القليل ، مثل أن يقول : عشرة إلا درهما . أو يقول : عشرة إلا تسعة . وقال أحمد ابن حنبل ، لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فما دونه . وأما استثناء الأكثر من الجملة فلا يصح . ودليلنا هذه الآية ، فإن فيها استثناء « النافرين » من العباد والعباد من النافرين ، وذلك يدل على أن استثناء الأقل من الجملة واستثناء الأكثر من الجملة جائز .

قوله تعالى ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿١٤﴾

(١) آية ٣٦-سورة البقرة . (٢) آية ٩٥٥ سورة آل عمران ج ٤ ص ٢٤٣ طبعة دار الفكر الثانية .

(٣) راجع ج ١ ص ٣٢٤ طبعة ثانية دار الفكر . (٤) آية ١٠٠ سورة النمل .

قوله تعالى : ( وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْجِعُهُمْ أَجْمَعِينَ ) يعني إبليس ومن اتبعه . ( هَـا سبعة أبواب ) أي أطباق ، طبق فوق طبق . ( لكل باب ) أي لكل طبقة ( منهم جزء مقسوم ) أي حظ معلوم . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إبراهيم أبو هارون القنوي قال : سمعت حطان ابن عبد الله الرقاشي يقول سمعت علياً رضي الله عنه يقول : هل تلهون كيف أبواب جهنم ؟ قلنا : هي مثل أبوابنا . قال لا ، هي هكذا بعضها فوق بعض ، - زاد الثعلبي - ووضع إحدى يديه على الأخرى - وأن الله وضع الجنان على الأرض ، واليران بعضها فوق بعض ، فأسفلها جهنم ، وفوقها الحطمة ، وفوقها سقر ، وفوقها الجحيم ، وفوقها لظى ، وفوقها السمير ، وفوقها الهاوية ، وكل باب أشد حرام من الذي يليه سبعين مرة .

قلت : كتبا وقع هنا التفسير . والذي عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الذرركات ، وهي ضيقة بالمصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي التي تخل من أهلها تنصفق الرياح أبوابها . ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم سمير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية . قال الضحاك : في اللوك الأعلى للمحمديون ، وفي الثاني النصاري ، وفي الثالث اليهود ، وفي الرابع الصابئون ، وفي الخامس المجوس ، وفي السادس مشركو العرب ، وفي السابع المنافقون وآل فرعون حين كفر من أهل الملائكة . قال الله تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي النَّارِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » - وقد تقدم في النساء - ، وقال : « أَذْخَلُوا لَمَلٍ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » ، وقال : « قَدْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ قَائِلٌ أَعْدَيْهِ عَذَابًا لَا أَعْدَيْهِ أَحَدًا مِنَ الْعَالِينَ » . وقسم معاذ بن جبل رضي الله عنه الملائكة التسعة من هذه الأمة تقسيما على تلك الأبواب ، ذكرناه في كتاب ( التذكرة ) .

وهو في التوماني من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لجهنم سبعة أبواب باب من لم يلق سئل منه على أمته " قال : حديث غريب . وقال أبو بن كعب : لجهنم سبعة أبواب باب منها للحرورية . وقال وهب بن منبه : بين كل بابين مسيرة سبعين

(١) راجع ج ٤ ص ٤٢٤ طبعة أول أو ثالثة . (٢) آية ٤٦ - سورة فاطر . (٣) آية ١١٥ - سورة المائدة .

(٤) في كتاب التوراة النبوي : « قال كعب رضي الله عنه : للشيعة نور ، ولبن قاتل الحرورية عشرة أنوار » . وكذا يقول : لجهنم سبعة أبواب ، باب منها للحرورية . قال : ولقد خرجوا في زمان داود عليه السلام .

سنة، كل باب أشد حرًا من الذي فوقه بسبعين ضعفا. وقد ذكرنا هذا كله في كتاب التذكرة.  
وروى سلام الطويل عن أبي سفيان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم  
في قول الله تعالى : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » جزء أشركوا بالله، وجزء  
شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله، وجزء آثروا شهواتهم على الله، وجزء شفقوا غيظهم  
بغضب الله، وجزء صبروا رغبتهم بغيظهم من الله، وجزء عتوا على الله . ذكره الحلي  
أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب (منهاج الدين) له، وقال : فإن كان ثابتا فالمشركون  
بالله هم التتوية . والشاكرون هم الذين لا يدرون أن لهم إلها أولا إله لهم، ويشكون في شريعته  
أنها من عنده أم لا . والعاقلون عن الله هم الذين يصدقونه أصلا ولا ينبتونه، وهم الدهرية .  
والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون في المعاصي ؛ لتكذيبهم رسل الله وأمره ونبيه .  
والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله وسائر الداعين إليه ، المذبذبون من ينصح  
لهم أو يذهب غير مذهبه . والمصبرون رغبتهم بغيظهم من الله هم المتكرون بالبعث والحساب ؛  
فهم يبيعون ما يرغبون فيه، لهم جميع حظهم من الله تعالى . والعاقلون على الله الذين لا يبالون،  
بأن يكون ما هم فيه حقا أو باطلا، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون . والله أعلم بما  
أراد رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت الحديث . وروى أن سلمان الفارسي رضي الله عنه  
قال سمع هذه الآية « وإن جهنم لموعدهم أجمعين » فتر ثلاثة أيام من الخوف لا ينقل ،  
فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : يا رسول الله ؛ أنزلت هذه الآية  
« وإن جهنم لموعدهم أجمعين » ؟ فوالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي ؛ فأنزل الله تعالى  
« إن المتقين في جنات وعيون » . وقال بلال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي  
في مسجد المدينة وحده ، فمرت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها، فقرأ رسول الله  
صلى الله عليه وسلم هذه الآية « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » فخرت  
الأعرابية مفشياً عليها ، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم وجبتها فانصرف ودعا بماء فصب

على وجهها حتى أفادت وجلست ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا هذمه مالك ؟ " فقالت : أهدأ شيء من كتاب الله المنزل ، أو قوله من تلقاء نفسك ؟ فقال : " يا أعرابية ، بل هو من كتاب الله تعالى المنزل " فقالت : كل عضو من أعضائي يعذب على كل باب منها ؟ قال : " يا أعرابية ، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب أهل كل منها على قدر أعمالهم " فقالت : والله إنني امرأة مسكينة ، ماله مال ، ومالي إلا سبعة أعبد ، أشهدك يا رسول الله ، أن كل عبد منهم عن كل باب من أبواب جهنم حر لوجه الله تعالى . فأناه جبريل فقال : " يا رسول الله ، بشر الأعرابية أن الله قد حرم عليها أبواب جهنم كلها وفتح لها أبواب الجنة كلها . "

قوله تعالى : **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴿٥٥﴾ **أَدْخُلُوها** **يَسْلَمُونَ**

### تَأْمِينٌ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : **( إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ )** أي الذين اتقوا الفواحش والشرك . **( فِي جَنَّاتٍ )** أي بساتين . **( وَعُيُونٍ )** هي الأنهار الأربعة : ماء وحمر ولبن وعسل . وأما العيون المذكورة في سورة « الإنسان » ، الكافور والزعجيل والسلسبيل ، وفي « المطففين » ، التسميم ، فبأن في كرها وأهلها إن شاء الله . وضم العين من « عيون » على الأصل ، والكسر مراعاة للياء ، وقرئ بهما . **( أَدْخُلُوها يَسْلَمُونَ )** قراءة العامة « ادخلوها » بوصل الألف وضم النظامه من دخل يدخل ، على الأمر . تقديره : قيل ادخلوها . وقرأ الحسن وأبو الغالية ورويس عن يعقوب « ادخلوها » بضم التنوين ووصل الألف وكسر الحاء على الفعل المجعول ، من أدخل . أي أدخلهم الله إياها . ومنههم كسر التنوين في مثل « رحية أدخلوا الجنة » وشبهه ؛ إلا أنهم هاهنا اتقوا حركة الهمزة على التنوين ؛ إذ هي ألف قطع ، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيثقل على اللسان . **( يَسْلَمُونَ )** أي بسلامة من كل داء وآفة . وقيل : بتحية من الله لهم . **( آمِينَ )** أي من الموت والعذاب والعزل والزوال .

قوله تعالى : وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٢١﴾ لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ﴿٢٢﴾

قال ابن عباس : أول ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عيان ، فيشربون من إحدى العينين فيذهب الله ما في قلوبهم من غل ، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم ، ويجرى عليهم نضرة النعيم ، ونحوه عن علي رضي الله عنه . وقال علي بن الحسين : نزلت في أبي بكر وعمر وعلي والصحابية ، يعني ما كان بينهم في الجاهلية من القتل . والقول الأول أظهر ، يدل عليه سياق الآية . وقال علي رضي الله عنه : أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء . والنزل : الحقد والمداواة ، يقال منه : غل يغل . ويقال من الغلول وهو السرقة من المنعم : غل يغل . ويقال من الخيانة : أغل يغسل . كما قال :  
جزى الله عنا حمزة بنه نوفل \* جزاه مغسل بالأمانة كادب

وقد مضى هذا في آل عمران <sup>(٢١)</sup> ، ( إخواناً على سُرُرٍ متقابلين ) أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلًا وتحابًا ، عن مجاهد وغيره . وقيل : الأسيرة تدور كيفما شاءوا ، فلا يرى أحد قفا أحد . وقيل : « متقابلين » قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهم بالود . وسُرر جمع سرير . مثل جديد وجدد . وقيل : هو من السرور ، فكأنه مكان رفيع مهيأ للسرور . والأول أظهر . قال ابن عباس : على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر ، السرير ما بين صبيعتي إلى الجانية وما بين عدن إلى أيلة . « وإخواناً » نصب على الحال من « المتقين » <sup>(٢٢)</sup>

(١) البيت للبرقي نزل من أبيات في أم أولاده . وكان من حديثها أن أناء الحارث بن نوفل مبد قومه آثار على بني أسد فسي منهم امرأة منهم يقال لها « حمزة بنت نوفل » فوهبا لأخيه انفرقتكته فحبسا حتى استقرت وولدت له أولادا ، ثم قالت له في بعض أيامها : إني قد اشتقت إلى أهل ، فقال لها : إني أخاف أن صرت إلى أهلك أن تغلبني على نفسك فوافقتك لرجع إلي ، ثم خانت عهده . (راجع الأغانى ج ١٩ ص ١٥٨ طبع بولاق) .  
(٢) راجع ج ٤ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية . (٣) صفاء : موضعان ، أحدهما بالبصرة وهي النظمي ، وأخرى قرية بالفرقة . والجانية : قرية من أعمال دمشق . وعدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . وأيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر . (عن معجم البلدان)

أو من المضر في « ادخلوها » ، أو من المضر في « آمنين » ، أو يكون حالا مقدرة من المأه والميم في « صدورهم » . ( لَا يَسْمُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ) أي إعياء وتعب . ( وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ) دليل على أن نعيم الجنة دائم لا يزول ، وأن أهلها فيها باقون . أكلها دائم ، « إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ قَدَازٍ » .

قوله تعالى : نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿١٠٢﴾

هذه الآية وزان قوله عليه السلام : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجهنم أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قُتِلَ من رحمته أحد » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . وقد تقدم في الفاتحة . وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره فيخوف ويرجي ، ويكون الخوف في الصحة أغلب عليه منه في المرض . وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم نرجع على الصحابة وهم يضحكون فقال : « أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار » فتزلت عليهم فزلت الآية . ذكره الماوردي والمهدي . ولفظ التعلي عن ابن عمر قال : أطلع علينا النبي صلى الله عليه وسلم من الباب الذي يدخل منه جهنمية ونحن نضحك فقال : « ما لكم تضحكون لا أراكم تضحكون » ثم أدر حتى إذا كان عند الحجر رجع القهقري فقال لنا : « إني لما خرجت جاءني جبريل فقال يا محمد لم تقط عبادي من رحمتي » نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وأن عذابي هو العذاب الأليم » . فالقنوط إياس ، والرجاء إهمال ، وخير الأمور أوساطها .

قوله تعالى : وَبَيَّنَّهُمْ عَنْ ضَيْفٍ لِبَرْهِيمَ ﴿١٠٣﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿١٠٤﴾ قَالُوا لَا تَوَجَلْ إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿١٠٥﴾ قَالَ أَبَشِّرْهُنَّ بِمَا نَبَشِّرُونَ ﴿١٠٦﴾

(١) آية : سورة من . (٢) تابع : ١ من ٢٢٩ طية الآية ١٠٦ .

قوله تعالى : ( وَبَنَيْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ) ضَيْفُ إِبْرَاهِيمَ : الملائكة الذين بشروه بالولد وهلاك قوم لوط . وقد تقدم ذكرهم . وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب ليلا يفوته أحد . وسمى الضيف ضيفا لإضافته إليك وزوله عليك . وقد مضى من حكم الضيف في « هود » ما يكتفى والحمد لله . ( إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ) جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر . ضافه وأضافه أماله ؛ ومنه الحديث « حين تضيف الشمس للغروب » ، وضيفوفة السهم ؛ والإضافة التحوية . ( فَقَالُوا سَلَامًا ) أى سلموا سلاما . ( قَالَ إِنَا مِنْكُمْ وَجِئْتُكُمْ ) أى فزعون خائفون ، وإنما قال هذا بعد أن قرب العجل ورأى لا يأكلون ، على ما تقدم في هود . وقيل : أنكر السلام ولم يكن في بلادهم رسم السلام . ( قَالُوا لَا تَوْجَلْ ) أى قالت الملائكة لا تخف . ( إِنَا بُشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ) أى حلم ، قاله مقاتل . وقال الجمهور ، عالم . وهو إسماعيل . ( قَالَ أَنْبِئُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسْنِي الْكِبَرِ ) « أنب » مصدرية ؛ أى على مس الكبر إياي وزوجي ، وقد تقدم في هود وإبراهيم ؛ حيث يقول : « قِيمُ بُشِّرُونَ » استفهام تعجب . وقيل : استفهام حقيق . وقرا الحسن « توجل » بضم التاء . والأعشى « بشرتموني » بغير ألف ، ونافع وشيبة « بُشِّرُونَ » بكسر النون والتخفيف ؛ مثل « اتعاجوني » وقد تقدم تعليقه . وقرا ابن كثير وابن عيص « بُشِّرُونَ » بكسر النون مشددة ، فسديره تبشرونني ، فأدغم النون في النون . الساقون « تبشرون » بنصب النون بغير إضافة .

قوله تعالى : قَالُوا بُشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تُكِنِّ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ( قَالُوا بُشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ) أى بما لاخلف فيه ، وأن الولد لا بد منه . ( فَلَا تُكِنِّ مِنَ الْقَانِطِينَ ) أى من الآيسين من الولد ، وكان قد آيس من الولد القسوط

- (١) راجع ج ٩ ص ٦٢ طبة أول أرثانية .  
 (٢) راجع ج ٩ ص ٦٤ طبة أول أرثانية .  
 (٣) صاف النهم : مغل من المذهب أرثانية .  
 (٤) راجع ج ٩ ص ٦٥ طبة أول أرثانية .  
 (٥) راجع ج ٩ ص ٦٦ طبة أول أرثانية .

الكبر . وقراءة السامة « من القانطين » بالآلف . وقرأ الأعشى ويحيى بن وثاب « من القنطين » بلا ألف . وروى عن أبي عمرو . وهو مقصور من « القانطين » . ويجوز أن يكون من لغة من قال : قَنِطُ يَقْنُطُ ؛ مثل حَنْزٍ يَحْزُرُ . وفتح النون وكسرها من « يقنط » لثنتان قرئ بهما . وحكى فيه « يَقْنُطُ » بالضم . ولم يأت فيه « قَنِطُ يَقْنُطُ » . [و] من فتح النون في الماضي والمستقبل فإنه جمع بين اللغتين ، فأخذ في الماضي بلغة من قال : قَنِطُ يَقْنُطُ ، وفي المستقبل بلغة من قال : قَنِطُ يَقْنُطُ ؛ ذكره المهدوي .

قوله تعالى : قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

أى المكذبون الزاهبون عن طريق الصواب . يعنى ، أنه استبعد الولد لكبر مسنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا خَطْبُكَ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُجْرِمُهُمْ أُجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرًا نَقْدِرْنَا إِنَّهَا لَمِنْ أَلْغَايِيرِ ﴿٦٠﴾

فيه مسائل :

الأولى - لما علم أنهم ملائكة - إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو بشرهم بالولد - قال : فما خطبك ؟ والخطب الأمر الخطير . أى فما أمركم وشأنكم وما الذى جئتم به . ( قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ) أى مشركين ضالين . وفي الكلام إحصاء ؛ أى أرسلنا إلى قوم مجرمين لتلكهم . ( إِلَّا آلَ لُوطٍ ) أتباعه وأهل دينه . ( إِنَّا لَمُجْرِمُهُمْ ) وقرأ حمزة والكسائي « لَمُجْرِمُهُمْ » بالتخفيف من أنجى . الباقيون : بالتشديد من أنجى ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . والتنجية والإنجاء التخليص . ( إِلَّا أَمْرًا نَقْدِرْنَا ) استثنى من آل لوط همراهم وكانت كاثرة فالتفت بالمجرمين في المهلاك . وقد تقدمت قصة قوم لوط

في « الأعراف » و « سورة هود » <sup>(٢١)</sup> بما فيه كفاية . ( قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْقَائِرِينَ ) أى فضينا  
وكتبنا لمن الباقيين في العذاب . والغابر : الباقي .  
قال : <sup>(٢٢)</sup>

لا تكسع الشؤل بأغبارها \* إنك لا تدري من النّاس

الأغبار بقايا اللّبن . وقرأ أبو بكر والمفضل « قَدَرْنَا » بالتخفيف هنا وفي النّسل ، وشدد  
الباقون . الهروى : يقال قدر وقدر ، بمعنى .

الثانية — لا خلاف بين أهل اللسان وضيهم أن الاستثناء من النفي إثبات ومن  
الإثبات نفي ، فإذا قال رجل : له على عشرة دراهم إلا أربعة . إلا درهما ، ثبت الإقرار  
بسبعة ؛ لأن الدرهم مستثنى من الأربعة ، وهو مثبت لأنه مستثنى من نفي ، وكانت الأربعة  
منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة ، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة . وكذلك  
لو قال : على خمسة دراهم إلا درهما إلا ثلثه ؛ كان عليه أربعة دراهم وثلاث . وكذلك إذا  
قال : لفلان على عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة ؛ كان الاستثناء الثاني راجعا إلى ما قبله ،  
والثالث إلى الثاني فيكون عليه درهما ؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها  
ثمانية عشر . والتسعة نفي والسبعة نفي فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهما ؛  
وهو القدر الواجب بالإقرار لا غير . فقوله سبحانه : « إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . إِلَّا  
آلَ لُوطٍ إِنَّا لَنَجِّيهِمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا أَمْرًا نَّه » فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين ، ثم قال :  
« إِلَّا أَمْرًا نَّه » فاستثناه من آل لوط ، فرجعت في التأويل إلى القوم المجرمين كما بينا . وهكذا  
الحكم في الطلاق ، لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين إلا واحدة طلقت ثنتين ؛ لأن  
الواحدة رجعت إلى الباقي من المستثنى منه وهى الثلاث . وكذا كل ما جاء من هذا فتفهّمه .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٣ طبة أدل أد ثانية . ٢٠ (٢) راجع ج ٩ ص ٦٢ طبة أدل أد ثانية .

(٣) القائل هو الحارث بن حَزَرة . والكسع : ضرب ضرع الناقة بالماء البارد ليحف لبنها ويزا في ظهرها فيكون  
أقوى لها على الجذب في العام التالي . والشؤل : جمع شائلة وهى من الإبل التى أبق عليها من عليها أبوهمها سبعة  
أشهر تخلف لبنها . والأغبار : جمع الغبر ، وهى بقية اللبن فى الضرع (٤) فى قوله تعالى : « فَأَعْيَيْنَا زَوْجَهَا » الآية ٧٥ .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٩﴾ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يَقْطِيعُ مِنَ الْبَيْلِ وَأَتَّبِعْ أَذْبَرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ( فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ) أى لا أعرفكم . وقيل : كانوا شبابا ورأى جمالا غلظ عليهم من فتنة قومه ، فهذا هو الإنكار . ( قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ) أى يشكون أنه نازل بهم ، وهو العذاب . ( وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ) أى بالصدق . وقيل : بالعذاب . ( وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ) أى فى هلاكهم . ( فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يَقْطِيعُ مِنَ الْبَيْلِ ) تقدم فى هود . ( وَأَتَّبِعْ أَذْبَرَهُمْ ) أى كن من ورائهم لئلا يختلف منهم أحد فىئاله العذاب . ( وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ) نُهَوِا عن الالتفات ليجتنبوا فى السير ويتابعوا عن القرية قبل أن يهاجمهم الصبح . وقيل : المعنى لا يختلف . ( وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ) قال ابن عباس : يعنى الشام . مقاتل : يعنى صفد ، قرية من قرى لوط . وقد تقدم . وقيل : أنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له البقين ، وإنما سمي البقين لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيعهم ، فقال لجبريل : من أين يخسف بهم ؟ قال : " من ها هنا " وحده له حدا ، وذهب جبريل ، فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب ، فلما لعنت الأرض قال إبراهيم : " أيقنت بالله " فسمى البقين .

قوله تعالى : وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٧١﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٧٢﴾ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ صَبَّيْ فَلَا تَقْضَحُونِ ﴿٧٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٧٤﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ قٰعِلِينَ ﴿٧٦﴾

(١) راجع ١٠٠٠ من تفسير ابن جرير .

قوله تعالى : ( وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ) أى أوحينا إلى لوط . ( ذَلِكَ الْأَمْرُ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ) فظنهم « قَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » . ( مُصْبِحِينَ ) أى عند طلوع الصبح . وقد تقدم . ( وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ) أى أهل مدينة لوط ( يَسْتَشِيرُونَ ) مستبشرين بالأضياف طمعا منهم فى ركوب الفاحشة . ( قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي ) أى أضيافى . ( فَلَا تَفْضَحُونِ ) أى تخجلون . ( وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ) يحوز أن يكون من الخزي وهو الذل والموان ، ويجوز أن يكون من الخزاية وهو الحياء والجل . وقد تقدم فى هود . ( قَالُوا أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْ الْأَمَلِينَ ) أى عن أن تضيف أحدا لأننا نريد منهم الفاحشة . وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء ، عن الحسن . وقد تقدم فى الأعراف . ( قِيلَ : أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ فِي أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِذَا قَصَدْتَهُ بِالْفَاحِشَةِ . ) ( قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ قَائِلِينَ ) أى قريووهن ولا تركنوا إلى الحرام . وقد تقدم بيان هذا فى هود .

قوله تعالى : لَعَنَّاكَ أَتَيْنَهُمْ فِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٧)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال القاضى أبو بكر بن العربي : قال المقصرون بأجمعهم أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا له ، أن قومه من قريش فى سكرتهم يعمهون وفى حديثهم يترددون .

قلت : وهكنا قال القاضى عياض : أجمع أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله ببل جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم . وأصله ضم العين من العمر ولكننا فصحت لكثرة الاستعمال . ومعناه وبقاتك يا محمد . وقيل وحياتك . وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف . قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أكرم البرية عنده . قال ابن العربي : وما الذى يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف

(١) راجع ج ٦ ص ٤٢٧ طبة أول أدلة . (٢) راجع ج ٩ ص ٧٧ طبة أول أدلة .

(٣) راجع ج ٧ ص ٤٥٥ طبة أول أدلة . (٤) راجع ج ٩ ص ٧٧ طبة أول أدلة .

ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتي ضعفه من شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أكرم على الله منه؛ أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخليل وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد، فإذا أقسم بحياة لوط بحياة جد أرفع. ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يخرج له ذكر لغير ضرورة.

قلت: ما قاله حسن؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة جد صلى الله عليه وسلم كلاما معترضا في قصة لوط. قال القشيري أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم في تفسيره: ويحتمل أن يقال: يرجع ذلك إلى قوم لوط، أي كانوا في سكرتهم يعمهون. وقيل: لما وعظ لوط قومه وقال هؤلاء بناتي قالت الملائكة: يا لوط، «لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون» ولا يدرون ما يحل بهم صباحا. فإن قيل: فقد أقسم تعالى بالتين والزيتون وطور سينين؟ فما في هذا؟ قيل له: ما من شيء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضله على ما يدخل في عداده، فكذلك نبينا صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون أفضل ممن هو في عداده. والعمر والعمر (بضم العين وتحتها) لثان ومعناها واحد؛ إلا أنه لا يستعمل في القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال. وتقول: عمرك الله، أي أسأل الله تعميرك. و«لعمرك» رفع بالابتداء وخبره محذوف. المعنى لعمرك ما أقسم به.

الثانية - كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمري؛ لأن معناه حياي. قال لأبراهيم النخعي: يكره للرجل أن يقول لعمري؛ لأنه حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضعفة الرجال. ونحو هذا قال مالك: إن المستضعفين من الرجال والمؤثنين يقسمون بحياتكم ومهشك، وليس من كلام أهل الذكوان، وإن كان الله سبحانه أقسم به في هذه القصة، فذلك بيان لشرف المترلة والرفعة لمكانته، فلا يحل عليه سواء ولا يستعمل في غيره. وقال ابن حبيب: ينبغي أن يصرف «لعمرك» في الكلام لهذه الآية. وقال قتادة: هو من كلام العرب. قال ابن العربي: وبه أقول، لكن الشرع قد قطعه في الاستعمال ورد القسم إليه. قلت: القسم «لعمرك ولعمري» ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها كثير.

قال النابغة .

لَعْمَرِي وَمَا تَعْمَرِي عَلَى بَهَيْنٍ \* لَقَدْ نَطَقْتُ بَطْلًا عَلَى الْأَمَارِجِ  
أَخْسِرُ :

لَعْمَرَكُ إِنْ مَوْتَ مَا أَخْطَا الْفَتَى \* لِكَالطُّوْلِ الْمُرْتَضَى وَنَيْبَاهُ بِالْيَدِ  
أَخْسِرُ ،

أَيُّهَا الْمَنْجَحُ السُّتْرِيَا سُهَيْلًا \* عَمَّرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَنْتَقِيَانِ  
أَخْسِرُ ،

إِذَا رَضِيتُ عَلَى بَنُو قَسِيرٍ \* لَعْمَرُ اللَّهِ أَعْجَبَنِي رَضَاهُ  
وقال بعض أهل المعاني : لا يجوز هذا ؛ لأنه لا يقال لله عمر ، وإنما هو تعالى أزل .  
ذكره الزهراوى .

الثالثة - قد مضى الكلام فيما يُلْحَقُ بِهِ وَمَالًا يجوز الخلف به في « الثالثة »  
وذكرنا هناك قول أحد بن حنبل فيمن أفسم بالنبي صلى الله عليه وسلم لزمته الكفارة . قال ابن  
خويزمendant : من جَوَزَ الخلف بغير الله تعالى مما يجوز تعظيمه بحق من الحقوق فليس بقوله  
إنها بمن تتعلق بها كفارة ؛ إلا أنه من قصد الكذب كالمعلوم ؛ لأنه في الباطن مستخف بما  
وجب عليه تعظيمه . قالوا : وقوله تعالى « لعمرك » أى وحياتك . وإذا أفسم الله تعالى  
بحياة نبيه فإنما أراد بيان التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نخلف بحياته . وعلى مذهب مالك  
معنى قوله : « لعمرك » و « التين والزيتون » و « الطور » و « كتاب المسطور » و « النجم إذا  
هوى » و « الشمس وضحاها » « لا أقسم بهذا البلد . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَوَالِدُ مَا وَلَدَ »  
كل هذا معناه : وخالق التين والزيتون ، ورب الكتاب المسطور ، ورب البلد الذى حلت به ،  
وخالق عيشك وحياتك ، وحق محمد ، فاليمين والقسم حاصل به سبحانه لا بالخلق . قال  
ابن خويزمendant : ومن جَوَزَ اليمين بغير الله تعالى تأول قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تحلفوا »

(١) أراد بالأنارح بن فريع بن عوف ، وكانوا قد دعوا به إلى النيات . (٢) البيت قوله رب العبد .  
والطور : الجبل . وتباه : ما تسمى به (٣) وأبجع : من جحد . وما يدعاه عليه تأمل طرائفه .

بآبائكم" وقال : إنما نهى عن الحلف بالآباء الكفار، ألا ترى أنه قال لما حلفوا بآبائهم :  
 "لجليل عند الله أكرم من آباءكم الذين ماتوا في الجاهلية" . ومالك حل الحديث على ظاهره .  
 قال ابن خزيمة منقاد : واستدل أيضا من جوز ذلك بأن إيمان المسلمين جرت منذ عهد  
 النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا أن يحلفوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، حتى أن أهل  
 المدينة إلى يومنا هذا إذا حاكم أحدهم صاحبه قال : احلف لي بحق ما حواه هذا القبر ،  
 وبحق ساكن هذا القبر ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بالجرم والمشاعر العظام ،  
 والركن والمقام والحراب وما يتلى فيه .

قوله تعالى : فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٦﴾ جَعَلْنَا عَلَيْهَا مَابِلًا  
 وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مِحْرَافًا مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ( فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ) نصيب على الحال ، أى وقت شروق  
 الشمس . يقال : أشرقت الشمس أى أضاءت ، وشرقت إذا طلعت . وقيل : هما لفتان  
 بمعنى . وأشرق القوم أى دخلوا فى وقت شروق الشمس . مثل أصبحوا وأمسوا ، وهو  
 المراد فى الآية . وقيل : أراد شروق الفجر . وقيل : أول العذاب كان عند الصبح واستند إلى  
 شروق الشمس ، فكان تمام الحلاك عند ذلك . والله أعلم . و « الصيحة » العذاب .  
 وهذا ذكر « سيجيل » .

قوله تعالى : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾  
 قيسه صالح :

الأولى - قوله تعالى : ( لِلْمُتَوَسِّمِينَ ) روى الترمذى الحكيم فى ( نوادر الأصول ) من  
 حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « للمتوسمين » وهو  
 فوق جامده . وروى أبو عيسى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله  
 عليه وآله وسلم : ( رابع : من هو عليه ألباب ) .

عليه وسلم : « أتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ — ثُمَّ قَرَأَ — » إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ » . قال : هذا حديث غريب . وقال مقاتل وابن زيد : للتوسمين للتفكيرين . الضحاك : للناظرين . قال الشاعر :

أَوْكَلْنَا وَرَدَّتْ عَكَظَ قَيْلَةٍ • بَعَثُوا إِلَى عَمْرِقَهُمْ يَتَوَسَّمِ

وقال قتادة : للعتبرين . قال زهير :

وَفِيهِمْ مَلْهُوٌّ لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ • أُنِيقُ لِعَيْنِ النَّاطِرِ التَّوَسِّمِ

وقال أبو عبيدة : للتبصرين ، والمعنى متقارب . وروى الترمذی الحسکیم من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ لِقََّ عَزْرٌ عَابِدًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ » . قال العلماء : التَّوَسُّمُ تَفَعَّلَ مِنَ التَّوَسَّمَ ، وهي العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها . يقال : تَوَسَّمتُ فِيهِ الْخَلِيرَ إِذَا رَأَيْتَ مِيسَمَ ذَلِكَ فِيهِ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ عُمَرَ بْنِ الْوَلَاءِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

إِنِّي تَوَسَّمتُ فِيكَ الْخَلِيرَ أَعْرِفْهُ • وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي ثَابِتُ الْبَصَرِ

آخر :

تَوَسَّمتُهُ لَمَّا رَأَيْتُ مَهَابَةً • عَلَيْهِ وَقَلَّتِ الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

وَأَسَمَ الرَّجُلُ إِذَا جَعَلَ لِنَفْسِهِ عَلَامَةً يُعْرِفُ بِهَا . وَتَوَسَّمَ الرَّجُلُ طَلَبَ كَلَاءَ الْوَسْمِيِّ . وَأَشْدُّ : وَأَصْبَحَ كَالَّذِي تَوَسَّمَ النُّوَامِغَ غُدُوَّةً • عَلَى وَجْهِهِ مِنْ ظُلَمٍ مُتَوَسِّمٍ

وقال ثعلب : الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك . وأصل التَّوَسُّمِ التَّنْبِيتُ والتَّفَكُّرُ ؛ مَاخُذٌ مِنَ الْوَسْمِ وهو التأثير بمعدية في جلد البعير وغيره ، وذلك يكون بجودة القريضة وحدة الخاطر وصفاء الفكر . زاد غيره : وتفرغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهيره من أدناس المعاصي وكبورة الأخلاق وفضول الدنيا . روى تَشَلُّلٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ « لِلتَّوَسِّمِينَ » قَالَ وَ لِأَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ . وَزَعَمَتِ الصُّوفِيَّةُ أَنَّهَا كَرَامَةٌ . وَقِيلَ : بَلْ هِيَ اسْتِدْلَالٌ بِالْعَلَامَاتِ ،

ومن العلامات ما يبدو ظاهرا لكل أحد وبأول نظرة ، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك مبادئ النظر . قال الحسن : المتوسمون هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذي أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار ؛ فهذا من الدلائل الظاهرة . ومثله قول ابن عباس : ما سألني أحد عن شيء إلا عرفت أفتيه هو أو غير فتية . وروى عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما : أراه نجارا ، وقال الآخر : بل حدادا ، فتبادر من حضري إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجارا وأنا اليوم حداد . وروى عن جُنْدُب بن عبد الله البجلي أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال : من سمع سمع الله به ، ومن رأى رأى الله به . فقلنا له : كأنك عرفت بهذا الرجل ، فقال : إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غدا حروريا ؛ فكان رأس الحرورية ، واسمه مرداس . وروى عن الحسن البصري أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال : هذا سيد فتيان البصرة إن لم يجِدْ ، فكان من أمره من القدر ما كان ، حتى هجره طامة إخوانه . وقال لأبيوب : هذا سيد فتيان أهل البصرة ، ولم يستن . وروى عن الشعبي أنه قال للباقر الأزدي وهو يماريه : إنك لا تموت حتى تموت في رأسك ، وكان كذلك . وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه قوم من مدحج فيهم الأشتر ، فصعد فيه النظر وصوبه وقال : أيهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث . فقال : ما له قاتله الله ! إني لأرى المسلمين منه يوما عصيا ؛ فكان منه في الفتنة ما كان . وروى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : أن أنس بن مالك دخل عليه ، وكان قد مرَّ بالسوق فنظر إلى امرأة ، فلما نظر إليه قال عثمان : يدخل أحدكم علي وفي عليه أثر الزنى ! فقال له أنس : أوجبا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لا ! ولكن برهان وقراسة وصديق . ومثله كثير عن الصعابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين .

الثانية - قال أبو بكر بن العربي : وإذا ثبت أن التوسم والتفرس من مدارك المعاني لأن ذلك لا يقرب إليه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرس . وقد كان قاضي القضاة للشام المالكى يفتاد أيام كونه بالشام يحكم بالفراسة في الأحكام ، جزيا على طريق إياس

ابن معاوية أيام كان قاضياً ، وكان شيخنا نحر الإسلام أبو بكر الشاشي صنف جزءاً في الرد عليه ، كتبه لي بخطه وأعطانيه ، وذلك صحيح ، فإن مدارك الأحكام معلومة شرعاً مدركة قطعاً وليست القِرَاسة منها .

قوله تعالى : **وَإِنَّمَا لِبَيْسٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾** وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٨٠﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : **( وَإِنَّمَا )** يعني فرى قوم لوط . **( لِبَيْسٍ مُّبِينٍ )** أي على طريق قومك يا محمد إلى الشام . **( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ )** أي لعدة للصدقين . **( وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ )** يريد قوم شعيب ، كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر مثمر . والأَيْكَةُ : القَيْضَةُ ، وهي جماعة الشجر ، والجمع الأَيْكُ . ويرى أن شجرهم كان دوماً وهو المقل . قال النابغة ،

تَجَلَّوْا بِقَادِ مَتَى حَمَاسَةِ أَيْكَةٍ • بَرْدًا أَيْسَفُ لِنَاسِهِ بِالْإِنْمَةِ

وقيل : الأَيْكَةُ اسم القرية . وقيل اسم البلدة . وقال أبو عبيدة : الأَيْكَةُ وَلَيْكَةُ مدينتهم بمكة من مكة . وتقدم خبر شعيب وقومه . **( وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ )** أي بطريق واضح في نفسه ، يعني مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأَيْكَةِ يعتبر بهما من يزد طبعهما .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْجَبْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٢﴾**

الجبر ينطلق على معان : منها حجر الكعبة ، ومنها الحرام ، قال الله تعالى : **« وَحِجْرًا مَّحْجُورًا »** أي حراماً محرماً . والجبر العقل ، قال الله تعالى : **« لِّذِي حِجْرٍ »** <sup>(١)</sup> والجبر حجر القميص ، والفتح أفصح . والجبر الفرس الأثني . والجبر ديار ثمود ، وهو المراد هنا ، أي المدينة ؛

قاله الأزهري . قنادة : وهي ما بين مكة وتبوك ، وهو الوادي الذي فيه نمود . الطبري :  
 هي أرض بين انجواز والشام ، وهم قوم صالح . وقال : ( المرسلين ) وهو صالح وحده ،  
 ولكن من كذب نبياً فقد كذب الأتياء كلهم ؛ لأنهم على دين واحد في الأصول فلا يجوز  
 التفريق بينهم . وقيل : كذبوا صالحاً ومن تبعه ومن تقدمه من النبيين أيضاً . والله أعلم .  
 روى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر في غزوة تبوك  
 أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عجننا وأستقينا . فأمرهم رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم أن يريقوا الماء وأن يطرحوا ذلك العجين . وفي الصحيح عن ابن عمر  
 أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض نمود ، فاستقوا من آبارها  
 وعجنوا به العجين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريقوا ما استقوا ويطلقوا الإبل  
 للعجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي تردها الناقة . وروى أيضاً عن ابن عمر قال :  
 صررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
 " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم "  
 ثم زجر فأسرع .

قلت : ففي هذه الآية التي بين الشارح حكها وأوضح أمرها ثمان مسائل ، استنبطها العلماء  
 واختلف في بعضها الفقهاء ، فأولها — كراهة دخول تلك المواضع ، وعليها حمل بعض العلماء  
 دخول مقابر الكفار ؛ فإن دخل الإنسان شيئاً من تلك المواضع والمقابر فعل الصفقة التي أرشد  
 إليها النبي صلى الله عليه وسلم من الاعتبار والخوف والإسراع . وقد قال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم : " لا تدخلوا أرض بابل فإنها ملعونة " .

مسئلة : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهرق ما استقوا من بئر نمود وإلقاء ما عجن  
 وشرب به لأجل أنه ماء مخطط ، فلم يجوز الاستفاح به فراراً من مخطط الله . وقال " اعلفوه الإبل " .

قلت : وهكذا حكم الماء النجس ولما يعجن به .. وثانيها — قال مالك : إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلقه الإبل والبهائم ؛ إذ لا تكليف عليها ؛ وكذلك قال في العسل النجس : إنه يعلفه النحل . وثالثها — أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلف ما عجن بهذا الماء الإبل ، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الخمر الإنسانية يوم خيبر ؛ فدل على أن لحم الخمر أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكسب الحجام أن يعلف الناضح والرفيق ، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تجنيس . قال الشافعي : ولو كان حراما لم يأمره أن يطمعه رقيقه ؛ لأنه متمتع فيه كما تمتع في نفسه . ورابعها — في أمره صلى الله عليه وسلم بعلف الإبل المعجن دليل على جواز حمل الرجل النجاسة إلى كلابه لياكلوها ؛ خلافا لمن منع ذلك من أصحابنا وقال : تطلق الكلاب عليها ولا يملأها إليهم . وخامسها — أمره صلى الله عليه وسلم أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثاره الأنبياء والصالحين ، وإن تفادمت أعصارهم وخفيت آثارهم ؛ كما أن في الأول دليل على بغض أهل الفساد وذم ديارهم وآثارهم . وهذا ، وإن كان التحقيق أن الحمدات ضرر مؤاخذات ، لكن المقرون بالمحسوب محبوب ، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض ؛ كما قال كثر .

أحب لحبها السودان حتى • أحب لحبها سود الكلاب

وكما قال آخر .

أمر على الديار ديار ليلي • أقلل ذا الجدار وذا الجدار

وما تلك الديار شغفن قلبي • ولكن حب من سكن الديار

وسادسها — منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دأر مخطئ وبقعة غضب . قال ابن العربي : فصارت هذه البقعة مستثناة من قوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا " فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة

(١) الناضح : البيرسوق عليه . (٢) الرواية المشهورة : «وما حب إلا دار» . والبيان لمحقون ليلي .

(راجع ثلاثة الأدب في الشاهد التعمين بعد الحائتين) .

فيها . وقد روى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلى في سبع مواطن : في المَرْبِية والمَجْزِرة والمَقْبِرة وقارعة الطريق ، وفي الحمام وفي معادن الإبل وفوق بيت الله . وفي الباب عن أبى مرثد وجابر وأنس : حديث ابن عمر إسناده ليس بذلك القوي ، وقد نُكِّم في زيد بن جبير من قبل حفظه . وقد زاد علماؤنا : الدار المغصوبة والكنيسة والبيعة والبيت الذى فيه تمائيل ، والأرض المغصوبة أو موضعا تستقبل فيه نائما أو وجه رجل أو جدارا عليه نجاسة . قال ابن العربى : ومن هذه المواضع ما منع لحق النير ، ومنه ما منع لحق الله تعالى ، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لعلبتها ، فما منع لأجل النجاسة إن فرش فيه نوب طاهر كالخيام والمقبرة فيها أو إليها فإن ذلك جائز في المدونة . وذكر أبو مصعب عنه الكراهة ، وفرق علماؤنا بين المقبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة ، وبين مقبرة المسلمين والمشركين ؛ لأنها دار عذاب وبقعة مخطأ كالخمر . وقال مالك في المجموعة : لا يصلى في أعطان الإبل وإن فرش ثوبا ، كأنه رأى لما عتيت : الاستئثار بها وفارها ففسد على المصلى صلاته ، فإن كانت واحدة فلا بأس ؛ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ؛ وفي الحديث الصحيح . وقال مالك : لا يصلى على بساط فيه تمائيل إلا من ضرورة . وكره لأئمة القاسم الصلاة إلى القبلة فيها تمائيل ، وفي الدار المغصوبة ، فإن فعل أجنأ . وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة في الدار المغصوبة لا تجزى . قال ابن العربى : وذلك عندي بخلافه الأرض فإن الدلو لا تدخل إلا بإذن ، والأرض وإن كانت ملكا فإن المسجدية فيها قائمة لا يبطئها ذلك .

قلت : الصحيح - والله أعلم - الذى يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة . وما روى من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا واد به شيطان " وقد يرواه معمر عن الزهري فقال : وانخرجوا عن الموضع الذى أصابكم فيه الغفلة . وقول علي : نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة . وقوله عليه

(١) في الموطأ : « لأنها يستقر بها البول والغائط » فلا تكاد تخلو من النجاسة .

(٢) أى ثلاثة واحدة .

السلام حين مرّ بالبحر من ثمود : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين " ونهيه عن الصلاة في معاطن الإبل إلى غير ذلك مما في هذا الباب ، فإنه مردود إلى الأصول المجتمع عليها والدلائل الصحيح مجتبأ . قال الإمام الحافظ أبو عمر : المختار عندنا في هذا الباب أن ذلك الوادى وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلى فيها كلها ما لم تكن فيها نجاسة متيقنة تمنع من ذلك ، ولا معنى لاعتلال من أعتل بأن موضع النوم عن الصلاة موضع شيطان ، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيه الصلاة ، وكل ما روى في هذا الباب من النهى عن الصلاة في المقبرة وبارض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك مما في هذا المعنى ، كل ذلك عندنا منسوخ ومدفوع لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لى الأرض كلها مسجداً وطمهوراً " ، وقوله صلى الله عليه وسلم غبراً : إن ذلك من فضائله ومما خص به ، وفضائله عند أهل العلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص . قال صلى الله عليه وسلم : " أوتيت خمسا - وقد روى سبعا ، وقد روى ثلاثا وأربعاً ، وهى تنتهى إلى أزيه من قسح ، قال فين - " لم يؤتثن أحد قبلى بعثت إلى الأحمر والأسود ونصرت بالرعب وجعلت أمتى خير الأمم وأجلت لى الفنائم وجعلت لى الأرض مسجداً وطمهوراً وأوتيت الشفاعة وبعثت بجموع الكليم وبيننا أنا نائم أتيت بفتاح الأرض فوضعت فى يدي وأعطينت الكوثر وخيم لى النبون " رواها جماعة من الصحابة . وبعضهم يذكر بعضها ، ويذكر بعضهم ما لم يذكر غيره ، وهى صحاح كلها . وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها النقصان ؛ ألا ترى أنه كان عبداً قبل أن يكون نبياً ثم كان نبياً قبل أن يكون رسولا ؛ وكذلك روى عنه . وقال : " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " ثم نزلت : « لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » . وسمع رجلا يقوله : يا خير البرية ، فقال : " ذاك لإبراهيم " وقال : " لا يقول أحدكم أنا خير من يونس بن ميثا " وقال : " السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام " ثم قال بعد ذلك كله : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " . فضائله صلى الله عليه وسلم لم تزل

تداد إلى أن قبضه الله ؛ فمن حاشنا قلنا : إنه لا يجوز عليها النسخ ولا الاستثناء ولا التصان ،  
وجائزها الزيادة . وقوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا " .  
أجزأت الصلاة في المقبرة والحمام وفي كل موضع من الأرض إذا كان طاهرا من الإنجاس .  
وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : " حيثما أدرتلك الصلاة فصلت فإن الأرض كلها مسجد " .  
ذكره البخاري ولم يخص موضعا من موضع . وأما من احتج بحديث ابن وهب قال ،  
أخبرني يحيى بن أيوب عن زيد بن جبير عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمر حديث  
الترمذي الذي ذكرناه فهو حديث انفرد به زيد بن جبير وأنكره عليه ، ولا يعرف هذا  
الحديث مستثلا إلا برواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جبير . وقد كتب الليث بن سعد  
إلى عبد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث ، وكتب إليه عبد الله بن نافع  
لا أعلم من حدث بهذا عن نافع إلا قد قال عليه الباطل . ذكره الحلواني عن سعيد بن أبي مسهر  
عن الليث ، وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها ، وقد روى عن علي بن أبي طالب  
قال : نهاني حبيي صلى الله عليه وسلم أن أصل في المقبرة ، ونهاني أن أصلي في أرض بابل  
فإنها ملوثة . وأسناده ضعيف مجتمع على ضعفه ، وأبو صالح الذي رواه عن علي هو سعيد  
ابن عبد الرحمن النخعي ، يصري ليس بمشهور ولا يصح له سماع عن علي ، ومن دونه  
مجهولون لا يعرفون . قال أبو عمر : وفي الباب عن علي من قوله غير مرفوع حديث  
حسن الإسناد ، رواه الفضل بن دكين قال : حدثنا المنيرة بن أبي الحزّ الكندي قال حدثني  
أبو المتيسر شجر بن عيسى قال : خرجنا مع علي إلى الحرورية ، فلما جاوزنا سورا وقع  
بأرض بابل ، قلنا : يا أمير المؤمنين أسيت ، الصلاة الصلاة ، فأبى أن يكلم أحدا .  
قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد أسيت . قال بلى ، ولكن لا أصلي في أرض خسف الله بها .  
والمنيرة بن أبي الحزّ كوفي ثقة ؛ قاله يحيى بن معين وغيره . وشجر بن عيسى من كبار أصحاب  
علي . وروى الترمذي عن أبي سعيد التميمي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
" لا أرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام " . وقال الترمذي : رواه سفيان الثوري عن عمرو بن

يحيى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم مُرسلاً، وكأنه أثبت واضح . قال أبو عمر :  
 فسقط الاحتجاج به عند من لا يرى المرسل حجة ، ولو ثبت كان الوجه ما ذكرنا . ولست  
 أقول كما قال بعض المتحليين لمذهب المدنيين : إن المقبرة في هذا الحديث وغيره أريد بها  
 مقبرة المشركين خاصة ؛ فإنه قال : المقبرة والحمام بالآلف واللام ، فغير جائز أن يُرد ذلك إلى مقبرة  
 دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه ، فهو قول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة  
 ولا خبر صحيح ، ولا مدخل له في القياس ولا في المعقول ، ولا دلّ عليه فحوى الخطاب ولا نرج  
 عليه الخبر . ولا يخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين : إما أن يكون من  
 أجل اختلاف الكفار إليها بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر ؛ لأن كل موضع هم  
 فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك ، وقد جلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بما  
 لا معنى له . أو يكون من أجل أنها بقعة مخط ، فلو كان كذلك ما كان رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم يبني مسجده في مقبرة المشركين وينشئها ويبنى عليها ، ولو جاز لقائل  
 أن ينخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من  
 أجل هذا الحديث . وكل من كره الصلاة في المقبرة لم ينخص مقبرة من مقبرة ؛ لأن الآلف  
 واللام إشارة إلى الجنس لا إلى المعهود ، ولو كان بين مقبرة المسلمين والمشركين فرق لينة  
 صلى الله عليه وسلم ولم يعله ؛ لأنه بعث ميئاً . ولو ساغ لجاهل أن يقول : مقبرة كذا لجاهل  
 لآثر أن يقول : حمام كذا ؛ لأن في الحديث المقبرة والحمام . وكذلك قوله : المزلة  
 والحزرة ؛ غير جائز أن يقال : مزلة كذا ولا مجزرة كذا ولا طريق كذا ؛ لأن التحكم في دين  
 الله غير جائز .

وأجمع العلماء على أن التيمع على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيباً طاهراً نظيفاً جائز .  
 وكذلك أجمعوا على أن من صلى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر ، أن صلاحه ماضية جائزة .  
 وقد تقدم هذا في سورة «براعة» . ومعلوم أن الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة مخط من المقبرة ؛

لأنها بقعة يعصى الله ويكفر به فيها ، وليس كذلك المقبرة . وقد وردت السنة باتخاذ البيع  
والكائس مساجد . روى النسائي عن طلق بن علي قال : خرجنا وقدأ إلى النبي صلى الله  
عليه وسلم فبايعناه وصلينا معه ، وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا ، وذكر الحديث . وفيه : " فإذا  
أتيتم أَرْضَكُمْ فَأكْبِرُوا بِعَيْتِكُمْ واتخذوها مسجدا " . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبي العاص  
أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم . وقد  
تقدم في « براءة » . وحسبك بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي أسس على التقوى مبنيًا  
في مقبرة المشركين ؛ وهو حجة على كل من كره الصلاة فيها . ومن كره الصلاة في المقبرة سواء  
كانت لمسلمين أو مشركين الثوري وأبو حنيفة والأوزاعي والشافعي وأصحابهم . وعند  
الثوري لا يعيد . وعند الشافعي إجزاء إذا صلى في المقبرة في موضع ليس فيه نجاسة ؛ للأحاديث  
للمعومة في ذلك ، ولحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صلوا في بيوتكم  
ولا تتخذوها قبورا " ، ولحديث أبي مرثد الفتيوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :  
" لا تقصروا إلى القبور ولا تجلسوا عليها " ، وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد ، ولا حجة  
فيهما ؛ لأنهما محتملان للتأويل ، ولا يجب أن يمنع من الصلاة في كل موضع طاهر إلا بدليل  
لا يحتمل تأويلا . ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه  
من تحطيل القول الذي لا يستغل بمثله ، ولا وجه له في نظر ولا في صحيح أثر .

وثانها <sup>١١٦</sup> الحائط يلي فيه التَّنَّ والعِدَّة ليكرم فلا يصلي فيه حتى يسبق ثلاث مرات ،  
كما رواه الدارقطني عن مجاهد بن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحائط يلي فيه  
العِدَّة والتَّنَّ قال : " إذا سبق ثلاث مرات فصل فيه " . ونرجه أيضا من حديث نافع عن  
ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطان التي تأتي فيها العِدَّات وهذا الزبل ، أبصلي فيها ؟ فقال :  
إذا سبقت ثلاث مرات فصل فيها . رُفِعَ ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم . اختلفا  
في الإسناد والله أعلم .

قوله تعالى : **وَأَيِّنَّاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾**

قوله تعالى : ( **وَأَيِّنَّاهُمْ ءَايَاتِنَا** ) أى آياتنا . كقوله : « آتَيْنَا غَدَاءَنَا » أى غدائنا . والمراد الناقة ، وكان فيها آيات جمة : خروجها من الصخرة ، ودَوُّ نواجها عند خروجها ، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جيعا . ويحتمل أنه كان لصالح آيات أخر سوى الناقة ، كالبر وغيره . ( **فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ** ) أى لم يمتثلوا .

قوله تعالى : **وَكَانُوا يَخْتُونُ مِنْ أَجْلِ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَآخَذْتَهُمُ**

**الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾**

• النحت في كلام العرب : البرئ والنجر . نحت نخته ( بالكسر ) نحت أى براه . والنحانة البراية . والمنحت ما نحت به . وفى التثزيل « **أَتَعْبُدُونَ مَا تَخْتُونَ** » أى تجترون وتصنعون . فكانوا يخفون من الجبال بيوتا لأنفسهم بشدة قوتهم . ( **ءَامِنِينَ** ) أى من أن تسقط عليهم أو تخرب . وقيل : آمنين من الموت . وقيل : من العذاب . ( **فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ** ) أى فى وقت الصبح ، وهو نصب على الحال . وقد تقدم ذكر الصيحة فى هود والأعراف . ( **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ) من الأموال والحصون فى الجبال ، ولا ما أعطوه من القوة .

قوله تعالى : **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَخْلَقَ**

**الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾**

(١) آية ٦٢ سورة الكهف . (٢) آية ٩٥ سورة الصافات .

(٣) راجع - ٩٥ ص ٦١ و ٧ ص ٢٤٢ طبعة أولى ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى للزوال والفاء .  
 وغيره : أى لأجازى المحسن والمسيء ؛ كما قال : « وَبِاللهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ  
 لِيُجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » . ( وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ) أى  
 لكائنة فيجزى كل بعمله . ( فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ) مثل « وَأَنْجَرُهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا » أى تجاوز  
 عنهم يا محمد ، وأعف عفواً حسناً ثم نسخ بالسيف . قال قتادة : نسخه قوله : « وَتَقْدُومُهُمْ  
 وَاتَّقَاتُومُهُمْ حَيْثُ تَقْتَدُومُهُمْ » . وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : « لقد جئكم بالذبح  
 وبُعِثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة » قاله عكرمة وبجاهد . وقيل : ليس بمسوخ ، وأنه أمر  
 بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم . والصفح : الإعراض ؛ عن الحسن وغيره . ( إِنْ  
 وَدَّعَكَ هُوَ اتَّخَذَ ) أى للمقتدر للخلق والاخلاق - ( الْعَلِيمُ ) بأهل الوفاق والتفاق .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (١٧)

لختلف العلماء في السبع المثاني ؛ فقيل : الفاتحة ؛ قاله علي بن أبي طالب وأبو هريرة  
 والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه  
 ثلثة ، من حديث أبي بن كعب وأبي سعيد بن الملق . وقد تقدم في تفسير الفاتحة . ونزح  
 الترمذي عن حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله أم  
 القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني » . قال : هذا حديث حسن صحيح . وهذا نص ، وقد  
 تقدم في الفاتحة . وقال الشاعر :

تسندكم بميزل القرآن • أم الكتاب السبع من مثاني

وقال ابن عباس : هي السبع الطول : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ،  
 والأنعام ، والأعراف ، والأنفال والتوبة معاً ؛ إذ ليس بينهما التسمية . روى النسائي .

(١) آية ٣٩ سورة النجم . (٢) آية ٤٠ سورة الزلزلة . (٣) آية ٩١ سورة النساء .

(٤) كتاب الأصول وتفسير القرطبي . وفي كتاب الجامع الصغير : « بالمجاهد » . (٥) كتاب الأصول .

(٦) وأربع ج ١ ص ٨ - طبعة ثانية أورثا

حدثنا علي بن جُمَير أخبرنا شريك عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ قال : السبع الطُّولُ ، وسُميت مثنى لأن العبر والأحكام والحدود ثُبِتَتْ فيها . وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هذه الآية بمكة ، ولم ينزل من الطُّول شيء إذ ذاك . وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوما ، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه بها صلى الله عليه وسلم وإن لم ينزل عليه بعد . ومن قال إنها السبع الطول : عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد . وقال جرير :

جزى الله الفرزدق حين يمضي \* مضيعا للفصل والمثنى

وقيل : المثنى القرآن كله ، قال الله تعالى : « كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَّ » . هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك ، وقاله ابن عباس . وقيل له مثنى لأن الأنبياء والقصاص ثُبِتَتْ فيه . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقد كان نورا ساطعا يهتدى به \* يَخْصُ بِتَرْجِيلِ الْقُرْآنِ الْمُعْظَمِ

أى القرآن . وقيل : المراد بالسبع المثنى أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعدد نعم وأنباء قرون ، قاله زياد بن أبي مريم . والصحيح الأول لأنه نص . وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثنى ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ، إلا أنه إذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وثبت عنه نص في شيء لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده . قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ فيه إضمار تقديره : وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتغالها على ما يتعلق بأصول الإسلام . وقد تقدم في الفاتحة . وقيل : الواو مفتحة ، التقدير : ولقد آتيناك سبعا من المثنى القرآن العظيم . ومنه قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام \* وليت الكتيبة في المُزْدَحَمِ

وقد تقدم عند قوله : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » .

قوله تعالى : لَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ  
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَانْخَضِ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ لَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ ﴾ المعنى : قد أغنىتك بالقرآن عما في أيدي  
الناس ، فإنه ليس منا من لم يتغن بالقرآن ، أى ليس منا من رأى أنه ليس يتغنى بما عنده  
من القرآن حتى يطمع بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى . يقال : إنه وفى سبع  
قوافل من البصرى وأذرعاً ليهود قريظة والنضير فى يوم واحد ، فيها البر والطيب والجوهر  
وامتعة البحر ، فقال المساكون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينها وأنفقناها فى سبيل الله ،  
فأنزل الله تعالى « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني » أى فهمى خير لكم من القوافل السبع ، فلا  
تمدن أعينكم إليها . وإلى هذا صار ابن عيينة ، وأورد قوله عليه السلام : " ليس منا من لم يتغن  
بالقرآن " أى من لم يستغن به . وقد تقدم هذا المعنى فى أول الكتاب . ومعنى ﴿ أَزْوَاجًا  
مِنْهُمْ ﴾ أى أمثالا فى النعم ، أى الأغنياء بعضهم أمثال بعض فى الفنى ، فهم أزواج .

الثانية - هذه الآية تقتضى الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام ، وإقبال  
العبد على عبادة مولاه . ومثله « وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ » الآية . وليس كذلك ، فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :  
« حُبَّ إِلَى مِنْ دُنْيَاكُمْ وَالنِّسَاءِ وَالطِّيبِ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » . وكان عليه الصلاة  
والسلام يتشاغل بالنساء ، حيلة الآدمية وتشوف الحلقة الإنسانية ، ويحافظ على الطيب ،  
ولا تنزله عين إلا فى الصلاة لدى مناجاة المولى . ويرى أن مناجاته أخرى من ذلك وأولى .  
ولم يكن فى دين محمد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية كما كان فى دين عيسى ،

(١) راجع ج ٢ ص ٢٢ طبة ثانية أرتانة . (٢) آية ١٣١ سورة طه . (٣) كذا فى نسخة  
الناسى وسند الامام أحمد . وفى فى الأصول : « حب إلى من دينا كم ثلاث - الخ » ويكلمة « ثلاث »  
لا يستقيم الكلام .

وإنما شرع الله سبحانه حنيفية سمحة خالصة عن الحرج خفيفة على الآدمي ، يأخذ من الآدمية بشهواتها ويرجع إلى الله بقلب سليم . ورأى القراء والمخلصون من الفضلاء الانكفاف عن اللذات والخلوص لرب الأرض والسموات اليوم أولى ؛ لما ظب على الدنيا من الحرام ، وأضطر العبد في المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانعة من تحزم مصانعته ، فكانت القراءة أفضل ، والقرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " يأتي على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن " .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ قَلِيلٌ ﴾ أى ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا . وقيل : المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا فلك في الآخرة أفضل منه . وقيل : لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العذاب . ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى إني بجانبك لمن آمن بك وتواضع لهم . وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرج ، بفعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان أتباعه . ويقال : فلان خافض الجناح ، أى وقور ساكن . والجناحان من ابن آدم جانبا ، ومنه « وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِ »<sup>(١)</sup> وجناح الطائر يده . وقال الشاعر :

وحسبك فتية لزعم قوم • يمد على أسمى سقم جناحا

أى تواضعا ولينا .

قوله تعالى : وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى

الْمُقْسِمِينَ ﴿١٢﴾

في الكلام حذف ؛ أى إني أنا النذير المبين عذابا ، لحذف المفعول ، إذ كان الإنذار يدل عليه ، كما قال في موضع آخر : « أُنْذِرْتُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ »<sup>(٢)</sup> . وقيل : الكاف زائدة ، أى أنذرتكم ما أنزلنا على المقسمين ؛ كقوله : « لَيْسَ كَيْفَلُهُ شَيْءٌ »<sup>(٣)</sup> . وقيل : أنذرتكم

(١) أى ووسمها . (٢) آية ٢٢ سورة طه . (٣) آية ١٢ سورة نمل .

مثل ما أنزلنا بالمقتسمين . وقيل : المعنى كما أنزلنا على المقتسمين ، أى من العذاب وكفيناك المستهزئين ، فاصدح بما تومر وأعرض عن المشركين الذين يقنوا ، فإننا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى .

وأختلف في « الْمُقْتَسِمِينَ » على أقوال سبعة : الأول - قال مقاتل والفرراء : هم ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فأقسموا أعقاب مكة وأهاليها وبهاجها يقولون لمن سلكها : لا تقترأ بهذا الخارج فينا يدعى النبوة ، فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن . وثموا المقتسمين لأنهم اقتصموا هذه الطرق ، فأماهم الله شريفة ، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حاكم على باب المسجد ، فإذا سألوه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : صدق أولئك . الثاني - قال قتادة : هم قوم من كفار قريش اقتصموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا ، وبعضه همرا ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين . الثالث - قال ابن عباس : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . وكذلك قال عكرمة : هم أهل الكتاب ، وثموا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين ، فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه السورة لك . وهو القول الرابع . الخامس - قال قتادة : قسموا كتابهم ففترقوه وبدعوه وحرفوه . السادس - قال زيد بن أسلم : المراد قوم صالح ، فقاموا على قتله فسموا مقتسمين ، كما قال تعالى : « تَقَامِسُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّ وَأَهْلَهُ » . السابع - قال الأخفش : هم قوم اقتصموا أيماننا تحالفوا عليها . وقيل : إنهم العاص بن وائل وحبشة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبته ابن الجراح ، ذكره السارودي .

قوله تعالى : الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿١١﴾

هذه صفة المقتسمين . وقيل : هو مبتدأ وخبره « لئالئهم » . وواحد العِضِينَ عضة ، من عَضَيْت الشيء عَضِيَةً أى فرقته ، وكل فرقة عَضَّة . وقال بعضهم : كانت في الأصل (١) آية ٩ ، سورة النمل .

عِصْوَةً فَتَقْصُصُ الْوَاوِ ، وَلِئِنَّكَ جَمَعْتَ عِصِينَ ، كَمَا قَالُوا : يَمِيزِينَ فِي جَمْعِ عِزَّةٍ ، وَالْأَصْلُ عِزْرَةٌ . وَكَذَلِكَ ثَبَّةٌ وَثِيْنٌ . وَيرجع المعنى إلى ما ذكرناه في المقتسمين . قال ابن عباس : آمَنُوا بَعْضُ وَكَفَرُوا بَعْضُ . وَقِيلَ : تَرَفَّقُوا أَقَاوِيلَهُمْ فِيهِ لَجَعَلُوهُ كَذِبًا وَمَحَرَّأَ كَهَانَةً وَشَعْرًا . عِصْوَتُهُ أَيْ فِرْقَتُهُ . قَالَ الشَّاعِرُ — هُوَ رُؤْبَةُ — :

• وَلَيْسَ دِينَ اللَّهِ بِالْمَقْصِي •

أَيْ بِالْمُفْرَقِ . وَيُقَالُ : تَقْصَانُهُ الْمَاءَ وَأَصْلُهُ عِصْبَةٌ ، لِأَنَّ الْعِصْبَةَ وَالْعِصِينَ فِي لُغَةِ قُرَيْشٍ السَّحَرُ . وَهُمْ يَقُولُونَ لِلْسَّاحِرِ : عَاضِيهِ وَلِلْمَاحِرَةِ عَاضِيَةٌ . قَالَ الشَّاعِرُ :

أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ التَّائِيَسَا • بَيْتٌ فِي عَقْدِ الْعَاضِيَةِ الْمُعِصِيَةِ

وَفِي الْحَدِيثِ : لَمَّا رَمَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَاضِيَةَ وَالْمُسْتَعِصِيَةَ ، وَتَمَرَّ : السَّاحِرَةَ وَالْمُسْتَسْجِرَةَ . وَالْمَعْنَى : أَكْثَرُوا الْبُهْتَ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَوَعَّرُوا الْكُذْبَ فِيهِ ، قَالُوا : سَحَرٌ وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، وَأَنَّهُ مُفْتَرًى ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . وَنَظِيرُ عِصَّةٍ فِي التَّقْصَانِ شَفْهُ ، وَالْأَصْلُ شَفْهَةٌ . كَمَا قَالُوا : سَنَةٌ ، وَالْأَصْلُ سَنَةٌ ، فَتَقْصُوا الْمَاءَ الْأَصْلِيَّةَ وَأَثَبْتَ هَاءَ الْعَلَامَةِ وَهِيَ لِلتَّائِيَسِ . وَقِيلَ : هُوَ مِنَ الْعِصْبَةِ وَهِيَ النِّيمَةُ . وَالْعِصْبَةُ الْبَهْتَانُ ، وَهُوَ أَنَّ عِصْبَةَ الْإِنْسَانِ يَقُولُ فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهِ . يُقَالُ عِصْبُهُ عِصْبًا رَمَاهُ بِالْبَهْتَانِ . وَقَدْ أَعْصَبَتْ أَيْ جَنَّتْ بِالْبَهْتَانِ . قَالَ الْكِسَائِيُّ : الْعِصْبَةُ الْكُذْبُ وَالْبَهْتَانُ ، وَجَمْعُهَا عِصُونٌ ، مِثْلُ عِزَّةٍ وَعِزْرُونَ ، قَالَ نَعَالِي : « الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِصِينَ » . وَيُقَالُ : عِصْوَهُ أَيْ آمَنُوا بِمَا أَحْبَبُوا مِنْهُ وَكَفَرُوا بِالْبَاقِي ، فَاحْبَطَ كَقَرِهِمْ إِيْمَانَهُمْ . وَكَانَ الْفَرَاءُ يَنْهَبُ إِلَى أَنَّهُ مَا خُوِذَ مِنَ الْبَيْضَةِ ، وَهِيَ شَجَرَةُ الْوَادِي وَيَخْرُجُ كَالشُّوكِ .

قوله تعالى : فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ لَنَسْأَلُنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَرَى ذِكْرُهُمْ هُمَا عَمَلُوا فِي الدُّنْيَا . وَفِي الْبُخَارِيِّ : وَقَالَ عِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » مِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

قلت : وهذا قد روى معروفنا ، روى الترمذى الحكيم قال : حدثنا الجارود بن معاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نسيك عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « فوبك لنساءهم أجمعين عما كانوا يعملون » قال : « عن قول لا إله إلا الله » قال أبو عبد الله : معناه عندنا عن صدق لا إله إلا الله ووفاتها ؛ وذلك أن الله تعالى ذكر في تزييله العمل فقال : « عما كانوا يعملون » ولم يقل عما كانوا يقولون ، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عمل اللسان ، فإنما المعنى به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قولٌ والعمل عملٌ . وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عن لا إله إلا الله » أى عن الوفاء بها والصدق لمقالتها . كما قال الحسن البصرى : ليس الإيمان بالتحلى ولا الدين بالتمنى ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال . ولهذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » قيل : يا رسول الله ، وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله » . رواه زيد بن أرقم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عهد إلى آلا يأتين أحد من أمته بلا إله إلا الله لا يخطئ بها شيئا إلا وجبت له الجنة » قالوا : يا رسول الله ، وما الذى يخطئ بلا إله إلا الله ؟ قال : « حرصا على الدنيا ويحما لها ومنعها لها ، يقولون قول الأنبياء يعملون أعمال الجبابرة » . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا إله إلا الله تمنع العباد من خطئ الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله رقت طيهم وقال الله كذبتم » . أسانيدنا في نوادر الأصول .

قلت : والآية يعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرين ومؤمنين ، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه في كتاب ( التذكرة ) . فإن قيل : وهل يسأل الكافر ويحاسب ؟ قلنا : فيه خلاف ، وذكرناه في التذكرة . والذي يظهر مسأله ، والآية وقوله : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » وقوله : « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ طَلَبَاتِنَا حِسَابَهُمْ » . فإن قيل : فقد قال تعالى :

« وَلَا يُسَالُّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » <sup>(١)</sup> وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسَالُّ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ » <sup>(٢)</sup> ، وقال : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ » <sup>(٣)</sup> ، وقال : « إِنَّمَا عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ نَاحٍ » <sup>(٤)</sup> . قلنا : القيامة مواطن ، فوطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فيه . قال عكرمة : القيامة مواطن ، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها . وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل علمت كذا وكذا ؛ لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تفرغ وتوبيخ فيقول لهم : لم عصيتم القرآن وما جئتمكم فيه ؟ واعتمد قطرب هذا القول . وقيل : « لنسألهم أجمعين » <sup>(٥)</sup> يعني المؤمنين المكلفين ، بيانه قوله تعالى : « ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » <sup>(٦)</sup> . والقول بالعموم أولى كما ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤٥﴾  
إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ( فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ) أي بالذي تؤمر به ، أي بلغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم ، فقد أمرك الله بذلك . والصدع : الشق . وتصدع القوم أي تفرقوا ؛ ومنه « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ » <sup>(١)</sup> أي يتفترقون . وصدعته فاصدع أي انشق . وأصل الصدع الفرق والشق . قال أبو ذؤيب يصف الجمار وأنته :

وَكَاثَرَتْ رِيَابُهُ وَكَأَنَّهُ يَسْرُ . يُفِضُ عَلَى الْقِدْحِ وَيَصْدَعُ <sup>(٢)</sup>

أي يفرق ويشق . فقله : « أَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » قال الفراء : أراد فأصدع بالأمر ، أي أظهر دينك . فـ « ما » مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر . وقال ابن الأعرابي : معنى اصدع بما تؤمر ، أي اقصده . وقيل : « فأصدع بما تؤمر » أي فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوم إلى التوحيد فإنهم يتفترقون بأن يجيب البعض ، فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار .

(١) آية ٧٨ سورة القصص . (٢) آية ٣٩ سورة الرحمن . (٣) آية ١٧٤ سورة البقرة .

(٤) آية ١٥ سورة المطففين . (٥) آخر سورة النكار . (٦) آية ٣٠ سورة الزمر .

(٧) الرابطة : الجملة التي تجمع فيها الأسماء . واليقر : صاحب المير الذي يضرب بالقدح .

قوله تعالى : ( وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ) أى عن الاهتمام باستنزائهم وعن  
 للباسات بقولهم ، فقد برك الله عما يقولون . وقال ابن عباس : هو منسوخ بقوله  
 « فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ » . وقال عبد الله بن عبيد : ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً  
 حتى نزل قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر » فخرج هو وأصحابه . وقال مجاهد : أراد  
 الجهر بالقرآن في الصلاة . « وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » لا تبال بهم . وقال ابن إسحاق :  
 لما تمادوا في الشر وأكثروا رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستنزاء أنزل الله تعالى « فاصدع  
 بما تؤمر وأعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » إنا كفيلاك المستزئين . الذين يعملون مع الله إلباً آخر  
 فسوف يعلمون . والمعنى : اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله ، فإن الله كافيك من أذاك  
 كما كافك المستزئين ، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة ، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم ،  
 والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة . والأسود بن عبد يثوث ،  
 والحارث بن الضحالة ، أهلكهم الله جميعاً ، قيل يوم بدر في يوم واحد ، لاستنزائهم رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم . وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق : أن جبريل أتى رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم وهم يطولون بالبيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فز به الأسود  
 ابن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمى ووجعت عينه ، فجعل يضرب برأسه الجدار .  
 ومرة به الأسود بن عبد يثوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فسات منه حباً . ( يقال :  
 حين ( بالكسر ) حباً وحين لقول عظم بطنه بالماء الأصفر ، فهو أحين ، والمرأة حبناء ، قاله  
 في الصحاح ) . ومرة به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثريج بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه  
 قبل ذلك بسمين ، وهو يثو سبلة ، وذلك أنه مرة برجل من خزاعة يرش نبلاً له فتعاقب منهم  
 من نبيله بإزاره فخذش في رجله ذلك الخلدش وليس بشئ ، فانتقض به فقتله . ومرة به  
 العاص بن وائل فأشار إلى أنف رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فريض به على  
 شريعة فلخلت في أنف رجله شوكة فقتله . ومرة به الحارث بن الضحالة ، فأشار إلى رأسه  
 (١) آية سورة التوبة . (٢) الليل ( بالحريك ) ، ثياب الحسية ، فعل ذلك كما واعتادوا .  
 (٣) الشريك ، بهت جائز لكل ، به شرك .

(١١) فامسح خطيها فقتله . وقد ذكر في سبب موتهم اختلاف قريب من هذا . وقيل : أنهم المراد بقوله تعالى : « نَحْرُ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » (١٢) شبه ما أصابهم في موتهم بالسقف الواقع عليهم ، على ما يأتي .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

هذه صفة المستهزئين . وقيل : هو ابتداء وغيره « فسوف يعلمون » .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ) أى قلبك ؛ لأن الصدر محل القلب . ( بِمَا يَقُولُونَ ) أى بما تسمعه من تكذيبك وردّ قولك ، وتآله وتبآله أصحابك من أملاك .

قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٥﴾

فيه مسائلان :

الأولى — قوله تعالى : ( فَسَبِّحْ ) أى فاتمّزج إلى الصلاة ، فهي ثابّة التسبيح ونهاية التقديس ؛ وذلك تفسيرا لقوله : ( وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ) ولا خفاء أن غاية القرب في الصلاة حال السجود ، كما قال عليه السلام : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فخلصوا ألداه " . ولذلك خصّ السجود بالذكر .

الثانية — قال ابن العربي : ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه ، فرأى هذا الموضع محل سجود في القرآن ، وقد شاهدت الإمام بحراب ذكرى من البيت المقدس طهره الله ، يسجد في هذا الموضع وتجلّت معه فيها ، ولم يره جماهير العلماء .

قلت : قد ذكر أبو بكر النقاش أن ها هنا مجدة عند أبي حذيفة ويمان بن زئاب ، ورأى أنها واجبة .

## قوله تعالى : وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٦٦﴾

فيه مسألة واحدة - وهو أن اليقين الموت . أمره بعبادته إذ قصر عبادته في خدمته ، وأن ذلك يجب عليه . فإن قيل : فما فائدة قوله « حتى يأتيك اليقين » وكان قوله : « واعبد ربك » كافياً الأمر بالعبادة ، قيل له : الفائدة في هذا أنه لو قال : « واعبد ربك » مطلقاً ثم عبده مرة واحدة كان مطيعاً ؛ وإذا قال « حتى يأتيك اليقين » كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت . فإن قيل : كيف قال سبحانه « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ولم يقل أبداً ؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله : أبداً ؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد . وقد تقدم هذا المعنى . والمراد استمرار العبادة مدة حياته ، كما قال العبد الصالح : وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . ويترتب على هذا أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق أبداً ، وقال : نويت يوماً أو شهراً كانت عليه الرجعة . ولو قال : طلقته حياتي لم يراجعها . والدليل على أن اليقين الموت حديث أم العلاء الأنصارية ، وكانت من المبهمات ، وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما عثمان - أعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين وإنى لأرجو له الخير والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به » وذكر الحديث . انفرد بإخراجه البخاري رحمه الله ! وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له ؛ يعني كأنهم فيه شاكون . وقد قيل : إن اليقين هنا الحق الذي لا ريب فيه من نصرك على أعدائك ؛ قاله ابن شجرة والأول أصح ، وهو قول مجاهد وقادة والحسن . والله أعلم . وقد روى جبير بن نفير عن أبي مسلم الخولاني أنه سمعه يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أوحى إلى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إلى أن أصبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تفسير سورة النحل

وهي مكة كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمى سورة النعم بسبب ما عتد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هي مكة غير قوله تعالى : « وَإِنْ مَقَمُّكُمْ مُقَامُكُمْ وَمَنْ مَقَرُّكُمْ بِهِ » الآية ؛ نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحجة وقيل أحد . وغير قوله تعالى : « وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ » . وغير قوله : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا » الآية . وأما قوله : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » فكأن ، في شأن هجرة الحبشة . وقال ابن عباس : هي مكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة ، وهي قوله : « وَلَا تَسْرَبُوا بِمَقْعِدِ اللَّهِ مَتَاعًا قَلِيلًا - إل قوله - وَأَحْسِنِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » .

قوله تعالى : أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ( أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ) قيل : « أَتَى » بمعنى أتى ؛ فهو كقولك : إن أكرمتي أكرمتك . وقد تقدم أن أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء ؛ لأنه آيت لا محالة ، كقوله : « وَتَأْتِي السُّحُبُ الْحَمِيمَةُ أَجْنَابُ الْبَارِ » . و « أَمْرُ اللَّهِ » عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله . قال الحسن وابن جرير والضحاك : إنه ما جاء به القرآن من فرائض وأحكامه . وفيه بعد ؛ لأنه لم يقل أن أحدا من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم ، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش

(١) آية ١٢٦ (٢) آية ١٢٧ (٣) آية ١١٠ (٤) آية ١١ (٥) آية ١٠٩ وما بعدها  
(٦) آية ١٤ سورة الأعراف .

وفيهم، حتى قال النضر بن الحارث: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ» الآية،  
فَأَسْعِلِ الْعَذَابَ.

قلت: قد يستدل الضحاك بقول عمرو بن عبد الله عنه: واقفت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الجحيم، وفي أسارى بدر، نرجه مسلم والبخاري. وقد تقدم في سورة البقرة.  
وقال الزجاج: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وهو قوله: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ»<sup>(١)</sup>. وقيل: هو يوم القيامة أو ما يدل على قربها من أمرائها. قال ابن عباس: لما نزلت  
«أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَسْقَى الْقَمَرُ»<sup>(٢)</sup> قال الكفار: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا  
ههنا بعض ما كنتم تعملون، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا، فقالوا: ما نرى شيئا! فزلت  
«أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ»<sup>(٣)</sup> الآية. فاشتقوا وانتظروا فحرب الساعة، فامتدت الأيام فقالوا:  
«ما نرى شيئا! فزلت»<sup>(٤)</sup> أُنْزِلَ أَمْرُ اللَّهِ. فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون  
وخافوا، فزلت «فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ» فاطمأنوا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بعثت أنا  
والساعة كهاتين» وأشار بأصبعيه: الساعة والآتي عليها. يقول: أن كادت السبقتني فسبقتها.  
وقال ابن عباس: كان بعث النبي صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة، وأن جبريل لما  
هرى بأهل السموات جبروتا إلى محمد صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر، قد قامت الساعة.  
أقوله تعالى: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أي تنزها له عما يصفونه به من أنه  
لا يقدر على قيام الساعة، وذلك أنهم يقولون: لا يقدر أحد على بعث الأموات، فوصفوه  
بالمعجز الذي لا يوصف به إلا المخلوق، وذلك شرك. وقيل: «عَمَّا يُشْرِكُونَ» أي عن  
إشراكهم، وقيل: «ما» بمعنى الذي أي ارتفع عن الذين أشركوا به.

(١) جامع به ص ١١٢ طبع ثانية. (٢) آية ١٠ سورة هود. (٣) أول سورة القم.

(٤) أول سورة الأنبياء.

إذا كان « القروطي » سينجلد في مجلد واحد فتتبع هذه الورقة

المجلد الثاني من تاريخ العرب  
في شوارع قمر بنی العقیل - كتاب التاريخ









Bibliotheca Alexandrina



0415115